
ساحر الكتب
رواية
جرائم الغراب السبع
خالد أمين
دار دَوِّن

خالد أمين: جرائم الغراب السبع، رواية
الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠٢٤
رقم الإيداع: ٢٠٢٣\٢٨٤٥٣ - الترقيم الدولي: ٦-٤٠٥-٨٠٦-٩٧٧-٩٧٨

© دار دَوِّنْ
عضو اتحاد الناشرين المصريين.
عضو اتحاد الناشرين العرب.
القاهرة - مصر
Mob +2 - 01020220053
info@dardawen.com
www.Dardawen.com

الفصل الأول

يوسف شاب طموح للغاية.. وغدًا سيكون عيد ميلاده الثاني والعشرين، الحقيقه أنه دومًا يتفائل بكون عيد ميلاده مطابق لأول يوم من شهر يناير وقراره لهذا العام الجديد كان تعلُّم لغة جديدة تساعده في زيادة دخله، طبعًا لم يكن يعلم أنه لن يعيش ليكمل الثانية والعشرين من العمر على الإطلاق..

أوقف يوسف دراجته البخارية أمام تلك الفيلّا المُحاطة بسياج معدنيٍّ يخفي حديقة خضراء جميلة بين أحضانه..

رفع يديه ليُزيل خوذة رأسه.. ثم قارن العنوان المكتوب على هاتفه بموقعه الحالي على الخارطة الإلكترونية.. بعض زملائه في مهنة توصيل الطلبيات يرفضون استخدام الخرائط الإلكترونية مشكّكين بفاعليتها، لكن يوسف من الجيل الجديد الذي يحاول تجنب الأفكار التقليدية كسؤال المارة واستخدام وصف مكتوب، وهو يحاول ألا يتذمر دائمًا من العُملاء وطرق وصفهم المضلِّلة كما يفعل البعض رغم أن بعض العملاء يستحق ما هو أكثر من التذمر.. نظر يوسف لتفاصيل الطلبية على هاتفه.. ثلاث فطائر محلّاة بالشوكولاتة وفطيرة لبن بالسكر، شعَر بمَعدته تستيقظ ليسيلَ لُعابها في نَهَم وشوق لتلك الفطائر، هز رأسه.. هنا رن هاتفه، ابتسم وهو يرى اسم رقية يعتلي شاشة هاتفه..

هناك حقيقة أخرى يجب أن نعرفها بشأن يوسف بخلاف كونه طموحًا، وهي أن يوسف شاب شديد الرومانسية..

أوصل سماعات الأذن بهاتفه وضغط على زرِّ استقبال المكالمة ثم حمَل الطلبية بين يديه..

- كل عام وأنتَ بخير يا حبيبي.

ابتسم يوسف وهو يسير صوب باب الفيلَّا القابعة وسط حديقة خضراء جميلة بالتجمع بينما الهدوء يخيم على كل شيء من حوله..

- وأنت بخيرٍ يا جميلتي.

- تلك آخر طلبية لكَ اليوم، أليس كذلك؟

- بلى.

- عُد للمنزل بسرعة لنكون معًا على الهاتف عند حلول العام الجديد.

- لا تقلقي سأكون هناك.

صمتت رقية قليلًا، وتوقف يوسف في منتصف الممرِّ المجاور للحديقة، هو يعرف جيدًا صمتها هذا، هي تفكر بشيء ما بشأنه هو، دعْكَ من حقيقة أنه لم يُرد قرع الجرس وهي معه على الهاتف، شيء بداخله كان يخجل من فكرة سماعها له وهو يعمل كمندوب توصيل طلبيات بمطعم حلوى، رغم أن كلاهما يعرف جيدًا أن تلك وظيفة تدعم دراسته في كلية الآثار، إضافة لعمله كسائق في أيام العطلة الأسبوعية، هذا شيء آخر يجب إضافته لصفات يوسف..

هو شابٌّ مكافح للغاية..

حقيقة أنه لا يعلم أي مهنة سيلتحق بها بعد تخرجه من الكلية

التي تأخر بها لمدة عامين بسبب عمله المستمر، لكنه يثق بحدسه، طالما هو يبذل مجهودًا فالنجاح ينتظره، وعمَّا قريب ستكون رقية زوجته وسيصبح رجلًا ذا وظيفة واحدة فقط تُدر عليه ما يكفيه من دخلٍ كي يعيش ويمتلكَ بعض الوقت لنفسه،، لحين هذا الوقت عليه الاستمرار في طريقه هذا..

تلك صفة أخرى تخصُّ يوسف، هو يستغرق في أفكاره فلا يلاحظ جيدًا ما يحدث من حوله..

مثلًا هو لم يرَ اليدَ التي ارتمت على زجاج نافذة غرفة المعيشة، ربما لو كان قد رآها قبل أن تسقط تاركة أثرًا من الدماء خلفها لظل حيًّا.. لكنه انشغل بالتفكير في رقية بدلًا من ملاحظة ما يدور داخل البيت الذي يهم بطرق بابه..

تحركت قدما يوسف مواصلًا السير في الممرِّ المؤدي إلى باب الفيلَّا.. وأتاه صوت رقية مردفة برِقَّة وموضحة ما كانت تفكِّر بشأنه إبَّان صمتها: اعلم أن عليك المذاكرة، لم أرد أن أحمل عليك ضغطًا بأن تتحدث معي تلك الليلة.

- أنا أحبك يا رقية، وقتي كلّه مِلْكِكِ..

قالها يوسف بصدقٍ وهو يتوقف أمام باب الفيلَّا وأكمل: سأوصل الطلبية وأحدِّثكِ لاحقًا..

امتدت يد يوسف ورنَّ جرس الباب.. بينما جالت عيناه للحظةٍ في الأرجاء من حوله، أول شيء تعلمه في وظيفته تلك ألَّا يقارن حاله بحال مَن يوصِّل لهم الطلبات، وعليه ألَّا يحلُم بكونه مثلهم، ثاني

شيء ألا يفعل مثل زميل آخر له الذي يتسلَّى بأكل جزء من الطلبية قبل توصيلها، وثالث شيء -هو الأهم- ألا يندهش أبدًا ممَّا يراه خلفَ الأبواب المغلقة، هو يرى العجائب في وظيفته تلك، فالبشر لم يكفّوا عن إثارة دهشته أبدًا، ذات مرة فتحت له الباب مراهقة أنفها يسيل دمًا ودموعها تكاد تغطى وجهَها، بينما والدها يصيح ويزعق بالداخل.. ورغم كل هذا ابتسمت له الفتاة بلطفٍ وهي تنقُده المالَ، رغم كل دموعها والإهانة التي تجلس فوق كتفيها، ظل يفكر في تلك الفتاة طِيلة اليوم، وفي مرة أخرى كان العميل رجلًا مُسنًّا يجلس فوق مِقْعدٍ متحرِّك وتبدو على قسَمات وجْهه كل علامات الوحدة، وظل العجوز يتحدث مع يوسف، بل إنه طلب منه الدخول والجلوس معه قليلًا؛ لأن العالم كله قد نَسِى أمره، وبلُطف ممزوج بتوجُّس رفض يوسف تلبية الدعوة.. لقد تعاطف مع وَحْدة العجوز لكنه تعلَّم الحذَر والحَيْطة في مهنته تلك..

رغم أن الحذر والحيطة لم يُصاحبا يوسف تلك الليلة..

ظل يوسفُ واقفًا بانتظار أحدٍ كي يفتح البابَ.. ثم تنهَّد ومدَّ يده ليرنَّ الجرس مرةً ثانية..

ذات مرة ظل يرن الجرس لعشرين دقيقة قبل أن يجرِّب الطَّرق فقط ليفتح له العميل معتذرًا بسماجة أن الجرس لا يعمل، الخبرةُ علَّمته أن يطرُقَ الباب بعد محاولة رن الجرس مرتين.. لكن ليس في حالتنا تلك؛ لأنه قد سمع صوت الجرس يدوِّي بالداخل..

هنا رأى يوسف قطًّا أسودَ يقف على حافَة النافذة، قطًّا متأهبًا ذا

ذيل منتصب يحدِّق بيوسف، ولوهلة أجفل الأخير شاعرًا أن عيون القط تهيب به أن يرحل وتُحذره من شيء ما.. نفَض يوسف رأسه ورن الجرس مرة ثانية..

وقد كانت تلك هي اللحظة التي سمِع فيها يوسف صرخةً خافتة من الداخل، صرخة خافتة استمرت لثوانٍ، هذا النوع من الصرخات الذي يخيل لك أنك لم تسمعه حقًّا بعد أن ينتهي، وتعيز بالأمر للأوهام؛ لأن صرخة كتلك لو كانت حقيقية فهي مُنذرة بكارثة..

قطَّب يوسفُ جبينه، وقرَّر أن يثِقَ بحدسه كعادته، بعد أن انتبه أخيرًا للأجواء من حوله، هناك شيء خطأ هنا.. لا يعلم ماهيته، ولا يُريد أن يعرِفَ.. سيَرْحل..

يتراجع عامل التوصيل للخلف وهو يشعر بدقات قلبه تتزايد..

القط يتابعه برأسه وعينيه تقولان: أخيرًا قرَّرت أن تفعل الشيءَ الصحيح.. ارْحَلْ عن هُنا..

يجد يوسف نفسه يتراجع للخلف بخوفٍ وعينيه ترتكزان على الباب، يتمنى ألا يستجيب أحد للجرس بعد أن كان يقف بتململٍ متعجلًا أيًّا كان مَن بالداخل أن يظهر..

- أنت خائف دون داعٍ، لا تقلق..

كذا تَمتَم يوسفُ لنفسه، سيصل لدراجته البخارية، سيرحل عن هذا البيت المشئوم، سيكون كل شيء على ما يرا.. .

في تلك اللحظة شعر يوسف بمَلمسٍ جلْديٍّ يلتفُّ حول الجزء

العاري من ساقة، هذا الجزء الضئيل بين سرواله وبين الجوْرَب؛ شيء لزِج وناعم يلتفُّ حول ساقه، ببطءٍ أطْرَق يوسف برأسه للأسف، ورأى جسد الثعبان الذي يزحف حول قدمه دافنًا رأسه في طرف حذائه، صرخ يوسف وقفز للخلف ليسقط وسط الأرض الطينية والعُشب الأخضر وهو يرقُص بساقة برعبٍ شديدٍ، ظل يصرخ وينتفِضُ، وهو لا يكاد يجرؤ على النظر تُجاه ساقه مرة أخرى، وتذكَّر تلك الحكاية القديمة عن الجندي بالخندق الذي مرَّ ثعبانٌ فوق ساقه فهوى عليها بالفأس ليقطعها، لم يكن هناك وقت للفَتَى لأي تساؤلات فلسفية عن سبب رُعب الإنسان الدفين من الثعابين، كان يعلم أن قلبه سيتوقَّف عن العمل في أي دقيقة لو لم يَهرُب من هذا المكان المشئوم، في نفس اللحظة مرت سحلية فوق عنقة وهو ساقط أرضًا وسط العُشب، مرت بسرعة وشعر بها فوق فمه، قفَز الفتى وهو يرقص كالملسوع، ويَنفُض نفسه، فقط لتمر يده وسط شعره وترتطم أصابعه بجرادة صغيرة استقرت وسط شعره، صاح يوسف وهو يلتفت للخلف، لم يكن قد كفَّ عن هزِّ ساقه للتخلُّص من الثعبان، الْتَوَت قدمه فسقط أرضًا مرة أخرى بألمٍ وارتطم جبينه بحجَرٍ يستقر منتظرًا إياه وسط أرض الحديقة، انساب خط رفيع من الدماء على وجهه.. وأمام عينيه المرتاعتين ظهر حَشْد من الفِئران يَعدو صوْبَه؛ فئران متوسطة الحجم طويلة الذَّيل، عَدَت من حوله بسرعة وارتطم بعضها بيديه.. هنا سمِع فَحِيح الثعبان من خلفه..

يقف يوسف، يترنَّح، يقفز على قدم واحدة محاولًا العَدْو.. عيناه ترتكزان على درَّاجته البخارية..

سأصل إليكِ، وسنَرحل عن هُنا.. سأصلُ إليكِ.. لا أعلم أي شؤمٍ في هذا البيت قادر على جَلب كل تلك الكائنات الليلية، لكني لا أريد أن أعرف السبب، سأصل إليكِ، ها أنا ذا أقترب..

اتسعت حدقتا يوسفَ برعبٍ عندما انفتح باب البيت فجأه.. سمعه ينفتح بغتة فتوقف يوسف لثوانٍ، لا تنظر للخلف، لا تنظر للخلف، لا تنظر للخلف..

يلتفت يوسف ببطء وألمٍ وينظر خلفه..

في نفس اللحظة التي رن هاتفه واعتلى اسم رقية -التي لم تُطق الانتظار- الشاشةَ..

لكن يوسف لم ينظر لهاتفه..

ما رآه كان كفيلًا بإتلاف عقله وإصابته بالكوابيس طِيلة حياته، هذا لو كانت هناك حياة له..

يعدو يوسف للخلف، يتعثر، يسقط أرضًا..

يفتح فمه..

يصرخ..

هاتفه يرن..

يرفع يديه للأمام في محاولة بائسة لحماية نفسه..

وتتناثر دماؤه فوق عُلبة الحلويات الساقطة بجوار الدرَّاجة..

وعلى انعكاس عيني القط انتصب جسد يوسف لأعلى وفرَد

ذراعيه لثوانٍ معدودةٍ قبل أن تنبثق دماؤه في الهواء أمام القمر المتوسط لقلب السماء..

أحنى القِطُّ رأسه لأسفل متابعًا ما يحدُث لجسد يوسف الذي ظل ينتفِضُ أرضًا، ودماؤه تنساب بنعومة مختلطة بعشب الحديقة الخضراء، انثنت أُذنا القط للخلف مع صوت تمزيق الجسد، يوسف شاخص البصر الآن.. صدره مفتوح تمامًا.. هاتفه يواصل الرن..

ارتمى قلب يوسف على الأرض الطينية بجوار هاتفه الذي لا يزال يرن بشاشة مضيئة يعتليها اسم رقية..

أطلق القط مواءً خافتًا، هو في مأمنٍ من تلك الزواحف وسْط عُشب الحديقة، غريزته تؤكِّد له هذا، لكنه يُقرر الابتعاد على أية حال، هناك شيء أخير يجب أن نعرفه بشأن القِطّ تلك المرة فقد رأى كلَّ شيء.. رأى حقيقة ما دار داخل تلك الفيلّا في ليلة رأس السنة..

لفَّ القِط رأسه وعاود النظر داخل الفيلّا..

كان هناك الكثير من الزجاج المُهشَّم في كل صَوْبٍ، وجوار المنضدة المقلوبة تأوّه شخص ما وهو يزحف على الأرض.. تابع القِط بعينين كسولتين هذا الشخص الذي يزحَفُ على الأرض بصعوبةٍ.. رفع الأخير رأسه ونظَر للقط قائلًا بصعوبة وسُخرية مريرة: قُل لهم إني قد نجوْتُ.. قُل لهم إن مازن لا يزال حيًا..

ثم سقط رأس مازن بعدما كفَّ جسده عن المقاومة، هناك جُرح غائر يُلقي بالدماء من أعلى جبينه بتدفُّق وغزارة كاعترافات قلب طفل، وعلى يمين جسد مازن استلقى جسد زوجة أبيه، كانت

ترتدي فستانَ سهرةٍ أنيقًا جذابًا، وربما لم يكن ليفقد جاذبيته لو لم تكُن صاحبته غارقة في الوحْلِ، الفستان كله ملطّخ به كأنها قرَّرت السباحة في مُستنقع، جوارها استلقى جسدُ والد مازن، وهناك إبرة طويلة مُستقرة داخل عينِه، وأنفه مقطومٌ بالكامل، وجوار جسدِه ارْتَمت الإبرة ببراءة كأنها تقول: أنا مجرد أداة، وسيط، صدقوني لم أفعل شيئًا..

وأعلى جسد مازن استقرَّت صورة داخل بروازٍ أنيق للعائلة وهم ينظرون للكاميرا مبتسمين، قفز القط من النافذة المواربة واستقرت قدماه الصغيرتان داخل غرفة المعيشة، والتي أصبح واقعها منافٍ لاسمها الآن، اقترب القِطُّ من مازن، تشَمَّمه قليلًا وهو يهز ذيله.. ثم رفع رأسه ونظر بتأملٍ للزوجين المُتشابكين، قبل أن يجلس القط جوار كَتِف مازن، يجلس بهدوء ولسانُ حاله يقول: لقد رأيت كلَّ ما حدث، كل شيء..

***

أنوار ساطعة.. ضجيجٌ.. صوت حركة المَحفَّة.. هل هذا صوت سرينة الإسعاف؟.. طيفُ أحدٍ بزيٍّ التمريض يدفع بالمحفَّة.. جسد مازن يهتزُّ وسط كل هذا.. قبل أن يغمض عينيه ويواصل سُباته العميق..

***

حاول مازن فتح عينيه للمرة الرابعة لكنه فَشِل في ذلك، كان هناك صداع مراوغ ينتاب رأسه كلَّما حاول فتح عينيه، كأنه - الصداع -

يأتيه مُتبخترًا بابتسامة ليقول له وهو يُخرِج لسانه: أرِني مهارتك يا صاح، لن تستطيع فتح عينيك أبدًا..

لم يكن من الصعب على مازن استيعاب ما حدث، الصعوبةُ كانت في تَقبُّله، لقد قرأ عن هذا المشهد من قبل، ورآه في التلفاز كذلك عدَّة مراتٍ، الشخصيةُ الرئيسية تستيقظ في مستشفًى وهي فاقدة - ليس بشكل كلي - للذاكرة، نعم، " ليس بشكلٍ كلي ".. لتلك العبارة مذاق غريب في فمه، مذاق مرّ ومالح كالدواء الذي كانت تعطيه أمه إياه وهو طفل، لكنه يعلم أنه لم يفقد ذاكرته كليًا، هو يتذكر اسمه، وحقيقة أنه في الرابعة والعشرين من العُمُر، هناك لمحات عن حياته مع أسرته، رنا.. أخته وصديقته المقربة، نصفه الآخر، الوحيدة التي تفهمه، يا إلهي هل هي بخير؟.. قطَّب جبينه وهو يُحاول أن يتذكر دون فائدة، ولأسباب كتلك هو يدرك أنه قد فقَد بعضًا من ذاكرته، في الأغلب هو لا يستطيع تذكُّر ما حدث في تلك الليلة، الليلة الأخيرة كما أسماها بينه وبين نفسه، كانوا جميعًا هناك.. والده.. زوجة والده.. رنا وخطيبها المخبول.. وهو معهم، مازن، يلتفون جميعًا حول المائدة ويحتفلون بعيد ميلاد رنا، ثم حدث شيء ما وانطفئ النور.. ومع حلول الظلام المفاجئ انقطعت ذاكرة مازن، آخر شيء يتذكَّره هو البسمة على وجوهم جميعًا، الكل يصفِّق، رنا تضحك، والده يحتضنها، زوجته تنظر لمازن، خطيب رنا المختل يصفق بدوره، ما الذي حدث بعد هذا؟.. للمرة الخامسة حاول مازن فتح عينيه، دون فائدة.. هل أُصيب بالعمَى؟ انقبض صدره، وشَهِق وَعْيُه واضعًا يديه على فمه، وتراجع للخلف في رُعب وهو دامع العينين.. ظل وَعْيُهُ

يتراجع لركن مُظلم فهاب به مازن أن يتوقف، هو لا يريد أن يفقده الآن، هو بحاجة ليظل مستيقظًا، ليتذكّر.. قلبه يتلوّى في ألمٍ من فِكرة واحدة فحسب، هل أُصيبت رنا بمكروه؟..

ثم حدث شيء ما، تفصيلة صغيرة وبسيطة جعلت وعْيَ مازن يقفِزُ للأمام وهو يبحث كمُحقِّق نشِطٍ عن تفسيرٍ، كان وعيه يرتدي معطفًا الآن وقبعة قديمة ومعه عدسة مكبِّرة ويبحث في الأرجاء باحثًا عن سبب للقماش الذي يلف وجْهَ مازن، لقد تلقَّى تلك المعلومة بعدما حرَّك مازن وتحسَّس وجْهَه، ومع حركة يده انساب ألم حارق لذراع مازن، الذي أراد أن يصرخ في جنون، حسنًا حسنًا.. هو يُدرك أنه في مستشفًى، وفاقدًا لجزءٍ مِن ذاكرتهِ، لكن ما الذي أصاب جسده؟ لماذا القماش - والذي افترض أنه طبيٌّ - يُحيط بوجهه؟ وأين رؤيته؟ وما سبب الألم في ذراعه؟.. سمع مازن نبضات قلبه وهي تدقُّ كالطبول مُنذرة بحدوث كارثة، إنها طبول الحرب والغُزاة على وَشْك القدوم، والغزاه في حالة مازن هُم العمَى والاحتراق وكسور العظام.. كلّا يا إلهي الرحيم أرجوك، لا تدع هذا يحدث لي، سأكونُ شابًّا مطيعًا وجيدًا ولن أفعل شيئًا سيِّئًا.. أرجوك يا إلهي.. ثم ولثانيةٍ تخيل مازن حياته وهو أعمى ومحترق الوجه.. وصرخ تلك المرة.. لكن دون صوتٍ.. شعَر بفمه ينفتح لكن صوتًا لم يَخرج.. هل أصابه الخرَس كذلك؟.. شهِقَ وكاد أن يفقد أنفاسه، سيتوقف قلبه من الرُّعب، لماذا لا يوجد أحد معه في الغرفة؟ ممرضة أو طبيب يُهدِّئان من روعهِ؟ أين هؤلاء الحمقى؟ لنترك الرجل الأعمى والمحترق والأخرس في فراشه ليموت هلعًا بعد أن يفهم ما الذي

حدَث له، وكعادته.. كلما أصيب مازن بالذعر طمأن نفسه أن هناك دومًا حلًّا.. لقد تعلّم تلك الجملة من شخصية كابتن هادوك الخيالية في مجلات الأطفال التي كان يقرؤها وهو طفل، كابتن هادوك هو صديق المغامر تان تان، وكلما واجه هادوك معضلة كان يقول لنفسه: لا تقلق، تذكَّر أيها القرصان العجوز.. هناك دومًا حلٌّ.

تمتم مازن لنفسه: نعم هناك دومًا حلٌّ، لن أحيا كهذا، سأقتل نفسي..

كاد وعيُه أن يضع يديه على فمه مرة آخرى ليكتم صرخه ويتراجع مبهوتًا للرُّكن المُظلم لكن مازن زجره صائحًا داخل عقله: لا يوجد وقتٌ لهذا..

قاوم مازن شعور الخمول، والنُّعاس الذي ينتابه، هناك تنميله في ساقَيه، على الأقل هو يشعر بساقه ولم يُصبْ بالشلل، هل هو يحلُمُ؟ ربما هو كابوس؟ ليته كان هكذا، لكن مازن يعلم جيدًا أن ما يحدُث الآن حقيقيًّا..

"نعم سأقتل نفسي"

"ولكني لن أستطيع التخلّي عن رنا في تلك الحياة وَحْدها"

"أين أنتِ يا رنا؟"

"ما الذي حدث في ليلة عيد الميلاد؟"

تسابقت الأفكار داخل عقله، لقد انطفئ النورُ، وفقَد هو الذاكرة، ثم استيقظ ليجدَ نفسه أعمى ومحترق الوجه وأخرس وهناك ألم رهيب

في عظام ساعده الأيمن..

شعر بدمعة تنساب من عينه على وجنته أسفل القماش، أراد أن يَحُك مكانها ولأنه لم يستطع فعل هذا جعله محنقًا بشدة، هناك غضب وجنون محبوسان داخل عقله، يشعر بهم جيدًا، يدقون أبواب الغرف ويكادون يهشمونها طلبًا للخروج، بينما سلامة عقله تحاول جاهدة دفع الأبواب وحبسهم، ثم أدارت رأسها وصاحت بمازن: افعل شيئًا قبل أن يخرجوا..

"حسنًا حسنًا سأفعل"..

وللمرة السادسة بذل مازن كل قوته لفتح عينيه، وفَشِل فأطلق زفرة قوية لم يكن يعرف أنه يحبسُها، حسنًا، هو بحاجةٍ لبعض القوة، والقوة تأتي من الطاقة، كما قالت معلمته في المدرسة؛ معلمته ذات الخَصْر الرائع التي أيقظت خيالاتٍ بداخله لم يكن يعرف أنها موجودة وجعلته يفهم أنه يتحول من صبيٍّ لمراهقٍ، وكما قالت المعلمة الفاتنة: "القوة تأتي من الطاقة" وعليه استمداد بعض الطاقة الآن، ومصدر طاقته هو أخته، رنا.. عليه استعادة ذكرياتهما معًا..

هو مع رنا الآن، كلاهما يسيران خارج فناء مدرستهما المشتركة وهما في الثانوية، رنا ترتدي قميصًا أسودَ وتنورة قصيرة، تسير جواره بجسدها النحيف والضئيل بينما شعرها الأسود القصير جدًّا ينسدل على جبينها، كانت أمهما تقص شعر رنا كالصِّبية.. أخته التي ترتدي العوينات، وتعشق اللون الأسود، رنا المراهقة ذات الحسِّ القوطي، المختلفة، والتي لا يفهمها أحد، رنا التي تكبره بثلاثة أعوام،

وكانت هي التي مدّت يدها إليه لتساعده على الوقوف بعدما ضربه المتنمّرون في فناء المدرسة، كانوا يلتفّون حوله في دائرة ويشيرون إليه ضاحكين، ثم ظهرت هي كالمَلاك المُنقذِ، وصرَخت فيهم جميعًا ليفرُّوا هاربين، حقيقة أنهم عادوا بعد ذلك لكن هذا لا يَهُم، لقد بدأت علاقته الحقيقية مع أخته في تلك اللحظة، كل ما يتذكره قبل ذلك أنهم كانوا إخوة عاديين يتشاجرون من أجل البطاطا المقلية وقت تناول الغداء، وطبعًا كانت هناك معارك عدة للحصول على " ريموت " التلفاز، لكن بعد تلك اللحظة أصبحت كل لحظاتهما معًا ذكريات قوية داخل عقله؛ لأن تلك هي اللحظة التي أصبحت فيها أخته صديقته، يتذكر وهما عائدان معًا من المدرسة للمنزل سيرًا، كانت رنا هي من اقترح هذا إزاء نظرة الوجوم على وجهه، قالت له بطريقتها المشاكسة: لنفوت حافلة المدرسة ونعود سيرًا على الأقدام وربما أبتاع لك البوظة..

- حقًّا؟

قالها بحماسٍ وضحِك الاثنان، وسارَا كثيرًا في هذا اليوم، طبعًا لم يكن ليسيرا كل المسافة على أقدامهما ولكن إلى أن تنفَدَ طاقتهما فيستقلا سيارة أجرة أو حافلة مخالفين قواعد والدتهما التي ستريهما الويل جراء فعلتهما تلك، وطالما سيتذوقا الويل في كل الأحوال فليستمتعا بوقتهما إذن، تلك كانت فلسفة رنا التي قالتها لمازن، ورغم صِغر سنه لكنه أدرك أن أخته قد أنفقت كل مصروفها لإسعاده، ها هما ذا يسيران معًا في وسط البلد ما جرعوا الكثير من عصير القصب، وربت مازن على معِدته قبل أن يتجشأ قائلًا:

سأنفجر..

- مقزز.

قالتها رنا ضاحكة، وعندما وصلا للمنزل كانت أمهما -التي لم تتوفَّى بعدُ- في غاية القلق وظلّت تصرخ وتنهر في رنا بينما مازن في غرفته يستمع ويرتجف في خوفٍ، ومعِدتُه تنقبض إثر شعور آخر ينساب إليه وهو الاستمتاع، لقد قضى لحظات سعيدة للغاية مع أخته..

وبينما هو يتظاهر بالنوم في غرفته كالعادة، دخلت رنا ولثَمَت جبينه قبل أن تهمس: سأعتني بك دومًا..

بعد ذلك بأسبوع توفيت أمّه، وبعدها بستة أشهر تزوج والده.. لكن هو لا يريد التفكير في هذا الآن، هو بحاجة للقوة التي تأتي من الطاقة كما قالت المعلمة ذات الخصر الجذّاب؛ ولذا أجبرَ مازن نفسَه على إيقاف مكابح قطار الذكريات، رنا بداخله الآن، بكل قوتها وطاقتها الإيجابية، ولسوف يستخدم تلك القوة لفتح عينيه.. هيا.. من أجل رنا..

وللمرة السابعة حاول مازن فتح عينيه..

مستخدمًا القوةَ الناجمة عن ذكرياته..

مفكرًا في رنا..

ونجح تلك المرة..

فتح عينيه..

وببطء كي لا يُغشِّيهما ضوء الغرفة الأبيض، بدأ يتبين محيطاته..

هو داخل غرفة مستشفى على ما يبدو، أو كما توقَّع، يرقُد فوق فراشٍ، غرفة خاصة، لا يوجد مرضَى من حوله، الغرفة متوسطة الحجم، وفي المقابل له تقع نافذة تطل على حديقة جميلة للغاية، ذكَّرته تلك الحديقة بشيء ما، جملة ما، لكنه لم يستطع استرجاعها الآن، واصل مازن استكشاف محل إقامته الجديد، هناك لوحة لباخرة تعتلي أمواج بحر وسط عاصفة وضباب بينما الشمس تغرب ويصطبغ لون السماء بالأحمر، كان يعتقد أن الضباب يأتي في الليل فحسب! تلك وجهة نظر الرسام بعد كل شيء، في الركن الأيسر قبَع تلفاز صغير منطفئ، جواره دورة مياه، بابها مفتوح على مصراعية، غرفة مستشفى خاصة بدورة مياه وحديقة خضراء، يتذكر أنه قرأ جملة ما لها علاقه بالغرفة، ليته يستطيع التذكُّر، هنا جذَبه وغْيُه من طرف كتِفِه محاولًا تنبيهه لشيء ما لكن مازن كان منشغلًا بالاغتباط من كونه لا يزال يستطيع الرؤية، ربما هذا يعني أن وجْهَه لم يحترق، ولكن لِمَ القماش الطبي و.. ؟

جذبه وغْيُه بعنفٍ تلك المرة فصاح مازن داخل عقله: ما الذي تريده؟

أشار له وغْيُه بيدٍ مرتجفة لأقصى اليسار، حاول مازن النظر لكن عنقَه آلمه ولم يستطع الالتفات، لم يفكر في سبب هذا، وأدار عينيه لليسار، ليجد رجلًا يجلس؛ وجه متجهم، أشيب الفودين، ورغم كونه جالسًا لكن مازن ميز أنه فارع القامة، ويرتدي معطفًا أبيضَ..

الطبيب كان يجلس وينظر إليه طِيلة الوقت بينما هو يجاهد لفتح عينيه..

تخيل مازن حاله وهو ينظر للطبيب بعينيه السوداوين بينما القماش الطبي يغطي وجهه، لا بد أن شكله مرعب..

هنا تذكّر مازن الجملة التي ذكّرته بها الغُرفة المُطلة على الحديقة الخضراء ودورة المياه الخاصة..

جملة قرأها من قبل في العدد الثالث من مجلة تان تان، عندما قام الكابتن هادوك بزيارة صديق له في مصحة نفسية، وغرفة الأخير كانت تطل على حديقة خضراء جميلة لتحدَّ من نوبات غضَبه، وبها دورة مياه خاصة..

أدار قطار الذكريات عجلاته داخل عقل مازن، وواصل الانطلاق مرورًا بمشهد والدته وهي تقيء دمًا أمامه دون مقدماتٍ قبل أن تسقط صريعة بعد انتفاضة وصرخة هائلة، حينئذ عرف سبب الوشاح التي كانت تلفّه حول رأسها، والذي كثيرًا ما تساءل عنه دون الحصول على إجابة، لقد تمكّن منها السرطان اللعين أخيرًا، وهو الذي كان عائدًا من المدرسة ليُخبرها أنه سيشارك في عرض مسرحيٍّ، دخل بحماسة ليجدها تنظر إليه بعينين متسعتين ووجهٍ شاحبٍ، كانت تلك نظرتها المُعتادة لتأنيبه عندما يقوم بشيء خاطئ، ففتح فمه ليقول لها إنه سيلعب دور قائد الجيوش في مسرحية أحمس بالمدرسة، لكنها مالت نحوه قبل أن ينطِقَ حرفًا، ولثوانٍ اعتقد أنها ستضربه، لكنها فتحت فمها وأصدرت حشرجة طويلة قبل أن تُفرغ

جوفَها على وجْهِه، نهرًا من الدماء غطّى وزيّن ملامحه قبل أن تسقط أمه أرضًا وتنتفِض، ظل مازن مع جثتها لثلاث ساعات، يجلس جوارها ويمص أُصبعه حتى وصل أباه، رنا كانت نائمة في غرفتها ولم يجرؤ على إيقاظها..

ظل يصرخ ليلًا والكوابيس تنهشُ عقلَه، يبكي وينتفض في فراشه لأشهرٍ، وهو يرى أمه تقترب منه، الدماء تَقْطرُ من فمها وهي تمدّ يديها باتجاهه، بعينين لا حياه فيهما، فيصرخ وقلبه يكاد يتوقف..

كان هذا عندما زاره الجاثوم للمرة الأولى..

أو كما حاولت رنا أن تفسّر له " أنت قد أُصبت بمرض شلل النوم، لا يوجد شيء يُدعى الجاثوم "..

ولأن رنا دومًا مُحقة، فهو إذن قد بدأ يُصاب بشلل النوم بعد صدمة وفاة والدته الكابوسية، هو مُتصلّب الجسد تمامًا في فراشه ولا يستطيع تحريك جسده أو النطق بالحرف وعليه الاستغاثة، لا يستطع فعل شيء سوى تحريك عينيه، بينما هذا الكائن المتمثّل في صورة أمه يقترب منه والدماء تفور من فمها، يشعر بها تجثم فوق صدره وسط ظلام الغرفة، وهو لا يستطيع الحراك، قلبه سيتوقف.. ثم تظهر رنا، الملاك المنقذ، بنفس الطريقة التي ظهرت بها وسط فناء المدرسة لتنقذه من المتنمّرين، من الأوغاد، والأشرار، تحتضنه أخته وتلثمُ جبينه فيستعيد قُدرته على الحركة ويحتضنها باكية وهو يدفن رأسه في صدرها.. وهي تهمس: أنا معك دومًا، لن أترك شيئًا يحدُث لك..

ويظل الاثنان متعانقين طِيلة الليلة.. عدة ليال كان يستيقظ بها من نوم عميق وهو يصرخ في رُعبٍ لسبب لا يتذكره..

فتحيط رنا عنقه بذراعه..

أصبحت هي كل شيء بالنسبه إليه..

والآن هو لا يتذكر ما الذي حدث لها..

هو في مصحة نفسية.. بوجه مغطًى من القماش.. مُصاب بحالة كشلل النوم رغم أنه حرك يده من قبل ليتحسس القماش على وجهه.. ولا يستطيع الكلام.. وجواره يجلس هذا الطبيب، والذي خمن مازن أنه طبيب نفسي..

ما الذي حدث لرنا؟..

ما الذي حدث عندما انطفئ النور؟..

سلامة عقله تحاول جاهدة الدفع بأيديها وهي تئن مستندة بجسدها لتُحكم غلق الأبواب التي تحبس الغضب والجنون، طَرْقهم يتزايد والأبواب تكاد تتهشم..

هنا ومض شيء آخر داخل عقل مازن عندما رأى صورة بجريدة قديمة جواره؛ صورة أسفل خبرٍ ما، "الرجل ذو القناع الأبيض"، مازن يتذكر هذا الخبر جيدًا رغم قرابة مرور عشرة أعوام على تلك الحادثة التي سمع عنها الجميع، من الذي لا يعرف حكاية الرجل ذي القناع الأبيض الشهيرة؟!! .. جملة "الرجل ذو القناع الأبيض" جعلته يتذكر حادثة بعيدة المدى..

يتذكر وهو جالس في غرفة مكتب والده، الأخير بالخارج مع زوجته الجديدة.. وكعادتهما يتسلل كلٌّ من مازن ورنا للغرفة لمطالعة الحاسوب الآلي الخاص بوالدهما صاحب القوانين الصارمة بمنع تسلل " التكنولوجيا " لبيتهم..

ويطالع الاثنان الأخبار من على محرِّك البحث، لم يتسنَّ لهما الوقت الكافي أبدًا لإدمان مواقع التواصل الاجتماعي وإنشاء حسابات عليها بسبب قوانين والدهما الصارمة، أضف لهذا كونهما لا يمتلكان هواتف خلوية ذكية؛ ولذا محرك البحث " غوغل " كان هو مصدر المُتعة الإلكترونية بالنسبة إليهما، وتلك المرة بينما هما يُصارعان الوقت قبل عودة والدهما ويطالعان مقاطع الفيديو وفضائح المشاهير وقَع أمامهما الخبر الآتي:

" الرجل ذو القناع الأبيض في المشرحة "

كان العنوان جذّابًا للغاية وتبادل الاثنان نظرة قبل أن يحرك مازن الفأرة ويضغط على رابط العنوان..

هناك مقالٌ صحفي صغير منشور على موقع إلكتروني وأسفله مقطع فيديو وعدة صور..

طالعت عيونهما الكلام المكتوب سريعًا استعدادًا للانتقال للفيديو:

" الطبيب المصري هيكل داغر، والذي اشتهر بين العامة باسم "الرجل ذو القناع الأبيض"، قد ذهب اليوم الموافق العشرين من يناير لعام ٢٠١٢ للتعرف على جثة ابنته كاميليا، الفقيدة الشابة، ووالدتها مدام رويداء بينما ابنه لا يزال في حالة حرجة بالعناية..

كرر مازن أسماءهم بصعوبة فغمغمت رنا وهي مُقطِّبة الجبين تنظر للشاشة التي انعكس ضوءها على وجهها: أسماؤهم غريبة حقًّا، داغر ورويداء.. حتى كاميليا ليس بهذا الانتشار..

- هشش اصْمُتي ولنواصل القراءة.

ضربته رنا في مرفقه ممازحة ثم واصلت القراءة بصوت عالٍ فهمس مازن: اقرئي في صمتٍ..

- حسنًا أيها المتذاكي.. لم تكن لتجيد القراءة بدوني.

- هذا كلام فارغ..

- سأُهشِّم رأسك.

- سيكون هذا حدث يستحق التذكر عندما تهشم فتاة نحيفة مثلك رأسي.

أخرجت له رنا لسانها ولم تُعلق، وواصل كلاهما القراءة.

" ومن الجدير بالذِّكر أن الرأي العام كله منتفض للفاجعة التي أصابت الطبيب المصري العبقري والحائز على جائزة نوبل وعائلته بعد عودة الأخير من حياة طويلة في الأردن، ويقيم عيادته الخاصة في القاهرة، استعدادًا للمشاركة في مستشفى خاص يشاركة فيه طبيب زميل " أ. ج . م " ورجل أعمال " م . ز ".. تلك الجريمة المروِّعة التي أُزهقت بها أرواح العائلة المنكوبة عدا رب الأسرة والذي نتمنى له الصبر والسلوان"

- ولكن لماذا يلقبونه بالرجل ذي القناع الأبيض؟

- سنعرف.

قالها مازن وهو يضغط بالفأرة على علامة تشغيل الفيديو، ومدَّت رنا يدها لتعقدها بيده، هي ليست الأخت الكبرى الآن، هي الأنثى الخائفة وهو رجل البيت، كذا فكر هو بفخرٍ وغِبطة سرعان ما تلاشى عندما ظهر في الفيديو رجل يسير بقناع أبيض من القماش الطبي في المشرحة وسط الصحفيين الملتفين حوله بكثرة وغمغمت رنا، بينما صدرها يعلو ويهبط انفعالًا: يبدون كالذباب المتجمِّع حول العسل.

انتهى الفيديو، وتبادل الاثنان نظرة أخرى، هناك سبيل واحد لمعرفة ما حدَث حقًّا للطبيب وأسرته، وهو البحث في مواقع أخرى لها علاقة بالشبكة الخفية، رنا هي التي عرّفت مازن على تلك المواقع، وكعادتها فهمت رنا ما يريد مازن قولَه دون أن يتحدث الأخير فأومأت برأسها قائلة: حسنًا، ولكن بسرعة قبل عودة أبي..

أدخل مازن رابط الموقع الذي يحفظه عن ظهر قلبٍ ثم كتب: "الرجل ذو القناع الأبيض"..

هنا صرخت رنا وهي ترى صورًا ليست مشوّشة كما كانت في موقع الأخبار؛ الصور لجثة بدون أنف، وقام أحدهم بقطع شفتيها كذلك، وأذنيها، لك أن تتخيل وجْهًا بشريًا بدون أنفٍ وأذنين وشفتين، وشعر كذلك، صرخت رنا مرة أخرى فانتفض مازن قبل أن يهتف: كُفِّي عن فِعل ذلك ستصيبني بنوبة قلبية..

كان يقلِّد والده بقول العبارة الأخيرة، لكن رنا لم تهتمَّ.. عيناها تطالعان الصورة الأخرى، صورة الابنة.. لقد قطع أحدهم يدها وحَشَاهَا داخل فمِها لتبتلِعَها وتختنق.. لكن لم يكن هذا ما تنظُر إليه رنا، بل إلى تعليقات الأعضاء الساخرة والممازحة غير اللائقة. ودمعت عيناها قائلة: يا له من عالم مخيف.

احتضنها مازن وهي تردف كأنها تبصق: كلَّا، إنه عالم قَذر.

كان هذا دور مازن ليهمس لها: لا تقلقي أنا معك..

كان يُقلدها هي تلك المرة ولم تُمانع رنا هذا..

عاد الاثنان لمُطالعة الشاشة، وهما يسمعان خطوات أبيهما وصوت زوجته الجديدة على السُّلم، وقرءوا في عجالة ما هو مكتوب قبل أن يفرَّا من غرفة المكتب ويغلقا الحاسوب..

أما ما كان مكتوبًا فهو" وقد قام المعتدون بحرق وجْهِ رب الأسرة، الطبيب هيكل داغر"..

شعر مازن بانتفاضة تسري في جسده، وهو راقد فوق فراشه في غرفة المستشفى، أو المصحة، هو لا يعرف أين هو..

هو قد أصبح مثل الطبيب هيكل.. "الرجل ذو القناع الأبيض".. ذو الوجه المغطَّى بالقماش الطبي..

هل ما حدث لعائلته شيء مثل ما حدث لعائلة الطبيب هيكل؟

هل قطعوا أنف رنا وحشوا يدَها داخل فمها؟ هم لم يقبضوا أبدًا على قَتَلة عائلة الطبيب، فقط قالوا إنهم لصوص ارتكبوا جريمتهم

تحت تأثير المخدِّرات.. هل فعلوا هذا برنا؟

كان هذا التساؤل هو القشة التي قسمت ظهر البعير، القشة التي جعلت البعير يثور في جنون ويَقتُل المزارعين ويبول في كل مكان، لقد تحطَّمت الأبواب داخل عقل مازن، وخرج الغضب والجنون بعدما حطَّموا الأغلال التي تُقيدهم وفتكوا بسلامة عقله..

وصرخ مازن، بصوتٍ تلك المرة، وتحرك جسده، لقد أفاق من شلل النوم، ودوَّت صرخته في أرجاء الغرفة بجنون، وكان كل ما قاله هو شيء واحد فحسب.. اسم أخته..

***

في مقعده جلس الرجل ذو المِعطف الطبي، وهو ينظر لمازن، منتظرًا أن يفيق الأخير، ولم يلمح حركة عين مازن عندما نظر إليه؛ لأنه كان شاردًا في تلك اللحظة، كان يفكر أنه يريد أن يبتاع شطيرة " لحم بقري " وبطاطا مقلية من مطعم " ماكدونالدز " ويحارب تلك الفكرة في الوقت ذاته؛ لأنه يحاول جاهدًا في الفترة الأخيرة أن يفقد الوزن، حاول أن يعدو ذات مرة فجلس بعد خمس دقائق على مِقعد في " الاستاد " وهو يلهث ويكاد يقيء، التمارين الرياضية لم تناسب مزاجه المتقلِّب كذلك، لقد اتخذ قراره بفقد الوزن لسببين؛ أولهما: أنه احتفل بعيد ميلاده الأربعين وَحْده في جلسة كئيبةٍ للغاية بمنزله، وشعر أن فقدان الوزن سيجعله يشعر أنه أصغر سنًّا، والسبب الثاني: هو أنه شاهد فيلمًا لبروس ويليز، ورأى أن الأخير رغم كونه متقدمًا في العمر لا يزال رياضي الجسد والفاتنات تهيم

به في الأحلام، حتى بعد فقدانه لشعر رأسه، وعليه قرَّر الرجل ممارسة الرياضة وفقد الوزن، ثم قرر أن يأخذ الأمور برويةٍ، ويبدأ بتقليل طعام الوجبات السريعة اللعينة، والتخلِّي عن عشيقته، البيتزا، هذا الاختراع الإيطالي الجميل، وأن يكُف عن مشاهدة أفلام ويليز وستالون، والانتقال لأفلام فريد شوقي وجون واين، هؤلاء كانوا فخورين بأجسادهم أيًّا كانت حالتها، ليته يمتلك ثقتهم في أنفسهم، كان يُشخِّص حالته جيدًا، متلازمة التأثر بالآخرين، المُقلد، هو يتأثر بمن حوله ويجد نفسه يحاول تقليدهم، لم تكن متلازمته الوحيدة، لكنها الوحيدة التي تؤرق باله في تلك اللحظة، هل يطلب من " ماكدونالدز " أم لا؟.. كان مستغرقًا في أفكاره تلك وهو متجهم الوجه؛ ولذا لم ينتبه لمازن عندما أدار عينيه بعدما فتحهما ونظر إليه.. لكنه أجفل وكاد أن يسقط من فوق مقعده عندما رفع مازن ذراعيه لأعلى وصرخ باسم أخته.. قفز الرجل ذو المِعْطف الأبيض وعدا صَوْبَ مازن وهو يكرِّر: رويدك رويدك.. اهْدَأ..

ثم جذَب مِقعده وجلس جوار مازن بعد أن نسِي كل شيء عن " ماكدونالدز " وقال الرجل لمازن: مرحبًا، لقد أفقتَ أخيرًا، لا تخف ولا تقلق، أنا معك..

نظر إليه مازن وهو يقول تلك العبارة وهمس بصوت ضعيف: رنا.

أردف الرجل: اسمي مصطفى خير الله، أنا طبيبٌ نفسي، لكن لا تدعوني بـ " دكتور مصطفى من فضلك"..

قالها الرجل وضحِك بتلعثُمٍ وهو يُضيف: حرف الدال قبل الاسم

وكل تلك الألقاب من علامات متلازمة الأنا والنرجسية.. فقط ادعونِي بمصطفى..

نظر مازن بحَيْرة للرجل، كان يبدو متلعثمًا بشكلٍ مُضحك، وفكَّر مازن أن طبيبه رجل وحيد للغاية وغير اجتماعي وربما على قَدْر من الخَبَال كذلك، أردف مصطفى: أنا هنا لمساعدتك.

كاد مازن أن يقول: " جئت بك يا عبد المُعين لِتُعين " لكنَّه آثَرَ الصمت ومصطفى يواصل: احكِ لي كل ما حدَث.

- أين رنا؟

- مَن؟

- أختي..

صمت مصطفى وأشاح بوجْهِه لينظر للسقف، وتلك عادة سيُكرِّرها مِرارًا في حديثه مع مازن وسيفسِّرها الأخير أنها لمُداراة انفعالاته.. صاح مازن بجنون: هل رنا بخير؟

- نعم لا تقلق، لقد نجت.

- نجت مِن ماذا؟

- أستاذ مازن لقد توفِّي والدك وزوجته..

في عدَّة ثوانٍ مرَّ بخاطر مازن لمحات لوجه والده، على مائدة الطعام، وهو يُعطيه مالًا، وهو يتحدث معه بفتور وآلية، وهو يتحدث معه بودِّيه، علاقته بوالده لم تتخطَّ أبدًا حدودَ تعاملهم المباشر، لم

يفكِّر بوالده أبدًا أثناء غيابه، والده غريب عنه، وزوجته، تلك الشابة شديدة الجمال التي تصغُر أباه بثمانية أعوام وظهرت في حياته لتحلَّ محل والدته، بشعرها الأشقر المصبوغ والطويل، وفساتينها الطويلة والكاشفة عن ذراعيها، بنظراتها الغامضه، وصوتها مع والدهم في غرفة نومهم..

تلك غريبة تنام مكان والدتك الآن..

تلك غريبة تحتضن والدتك.. .

هي غريبة عنك، فلا شأن لك بها ولا شأن لها بك..

اسمها شيرين..

وعندما عاد مازن من المدرسة، بعد أشهر من اليوم الذي لاحظ فيه خصر معلمته الجذاب، وهو يشعر بالحرارة في جسده، شعر بتلك الحرارة تتزايد وهو يرى شيرين زوجة أبيه تميل لترفع طبقًا من على مائدة الطعام.. نظر إليها ببلاهة، مراهق مفتون بكل أسرار الأنثى..

لوهلةٍ شعَر أن رنا قد لاحظت نظرته تلك.. لكنه لم يَجْسُر على سؤالها أبدًا..

والآن مات والده وزوجته.. وماذا عن خطيب رنا المخبول؟ لشدة ما كان يكرهه، مُختل حقيقي، يميل للعنف، يسبُّ دومًا، ونرجسي للغاية، يعتقد دومًا أنه على صواب، ويذّكر مازن بشدة بالمتنمِّرين في فناء المدرسة..

اسمه عادل.. هل مات هو الآخر؟ يتمنى مازن هذا..

نظر مازن للطبيب في صمت، ما كان اسمه؟ آه.. د. مصطفى.. لكنه لا يحب حرف الدال قبل اسمه..

واصل مازن أسئلته:

" لماذا تحيطون وجهي بالقماش؟ "

" ما الذي حدث لأبي وشيرين؟ "

" أين عادل؟ "

" أريد الحديث مع رنا الآن "..

ابتسم المدعو مصطفى وقال: لا تقلق.. سوف أجيب كل أسئلتك.. وسأجعلك تتحدث مع.. رنا.. لكن في البدء أريد منك أن تحكي لي بالظبط ما حدث في ليلة رأس السنة..

- أنا لا أتذكر.

ولكن الأفكار توالت داخل عقل مازن بعدما صاح بالعبارة الأخيرة، ليلة رأس السنة، مثلما حدَث مع الطبيب هيكل، يتذكر أنه قد قرأ أن الطبيب ذا الوجه المحترق، ذا القناع الأبيض، قد فقد عائلته في ليلة رأس السنة كذلك، أم أن هذا جزء من خيالات مازن؟ ربما يكون الرجل قد فقد عائلته في يوم آخر وعقل مازن قام بخلط الأوراق وإقناع الأخير أن التواريخ متطابقة، ربما، هو ليس متأكدًا من شيء في تلك الآونة، على أي حال هو موقن أنه قد أصبح ذو وجهٍ مغطًّى بالقماش الأبيض مثل الطبيب إياه، هل هم نفس المعتدين؟ اللصوص تحت تأثير المخدِّرات كما دعاهم الموقع الإخباري؟ ولكن كيف؟! ما

حدث لـ د.هيكل حدث منذ عشرة أعوام.. كيف تتكرر نفس الجريمة؟ نظر مازن لمصطفى وهمس بعينين دامعتين: أرجوك ساعدني، سأجن..

تردد مصطفى لوهلة ثُم مدَّ يده برفق وربت على كتف مازن، تلك الحركة جعلت مازن يثق به، لم يكن هناك ادعاء ولا تَصنُّع، لقد تردد الطبيب الكهل غير الاجتماعي قبل أن يربت على كتفه، هو حقًّا يريد مساعدته، وكرر مازن بجفنٍ ثقيلٍ: ساعدني..

- أعدك أني سوف أبذل قصارى جهدي، والآن قص لي ما حدث ليلة رأس السنة..

- أنا لا أتذكر.. آه يا إلهي ساعدني أنا لا أتذكر.. كنا نجلس.. أنا ورنا واللعين عادل خطيبها وشيرين وأبي.. مراد.. هذا كل ما أتذكره.. لقد تقاعد أبي مبكرًا من وظيفته وأصبح ثريًّا فجأه بعدما مارس الأعمال الحرة.. وتزوج مرة أخرى وهو في بداية الأربعينيات بعد وفاة والدتي بالسرطان.. رنا هي صديقي الوحيد..

كان مازن يُلقى بالكلام غير المترابط في كل صَوْب ومصطفى يحاول التقاط ما يتمكن منه بابتسامة هادئة تزايدت مع عبارة: " رنا هي صديقتي الوحيدة " التي ظهرت فجأة في نهاية الكلام، ثم قال مصطفى: رويدك يا صديقي، لا تنفعل، خذ نفسًا عميقًا..

- هل ستنوِّمني مغناطيسيًّا؟

سأله مازن بخوفٍ فضحك مصطفى قبل أن يقول: ربما نحتاج لهذا ولكن ليس الآن.. ولا تقلق لن أستطيع فعل شيء كهذا دون موافقتك

وإرادتك الحرة.. أنا أريد منك أن تأخذ نفسًا عميقًا.. وتحكي لي ببطء وبالترتيب كل ما تريد قوله، وستكون تلك هي طريقتنا الفعالة لمساعدتك على تذكر ما حدث ليلة رأس السنة..

بدا الخوف واضحًا في نظرات مازن فابتسم مصطفى مطمئنًا إياه.

- كونك ستتذكر ما حدث لا يعني بالضرورة استيعابك لفكرة أن مكروهًا ما قد أصاب رنا.

- ولا ينفيه كذلك.

لوهلة فكَّر مصطفى أن يطمئن "مازن"، لكنه كان مدركًا جيدًا لحقيقة أن الشاب الماثل أمامه شديد الذكاء ولسوف يفقد ثقته في فاعليه الحديث مع مصطفى لو شعر بمحاولة طمأنينة ساذجة من الأخير؛ لذا رد مصطفى بهدوء: حسنًا، لن ينفيه كذلك.. لكن تذكرك لما حدَث سيجيب عن أهم سؤال يجول بذهنك الآن، سيجعلنا نصل لرنا..

ارتكزت عينا مازن على وجه مصطفى من خلف الشاش الأبيض المحيط بوجه الأول، قبل أن يقول: "الرجل ذو القناع الأبيض": حسنًا، أي شيء من أجل رنا، ما الذي تريد مني حكيه؟

اقترب مصطفى بوجهه من مازن وقال بهدوء: كل شيء.

وبدأ مازن في الحَكْي، ولنقترب نحن من رأس د.مصطفى.. فهناك سر صغير علينا معرفته بشأنه..

الفصل الثاني

- أنت شخصية خيالية داخل عقل مصطفى، الطبيب النفسي الذي يُعالج المرضى مُصاب بتعدد الشخصيات، أنت لست حقيقية يا فتاة..

سمِعت عبير تلك الهمَسات تردد داخل أذنيها، وهي مغمضة العينين.. ظلام هادئ يحيط بها من كل صَوْب..

فتحت عبير عينيها ببطء وهي تسير مترنِّحة في غرفة مُغلقة ومظلمة، ثم فجأة انسَلَّ نورٌ أبيض للغرفة فتراجعت الفتاة للخلف بعد أن كادت تهوي من فوق الحافة ثم رفعت حاجبيها، ونظرت للأسفل.. هي تقف فوق خشبة مسرح مهجور، نظرت أمامها لصفوفٍ من المقاعد فشَهِقت وتراجعت للخلف، وهي تشعر بالخَدَر يَسْري في جسدها، عشرات الدُّمى وتماثيل " المانيكان " تجلس في المقاعد وتنظر للمسرح، إليها، كأن العرائس هي جمهور مسرح البشر، رفعت الفتاة يدها ببطء وتحسَّست وجْهها.. وتزايد الضوء على خشبة المسرح.. ليُريها مرآة جوار شِباك العنكبوت.. وأمام المرآة استقرت مِنضدة ضخمة طويلة مُحملة بأواني الطعام المُغلقة، أي مسرحية تلك؟ سارت عبير بضَعفٍ للمرآة ونظرت لانعكاسها ثم قالت: مَن أنا؟

انتفضت الفتاه عندما أتتها إجابات متتالية ومتقاطعة من مكبِّرات صوت خفية بينما الجمهور الوهمي يراقب أداءها وهي فوق المسرح والإضاءة ترتكِزُ عليها..

همسات من الجُدران واتتها من كل صَوْب..

" مرحبًا بك معنا "

" لا تخافي يا فتاة "

" أنتي الخامسة "

" لقد وُلدتِي في تلك اللحظة "

" أنت داخل عقلِه هوَ "

" كُلنا داخل عقله هو "

تلفَّتت عبير حولها برعبٍ.. وهي تتراجع في جَذَع فالتفَّت حولها شِباك اِلعنكبوت، ولوهلة شعرت أن جمهور الدُّمى المتراصة يصفق لها وهي تدور حول نفسها كأنها ترقص محاولة الخروج من شباك العنبكوت.. تعَّثرت فاستندت على مانيكان مُزين بطلاء الوجْهِ، ويرتدي فستانًا فاخرًا، نظرت عبير للتمثال برُعبٍ ودقات قلبها تكاد تُهشِّم قفصها الصَّدرِي.. ثم فجأة وجدت نفسها بين ذراعَي رجلٍ عملاق.. شديد الطول والضخامة، يرتدي زيًّا قديمًا للغاية وقبعةً طويلة، يرتدي ملابس "تشارلي تشابلن" ويمتلك وجهًا شديدَ النحافة، له شارب رفيع متوسط الحجم ملصق أعلى فمه كـ"هتلر"، المخيف في الرجل أنه احتضنها وهو ينظر لأعلى، يشْخَص بالبصر ويحدِّق في الفراغ دون أن ينظُر إليها، كأنها غير مهمة، وهذا جعل قلبها ينتفض، هنا ظهر من خلفه رجلٌ آخر، فصرخت عبير، الرجل الآخر كان مُهرِّجًا.. يرتدي زيّ بُهْلوان السيرك بينما الطلاء الأبيض يغطي وجهَه بالكامل اللهم إلا الطلاء الأحمر المُزيِّن لشفتيه، وطلاء أزرق جاف ينسدِل على وجْنتيه كالدموع، والطلاء الأحمر يرسُم ابتسامة

كبيرة على وجهه، قفز المهرج ووقف على يديه بينما ذراعاه لأعلى ثم اعتدل واقفًا وهو يضحك قبل أن يجذِب عبير من حِضن العملاق ويرقُص معها على أنغام خفية تصاعدت فجأة، وهو يُغني بصوت قبيحٍ: " الحلوة قامت في الفجرية والديك يأدن كوكو كوكو " ورغمَ عنها وجدت عبير نفسها تضحكُ وهي ترقص معه بدلًا من أن تصرخ، ثم شَهِقت عندما رأت رجلًا آخر يعتلي خشبة المسرح بينما الدمى الجالسة في موقع الجماهير تتابع العرض، ضيف المسرح الجديد كان فارسً مملوكيًا بسيفٍ ضخمٍ في غِمْده، يرتدي زيّ فرسان المماليك ويلف رأسه مثلهم.. وله شارب ضخم مفتول.. تلفَّتت عبير بناظريها بينهم.. قبل أن تقول: لا بد أني جُننت..

هنا أتاها صوتٌ من خلفها فالتفتت مجزوعة، وهي تشعُر أنهم يقدِّمون عرضًا مسرحيًا راقصًا لجمهور الدُّمى، خلفها وقفت الساحرةُ الشِّريرة الشَّمْطاء من قصة "ذات الجمال الأبيض"، الساحرة ذات الأنف المَعْقوف والوجه القبيحِ، العجوز التي أعطت "ذات الجمال الأبيض" التفاحةَ المسمومةَ، وقالت الساحرة لعبير: لم تُجنِّي، تلك هي لحظة ولادتكِ..

ثم استدارتِ الساحرةُ وذهبت لتقف أمام المرآة وهي تُغني: يا مِرآتِي يا مِرآتي.. ألستُ أنا الأجمل على الإطلاق؟

نظرت عبير للمهرِّج الراقص، والساحرة العجوز، والعملاق ذي قبعة تشارلي تشابلن.. ثم رأته.. رابعهم.. رجل وقور جالس في رُكنٍ تُغطيه الظِّلال فلم تتبين ملامحه.. صاحت عبير: أين أنا؟

اقترب منها المُهرج، وأمسك بيديها قبل أن يقول: أعطني قُبلة وسأقولُ لك سرًّا.

رفعت عبير حاجبها، وأزاحت يدَه بشكلٍ تمثيلي ودرامي، وأدركت أنها تتصرف كمُمثلة مسرح أو كشخصية من حكاية خُرافية رغمًا عنها، قبل أن تقول بصوت جَهْوريٍّ يصلُ للدُّمى المُتابعة للعرض: إليك عنِّي يا وقِح.

غمَز لها المهرج وقال: قُبلة واحدة وسوف أُفسِّر لكِ كلَّ شيء.

زفرَت عبير قبل أن تُغمض عينيها وتمُد شفتيها للأمام، قبَّلها المهرج قُبلة طويلةً، ثم حاول تقبيلَها مرة أخرى فدفعته الفتاة للخلف قبل أن تصيح في غضبٍ: والآنَ فسِّر لي ما يحدث هنا.

استدارت الساحرة وتركت المرآة.. وذهَبت لتقف جوار عبير، وهي تُحاول إعطاءها تفاحة غريبة المنظر، في نفس اللحظة التي وقَف أمامها الرجل الطويل وخلع قُبعته منحنيًا أمامها فَفهِمت عبير أنه مِثل ممثل من فيلم صامت قديمٍ، يعمل بالحركة والإيماءات، لكنه يمتلك القُدرة على الحديث رغم هذا، وقال لها بصوت أجش: سيدتي الجميلة..

هنا نظرت عبير للفستان الذي ترتديه، وأردف الرجل: أنت غادة الكاميليا..

- ما الذي يحدُث هنا؟

وبحَثت بعينيها عن المهرج فوجدته يتسلَّق الجُدران ضاحكًا،

صاحت الفتاة: أخبرني حقيقة ما يحدُث هنا..

قفز المهرج وعاد للمسرح قبل أن يقول وهو يتثاءب بمللٍ: أنتِ لستِ حقيقية، وأنا لستُ حقيقيًّا.. هئ هئ.. وتشابلن ليس حقيقيًّا.. ولا الساحرة.. ولا هو..

قالها مشيرًا للرجل الجالس في رُكن الظلام، وأردف المهرج: كلنا غير حقيقيين هئ هئ..

- ما الذي تَعنيه؟

- نحن في عقلِه هوَ..

قالها المهرج وهو يُخرج لسانه ويدور بأُصبعه حول رأسه في إشارة للخَبَال.

- عقل مَن؟

- ما اسمه اليوم؟ هاها.

أجابته الساحرة: د.مصطفى.

- وما اسمك اليوم؟

أجابه الرجل ذو شارب هتلر: تشابلن.

صاحت عبير: ما الذي تَعْنيهِ؟

أحاط المهرج كَتفَها العاري بذراعه وقال: نحن عائلتك الآن، نحن نعيش هنا، في المسرح المهجور هذا، أمام جمهور الدُّمى؛ لأنه اختار أن نكون بهذا الشكل وتلك الشاكلة.. د.مصطفى.. الطبيب النفسي..

الذي يساعدُ الآخرين.. ويَهَب نفسه للمجتمع هئ هئ.. . لديه سر صغير.. هو مُصاب بتعدُّد الشخصيات.. لكنه يُخفي سره هذا.. تخيَّلي هذا.. طبيب نفسي مُصاب بتعدُّد الشخصيات والشيزوفرينيا والفصام أو أي كان المسمى الطبي.. كلنا نَحْيا داخل عقلِه.. نحن آليته الدِّفاعية.. أعلَم أعلَم.. ستقولين لي: إن مريض تعدُّد الشخصيات لا يستطيع معرفة هذا وكل شخصياته تعتقِدُ أنها حقيقية، لكن المريض في حالتنا تلك طبيب نفسي بارع وذكي.. وقد شخَّص حالته وتعايش معها، ويعتقد أنه تحكَّم بها كذلك.

قاطعه تشابلن -وهو يرتدي قبعتة- مرة أخرى: لقد تحكَّم بحالته بالفعل.. كبرياؤك فقط لا يسمح لك بالاعتراف بهذا.

- لا تستمعي لتشابلن، على أي حالٍ.. كلنا شخصيات خيالية داخل عقل مصطفى، الرجل الكهل الذي يعاني من الوحدة ويحاول فُقدان الوزن.. هو يُحب التاريخ والسِّيرك وقصص الأطفال.. وهذا سيفسر لك تلك المجموعة الغريبة التي انضممتي إليها يا غادة الكاميليا.

- اسمي عبير.

هزَّ الفارس المملوكي رأسه وقال وهو يتقدم ناحيتها: لقد أسماكي عبير لثوانٍ ثمَّ غيَّر اسمك لغادة الكاميليا، لقد أسماني أربع مرات مختلفة الوغد قبل أن يستقر على اسم آزورد خان..

جلست عبير فوق الأرضية، وهي تشعر أن الأرض تدور بها، رفعت يديها وتحسَّست وجهها وشعرها ثم همست: أنا لست حقيقية.

جلَس آزورد جوارَها وابتسم بجانب وجهه، كان وسيمًا للغاية

ومفعمًا بالرجولة وشعرت غادة الكاميليا بقلبها ينبض وهي تنظر إليه، غمغم آزورد بصوت دافئ: كلنا حقيقيون لأننا جميعًا مصطفى، حقيقة أنه قد عالج نفسه بطريقةٍ ما، ولم نعُد نستطع التحكم في جسده، بعد أن بنى هذا المسرح داخل عقله وحبَسنا به، لكننا لا زلنا نَحْيا هنا، وكل حين وآخر عندما نُساعده يكافئنا، ويسمح لأحدنا باستخدام جسده والشعور بملذات الحياة المادية لفترة محدودة.

جلس المهرج جوارهم كأنه يأخذ دوره في العرض المسرحي وقال: لكن طبعًا يكون هذا بشروط خاصة، ينوِّم مصطفى نفسه مغناطيسيًّا ويستيقظ مع صوت المنبه ويُحكِم غلق أبواب شقته ليتأكد من أننا لن نخرج أو نتعامل مع أحد عندما نستخدم جسده وغالبًا يكون الأمر في الليل.. ولذا بدلًا من الخروج في الشوارع ليلًا وارتكاب كل ما نبغيه نجد أنفسنا في شقته نأكل البيتزا.. ملذة صغيرة مقابل ملذة أكبر، هذا هو فن التفاوض بعد كل شيء هئ هئ هئ.. ملذة صغيرة مقابل ملذة كبيرة.. هئ هئ.. ونوعًا ما هذا يُمثِّل انتقامنا الصغير منه لسجننا الأبدي هذا، أقصد التهام البيتزا، الوغد لن يفقدَ الوزن أبدًا نياهاها.. هل تفهمين ما أبغي قولَه يا جميلة؟

رغمًا عنها شعَرت الفتاة بمنطقٍ في كلامهم، ردود أفعالها ورقصها وضحكها مع المهرج رغم خوفها، حيرتها الحالية بشأن اسمها، شعَرت أن هذا هو عالمها المنطقي الذي تنتمي إليه، أومأت برأسها شاعرة بالقليل من السَّكنيةِ تسلل تدريجيًا لجسدها قبل أن تتساءل: قلتم إنه يكافئكم عندما تساعدونه؟

- يكافئنا يا جميلتي، أنتِ مِنَّا الآن.

ابتلعت عبير ريقها بصعوبة ثم تنحنحت قائلة: حسنًا.. يكافئنا.. علامَ؟ كيف نساعده؟

هنا انضم تشابلن إليهم وأجابها وهو يجلس القرفصاء: بشأن قضاياه مع مرضاه، نحن أذكى من مصطفى

- لكنكم قلتم إننا جميعًا مصطفى.

- ولكن لكل منَّا شخصيته وخبراته، مصطفى يمدنا بالمعلومات، أي معلومه تدخل عقله فهي ملكنا، حقيقة أنه تعلَّم حَجْب ذكرياته بعيدًا عنا، لكن المعلومات هي طعامنا الحقيقي.. ومن تلك المعلومات أن المُصاب بتعدد الشخصيات ينفصل عن شخصياته وتمتلك كل واحدة خبرةً حياتيه حقيقية، لقد فسَّر "كارل يونج" هذا بالإرث الجمعي، نحن قد وَرِثنا ذكريات رجل الكهف والأسلاف، مثل الخوف من الظلام، عندما تأتي الحيوانات البرية ونحتمي داخل الكهوف، إرثنا الجَمْعي هو مصدر قوتنا، يونج قدَّم تفسيرًا ما ورأي كذلك، أن هناك مسًا شيطانيًا أو نوعًا من الاستحواذ لأرواح الموتى؛ ولذا ربما يكون مصطفى يمتلك روحًا حساسة استحوذت عليها أرواح موتى كآزورد وأرابيلا..

- أرابيلا؟

رفعت الساحرة يدها وانضمت إليهم، وجهها قد تغيَّر الآن وأضْحَت امرأة أرستقراطية جميلة في الخمسين من العُمر، قالت أرابيلا: عندما يتذكر أحدهم اسمي أو يقوله أعود جميلة.. نعم ربما يكون الأمر استحواذًا شيطانيًا، أو كما قال التفسير الطبي تعدُّد

الشخصيات.. في كل الأحوال نحن هنا.. وقد أتينا لنبقَى.. ولأننا نمتلك خبرات وذكريات حقيقية لهويتنا فنحن أذكى من مصطفى وأقدر بمساعدته مع مرضاه وقضاياه.. سواء كُنا شخصيات داخل عقل مريض نفسي بتعدد الشخصيات أو كنا أرواح موتَى استحوذت على جسده.. ما هو الفارق حقًّا؟.. نحن هنا وقد أتينا لنبقَى..

كانوا يتحدثون بطريقة علمية منظَّمة كطبيب نفسي ولم يَفُت هذا الأمر على عبير..

كأنما مصطفى قد ترك بصمته فيهم جميعًا..

أشارت عبير- والتي فهمت أنهم متحمسون لقدوم الوافدة الجديدة معهم ويتسابقون بشكل ما لإبهارها - للرجلِ الجالس في الرُّكن وقالت: ومَن هو؟ لم يتحدَّث حرفًا.

هزَّ المهرج رأسه وقال: دَعْكِ منه.. دعك منه.

ثم مدَّ يدَه مصافحًا وأردف: اسمي كاليجاري.. من قصة "كابينة الدكتور كاليجاري" الألمانية.. لكني أفضل اسم التدليل الخاص بي.. كاليجورا؛ لأنه أقرب لنطق كاليجولا قيصري المفضل.. لكن مصطفى ينسى أحيانًا؛ لذا سيدعوني كاليجاري وكاليجورا.. لا تَدعَي هذا يثير حيرتك..

شعَرت عبير برأسها يَدورُ ويكاد ينفجر من كلّ تلك الغرابة التي تحيط بها..

بشَممٍ قالت أرابيلا: لم يكن كاليجولا قيصرك هذا مفضلًا لي وهو

يُعيِّن حصانه مستشارًا له ويَبقِرُ بطن أخته الحامل، لقد سبب لنا كاليجولا المشئوم - نحن معشر الساحرات - الكثير من المشاكل في عصره..

أخذت عبير نفسًا عميقًا وهي تجلس جوار تشارلي تشابلن والساحرة أرابيلا، قبل أن تتحاشى النظر للمهرج كاليجورا، ولم يفُت حدسها الأنثوى أن آزورد الفارس المملوكي لم يحد ببصره عنها، وسرت رجفة في جسدها، كيف تتأقلم مع فكرة أنها شخصية خيالية قد وُلدت للتوِّ داخل عقلِ مريض نفسي استطاع معالجة نفسه؛ لأنه طبيب نفسي يخفي سره عن الجميع، همَست عبير متسائلة: ولكن.. أعني..

- اسألي يا فتاة ولا تخجلي، لكن لاحظي أنك لم تستنكري فكرة أنك لست بحقيقية ولم تصرخي باستنكار جنوني، شيء بداخلك يعلم مُسبقًا، يا لكل تلك الحيرة في عينيك الجميلتين..

- لماذا وُلدت أنا الآن؟

تبادل كاليجورا نظرة ذات مغزًى مع تشابلن وضحِكت أرابيلا في استهزاء في حين أجابها آزورد: لأنه كان يشعُر بالاكتئاب يوم عيد مولده بعدما أتم الأربعين عامًا وهو وحيد بلا عائلة ولا ونَسٍ.. ومِن هنا أتيت أنت..

ثم احمرَّ وجه آزورد خجلًا ولم يُكمل فضحك كاليجورا وهتف: لأنك يافعة وجميلة وجذَّابة ومصطفى يفتقِدُ هذا التأثير الأنثوي في حياته..

رغمًا عنها نظرت عبير أرضًا، ووجدَت نفسها تقول: يا له من مِسكينٍ وحزين.

- تلك هي حياة البشر الحقيقيين في الأغلب، مساكين.. حزانى.. مساكين وحزانى.. لا شأن لهم.. يجرون خلف الطموحات البلهاء ويحاولون تحقيق ذاتهم وكبريائهم في عالم مُخادع ممتلئ بالشهوات.. يَقتُلون ويسرقون ويكذبون ويغتصبون.. وليس بالضرورة بهذا الترتيب.. نحن لا نفعل هذا..

هتف كاليجورا بالعبارة الأخيرة في كبرياء فابتسمت عبير متسائلة: وما الذي نفعله نحن؟

تبادل المهرج نظرة طويلة مع تشابلن.. وسطعت أضواء المسرح أكثر..

ثم هبَّ المهرج واقفًا وكذا فعل تشابلن، بدا لعبير أن هناك تناغمًا كبيرًا بين الاثنين، وفي نفس الآونة التي غنى فيها المهرج وهو يُجيبها بدأ تشابلن في تقديم عرض الإيماءات الصامت ليدعم غناء المهرج في عرضه الراقص، بينما وقفت أرابيلا تصفِّق لهم بوقار ملكي، وظل آزرود مكانه يراقبهم وهناك استمتاع بادي على وجهه، ونظرت عبير بطرف عينها للرجل الجالس بين الظلال والذي لم يبدِ أيَّ تغيير، هنا تعالت موسيقى خافته فشهِقت ضاحكة وهي ترى آزورد يعزف العود، وغنى كاليجورا:

" يا غادتي الجميلة.. نحن الحقيقيون.. في عالم الأحلام.. نأكل وننام ونتسامر.. لا سلبية هنا.. لا غيرة ولا قتل.. إنه عالم الغرائب..

عالم الغراااااائب "

كان يغني وهو يرقص يمينًا ويسارًا بينما تشابلن يقدِّم عرضه الخاص.. وبدأت أرابيلا في هزِّ رأسها بتناغم مواصِلة التصفيق، ورفع آزورد حاجبيه وهو يعزف العود..

" عالم الغرائب.. لا حزن ولا اكتئاب.. نحن نحيا فحسب معًا "

وجدت عبير نفسها تقف وتنضم لهم ضاحكة، هنا وجدت تشابلن يهديها قُبعة الساحر والتي أطل منها أرنب، أخذت عبير الأرنب في حِضنها بحنان وحب، وعلا صوت كاليجورا: لكل منا حكايته.. في عالم الغرائب، حيث ترقص النمور وتنام الثعالب.. . ونسبح في البراكين.. أنا المهرج القديم، الذي عاصرت السيرك في بدايته، عندما التهمَتِ الأسود مروضه، ووقع الساحر في غرام العرافة، وتحول سيد السيرك لقطرب يعوِي بصوت الذئب مع ضوء القمر المكتمل.. أنا المهرج القديم الذي أضحك الملايين وهو يبكي أنهار دموع بداخله..

وجلس المهرج القرفصاء باكيًا بشكل تمثيلي فاقتربت منه عبير ملهوفة لتواسيه فقط ليهبّ ضاحكًا ويحتضنها ويرقص معها قبل أن يدور بين ذراعيه ويردف مشيرًا لتشابلن: وهو- الضاحك الباكي- سيد الفن والكوميديا السوداء، ملك الأفلام الصامتة، الفيلسوف الصامت تشارلي تشابلن.

علا صوت العود بشدة وكفَّ كاليجورا عن الغناء وذهب واحتضن تشابلن وشدَّ على يده باحترام أرستقراطي وهو يضيف: الذي رأى وعرف أسرار العالم كله..

ثم دار المهرج حول نفسه وأردف وهو يلثم يدَ أرابيلا: ملكة قبائل الجرمان وجميلة الجميلات، التي أقسم بجمالها قبائل السلت والبربر، ساحرة الشمال والجنوب، وسيدة حكايات الكوخ.. إنها الملكة.. الساحرة..

ثم اقترب كاليجورا وهمس في أذن عبير مغنيًا: ألَا تعلمين أنها نفس ملكة الأوراق وأرض العجائب التي واجهتها ألِّيس..

ذهب كاليجورا بعدها لآزورد وصاح: فارس المماليك الذي هزم العثمانيين جميعًا وارتجف لاسمه محمد علي، آزورد خان، الناجي الوحيد من غدر محمد علي بقومه في القلعة، آاه ألا تدركين ما حدث.

وأغمض كاليجورا عينيه منتشيًا قبل أن يُكمل: آزورد الطفل يرى رأس طومان باي على السياج..

ينحني المهرج ويقفز للأمام متابعًا: آزورد الشاب يقع في غرام جميلة قبائل الغجر..

يدور كاليجورا حول نفسه وينحني أمام تماثيل الدُّمى ويهزُّ مؤخِّرته لهم بشكل مُضحك قبل أن يتابع: آزورد الفارس يقود الجيوش، يحارب، يهرب من مذبحة القلعة، دماء رفاقه تغرق وجهه وهو يجدِّف بالقارب مبتعدًا عن المحروسة..

ينتهي كاليجورا من عرضه الغنائي وهو يلهَث، ويبتسم تشابلن لعبير قائلًا: هذا ما نفعله، وتلك هي حياتنا، نحن مجموعة من الناس الذين يحيوا معًا في تصالح وسلام..

كانت عبير متلاحقة الأنفاس، وهي تنظر لهم مبهورة، ثم دارت حول مِنضدة الطعام الكبيرة وهي تتساءل بصوت مسرحي كأنها تنقل أفكارها للجمهور: تلك المنضدة، تذكّرني بشيء ما..

- هي منضدة العروس اللتي ظلت تنتظر حبيبها لقرابة الأربعين عامًا في رواية "توقعات عظيمة" لتشارلز ديكنز، مصطفى يحب هذا المشهد للغاية..

هزت عبير رأسها كأن هذا أمرًا منطقيًا، وكادت أن تتساءل مرة أخرى عن هوية الرجل الجالس في الظلال لكنها عدَلت عن هذا وانضمّت لرِفاقها والبسمة تعتلي وجهها، بسمة يشوبها القليل من الحيرة عما سيحدث الآن، وكأنما هو قد قرأ أفكارها، قال لها كاليجورا: لا وجود للزمان والوقت هنا، لا سأم ولا أشياء من هذا القبيل..

تهز عبير رأسها وتقف جوارهم على خشبة المسرح..

هنا حدَثت جلَبة وعلَا صوت شيء ما، باب ينفتح، فصاحت أرابيلا: أخيرًا.

ووقف آزورد في تأهُّبٍ في حين نظر كلٌّ من كاليجورا وتشابلن بحماسٍ لمصدر الصوت..

قطّبت عبير جبينها متسائلة: ما الذي يحدث؟

- وجبة طعام قادمة.

- ماذا؟

- طعامنا هو المعلومات.. هذا ما نشتهيه، وتلك هي شهوتنا العظمى، مصطفى يُرسل إلينا معلومات بشأن قضية ما، هو بحاجة لخبراتنا ومساعدتنا..

هنا وأمام عينيها المتسعتين رأت عبير عرَبة طعام أنيقة تندفِع نحوهم ببطء من الظلام.. اندفعوا إليها كالضِّباع الجائعة وانهالوا عليها وتعالت أصوت المضغ، نظر إليها تشابلن بفمٍ ممتلئ وقال: هلُم شاركينا..

سارت عبير نحوهم بترقُّب، ونظرت للأطباق الخالية بتوجُّس، قبل أن تفيقَ من تركيزها على صوت كاليجورا هو يئنُّ متلذذًا قبل أن يفرد قامته ويصيح: يا رِفاق.. أمامنا قضية جديدة.. مريض فاقد للذاكرة يُدعَى مازن، هو الناجي الوحيد من جرائم قتلٍ وقَعت ليلة رأس السنة في بيته بالتجمع الخامس، أسرته وعامل توصيل طلبيات هم الضحايا.. اجتمِعوا يا رِفاق، هلُمُّوا، ولنساعد مصطفى.. سنحلل المُعطيات ونفكّر معًا محاولين الوصول لاستنتاج لنرسله لمصطفى..

جلسوا جميعًا القرفصاء في دائرة مغلقة ومعهم عبير المتوترة.. وابتسم لها تشابلن مطمئنًا في حين هتف كاليجورا في عجالة: دَعْكِ من سلوك الوافدين الجُدد هذا يا غادة الكاميليا.. أمامنا الكثير من العمل.. والآن..

أخرجت أرابيلا بلورة سحرية من ردائها الطويل ووضعتها في منتصف الدائرة، قبل أن تُحضر المرآة وتُوقفها جوار البلورة، وعلى المرآة رأت عبير وجْهًا يُغطيه القماش الطبي، ارتجفوا جميعًا ووجموا

قبل أن يقول كاليجورا بصوت خافتٍ: هذا هو مازن على ما أظن..

نظروا بعدها للبلورة السحرية.. وقالت أرابيلا: مازن فقد جزءًا من ذاكرته، لا يتذكَّر ما الذي حدَث لعائلته في ليلة رأس السنة.

مد آزورد رأسه ونظر للبلورة قبل أن يضيف: ولكن مصطفى يعلم ما الذي حدث لهم، وكذلك الشرطة والإعلام، الكل يتحدث عمَّا حدث لعائلة مازن، مواقع التواصل، الجميع..

لثانية أرادت عبير أن تضحك وهي تسمع فارسًا مملوكيًّا ينطق بمصطلح " مواقع التواصل " لكنها كتَمت ردةَ فعلها وآزورد يواصل وهو معقد الحاجبين: لقد كانت مجزرة حقيقية، يا إلهي أغثنا، يا إلهي الرحيم.. .

تساءلت عبير في دهشة عن كُنه المجزرة القادرة على صدمة فارسٍ مملوكي حارب العثمانيين وفرَّ من مذبحة القلعة، عندما قال تشابلن باهتمام: مصطفى يريد تحديد إن كان مازن بريئًا أم لا.. سيعطينا كافة المعلومات وعلينا التحديد والوصول لحكم جماعي بخصوص مازن..

- نحن هيئة محلِّفين إذن.

- لنركز ونختبر كل التفاصيل بأنفسنا.

- هيا بنا يا رفاق.

- هل ستنضم إلينا؟

قالها كاليجورا للجالس في الظلال، ونظروا جميعًا إليه ومعهم

عبير.. لم يأتهم بِرَدٍّ، فعاودوا النظر جميعًا للبلورة السحرية، حيثما كان مازن وهو يروي حكايته لمصطفى..

ورغمًا عنها، وجدَت عبير نفسَها تنظر باهتمام للبلورة، بعد أن تقبَّلت حقيقة وجودها في هذا العالم الساحر..

***

نبتعد قليلًا عن رأس مصطفى الجالس مكانه فوق مِقعده قبالة فراش مازن والأخير يحكي حكايته.. ونرى الذِّكرى التي تطوف بعقل د. مصطفى..

***

منذ بعض الوقت:

" ليلة عيد ميلاد مصطفى "

اعتدل الكهل ببطء من فوق أريكته، بينما فيلم "بداية ونهاية" يصل لمشهد المواجهة بين فريد شوقي وأخته، تنهَّد مصطفى ونظر بحُزن لكعكة عيد الميلاد البائسة فوق منضدته في شقته، ثم مال ونفخ في الشمعة نصف المشتعلة، لكن اللعينة أبت أن تنطفئ، نظر إليها مصطفى في حنَقٍ، وغمغم: حظِّي جيد طوال الوقت!!

أمسك مصطفى بهاتفه وفتح الكاميرا الأمامية قبل أن ينظر لانعكاس وجهه؛ السواد أسفل عينيه والشحوب، الوحدة قد تمكَّنت منه وارتكبت كل آثامها معه.. ووقف ببطء ونظر من نافذة شقته للبِنايةِ المقابلة فرأى فتاة عشرينية تُغير ملابسها أمام المرآة، كانت

جذابة ونحيفة وممتلئة الجسم في الأماكن المخصص لها الامتلاء فحسب، ظل يتأملها، لوحة اسمها الحياة على الجهة الأخرى من بِنايتِه، وتلك اللوحة الجذابة ترتدي قميصًا وسروالًا أبيضَ، مال برأسه ولامس زجاج النافذة قبل أن يُغمض عينيه ويُغمغم: أيها العجوز المتلصِّص، أنت وحيد، عليك مواجهة هذا، ولديك الكثير من الأعمال..

عاد وجلس لينفخ بقوة تلك المرة ولكن الشمعة أبت أن تنطفئ، ضحِك وأطفأها بيده غير مُبالٍ بالنيران، قبل أن يستلقي فوق الأريكة ويتصفح الأخبار على هاتفه، بعد وهلة هبَّ معتدًلا وهو يقرأ بخصوص جريمة ليلة رأس السنة، ارتجفت يده وهو يُطالع تفاصيل المذبحة.. قبل أن يذهب ويُعد لنفسه بعض الشاي طلبًا للدفء والسكينة، الشاي هو رفيق وَحْدته بجانب عمله، عاد وجلَس يرشُفُ من الشاي وأحضر جهاز التسجيل الخاص به وتحدَّث عبْر مكبر الصوت:

" مذكرات الشتاء - خاصة بالعمل:

لقد وجدوا أسرة في ليلة رأس السنة؛ رب الأسرة جثة هامدة، وزوجته الراحلة بالقرب منه، لقد تمَّ التمثِيلُ بجثثهم، وهناك جثة عامل التوصيل عاثر الحظ، وناجٍ من المذبحة، شاب فاقد الوعي "

غمغم مصطفى وهو يتنهَّد: يا للهول.. تلك القضية لي..

رشف من الشاي بحماسة ولكن الشاي الساخن آذى لسانه فسقط منه الكوب على الكعكة وانطفأت الشمعة حينئذ، وقف مصطفى في

تلعثم وهو يحاول تنظيم تلك الفوضى مرة أخرى، قبل أن يجلس مرهقًا، ونظر بطرف عينه للنافذة، جواره يقبع كتاب " توقعات عظيمة " لتشارلز ديكنز، وعلى الكومود تستقر صورة لتشارلي تشابلن، بينما هناك صورة في إطار معلّقة على الحائط ليوسف وهبي، أسفلها مجلات أطفال علي غلافها صورة الساحرة الشريرة وهي تعطي التفاحة إياها لذات الجمال الأبيض، استلقى مصطفى للخلف على أريكته، قبل أن يقول مرة أخرى: تلك القضية لي، لا بد أن أقابل هذا الفتى..

***

عودة للوقت الحالي:

هز آزورد رأسه في اهتمام وهو ينظر للبلورة السحرية قبل أن يتمتم: ما هو شلل النوم هذا الذي ذكر مازن أنه يمر به؟

- إنه مرض طبي يُصيب نسبة نادرة من البشر، يجعلهم يتصلبون، ويفقدون القُدرة على الحركة.. يفقدون القدرة تمامًا عن الحركة.. ولا يستطيعون الكلام كذلك، البعض يعتقدهم موتى ويدفنهم أحياء.

- تبدو كقصة رعب من عوالم إدجار آلان بو.

- مَن؟

- شاعر وكاتب تخصّص في الرعب القوطي والرومانسية يا آزورد يا جاهل.

- إليك عنّي يا تشابلن ليس هذا بوقت التفاخر، بإمكاني أن أحدثك

عن قصائد "عنترة" و"الحظرد" و"المتنبي".. أنا واثق أنك لا تعرفهم.

تنحنحت عبير وقالت: أعتقد أنكم قلتم أنه لا وجود للضغائن ها هنا.

هز تشابلن كتفيه مغمغًا: نحن امتداد لعقل مصطفى البشري بعد كل شيء.

- لنعد لموضوعنا يا سادة.

قالتها أرابيلا بصوتها الساحر والراقي.

- إذن مازن مُصاب بمرض شلل النوم، ومرض آخر هو الصَّرع الليلي أو نوبات الفزع الليلية.

- وما هو هذا المرض؟ وقُل لنا دون تفاخر.

- ألم تلتهم هذا الطبق معي؟ لقد أعطاني إياه مصطفى وهو يقرأ كتاب "الإرث الجمعي" ليونج، وقد التهمت تلك المعلومات بنَهم، نوبات الفزع الليلية، بعض الأطفال يستيقظون ليلًا من نومهم وهم يصرخون، ثم يعاودون النوم كأنَّ شيئًا لم يكن، بعضهم يسير في نومه كذلك، تلك الحالة تُصيب الكبار كذلك، وأيضًا بنسبة نادرة.

- إذن مازن مُصاب بكل الأمراض النفسية النادرة، يا له من فتًى محظوظ.

- لا علاقة للحظ بالأمر يا تشابلن، نحن نبحث عن تفسير، لماذا أنت صامت يا كاليجورا؟

- أفكر، الصدمة وموت والدة مازن هي التي أصابته بكلٍّ تلك الأمراض الليلية، وعلاقته مع أخته رنا هي ملاذه الوحيد..

- هناك تفسير آخر لشلل النوم ونوبات الفزع الليلية يا نبلاء.

- وما هو هذا التفسير يا ساحرة الشمال والجنوب؟

رفعت أرابيلا رأسها؛ عُنقها جميل وطويل للغاية، وكادت عبير أن تقول لها: إنها أجمل امرأه رأتها في حياتها، لكنها لاحظت بقعًا جلدية وتشوُّهات تتسلَّل على وجه الساحرة؛ أنفها قد بدأ يستطيل كذلك، فغمغمت عبير: قولي لنا يا " أرابيلا الجميلة "

اختفت التشوهات ونظرت الساحرة بامتنانٍ لعبير قبل أن تستطرد: الجاثوم.

- نحن عقل علمي ومنهجي يا أرابيلا ولا نؤمن بالأساطير.

- في القِدَم، أبان جلوسي على عرش الشمال وحُكمي للسلت والجرمال، كان هذا هو التفكير المنهجي، وقد تغير الحال الآن، أفلا يتغير مرة أخرى؟

وأضاف تشابلن بغير اقتناع: كل شيء نِسْبي حسب نظرية أينشتاين.

ابتسم كاليجورا معلقًا: أخبرينا يا ساحرة الشمال عن الجاثوم.. سيد الليل والعذاب.

- دَعْك من الأساطير البالية، أنا الوحيدة التي أعرِف حقيقة الجاثوم، هو يأتي ليلًا، ويَسْحرك، فتجد أنك غير قادر على الحِراك

ولا الاستغاثة، ثم يجثُم فوقك، أغلب من يحدث لهم هذا يتوقف قلبهم ذعرًا.. ولذا ساد الاعتقاد أن الجاثوم يبغى إيقاف قلبهم، ولكن هذا تضليل، التعساء الذين ظلوا أحياء رأوا الحقيقة ولم يظلوا في عالم البشر ليحكوا عما رأى؛ عن عينيه الحمراواتين، ووجه الخفاش، وأنيابه الطويلة، وهو يمزِّق أجسادهم وأعناقهم ويشرب دمائهم.

- إذن الجاثوم مصّاص الدماء؟

- بلى، كائن ليلي، خالد، ينام في ترب المقابر، ويأتي ليلًا ليتغذى على دماء ضحاياه.

تنهد تشابلن في ضجر ثم قال بابتسامة متكلَّفة: أرى أن نلتزم بالتفسير الطبي..

نظرت عبير لآزورد وهمست متسائلة: لم أعرف أن لمصطفى هذا عقلًا روحانيًا يؤمن بالماورائيات؟

مال آزورد نحوها وهو ينظر لعينيها قبل أن يقول: كلنا مصطفى.. على أي حال هو يمتلك عقلًا طبيًا لكنه صاحب خيال خصبٍ كذلك.

غمغمت عبير لنفسها بتعجُّب: أنا مصطفى.. حسنًا..

أردفت أرابيلا متجاهلة تعليقاتهم: أنا لا أقول إن الجاثوم يزور "مازن" ليلًا، ولا أدعي أن الجاثوم هو من فتَك بوالدة مازن، لكننا رأينا في البلورة أن والدته أفرغت جوفها دمًا، دماء.. الكثير منها، كل ما أطلبه منكم هو التفكير باحتمالية أن الجاثوم هو الذي يُهاجم "مازن"، هو الذي قتل أمه، وربما تجسَّد الجاثوم في صورة امرأة

وتزوج أباه.

- إذن الجاثوم هو زوجة أبيه؟

- مجرد احتمالية؟

تبادل كاليجورا نظرة ساخرة مع تشارلي تشابلن، في حين كان آزورد يهز رأسه باهتمام مع كلام أرابيلا فسألته عبير هامسة: أنت تصدِّق هذا الكلام؟

نظر آزورد لها طويلًا وبدا مشتتًا بين عينيها السوداوين قبل أن يفيق قائلًا: لقد رأيت الكائنات القديمة وهي تصارع الحظرد في جزيرة العرب، وحاربت الغولة وذا الساق مقلوعة الجلد، ورأيت كائنات النسناس الشيطانية، نِصفها قرد ونِصفها ظبي، وهي تفترش البشر بوثبة واحدة، هناك الكثير مما لا يعلمه البشر..

هزت عبير رأسها مبهوته؛ فقال كاليجورا الذي التقطت أذناه أطرافًا من حديثهم: لنَعُد للتحليل، مازن مصاب بصدمة نفسية من الطفولة، بعد موت أمه، وزواج والده من امرأه غريبة، وأصابته تلك الصدمة بشلل النوم ونوبات الفزع الليلية؛ لأن من أسباب تلك الأعراض الضغط والهلع النفسي..

- ولكن كل المصابين بتلك الأعراض - حسب كلام الطب والعلم - يرون كائنات شيطانية تحاول الفتك بهم، وقد أعزى العلم والباحثون بتلك الهلاوس لخيالات لا تفسير لها، ألا ترَى أن تلك مصادفة غريبة؟

- أرابيلا أرجوك، سنفكر في احتماليتك لكن علينا عرض كل

الاحتمالات الأخرى.

- حسنًا، كل ما أقوله أن مختلف الشعوب في مفترق البلدان وعلى شتى العصور وصفوا نفس الحالة والظاهرة، هم غير قادرين على الحراك، مشلولين إبّان نومهم لكنهم متيقظون ويرون هذا الكائن الليلي، وهو يُحدثهم ويُفسد روحهم قبل أن يعتليهم ويجلس فوق صدرهم، العلم فشل في التفسير فعَزَى الأمرَ للهلاوس والمسميات مثل شلل النوم ونوبات الفزع الليلية، بينما هناك حقيقة بسيطة أن الجاثوم هو من يهاجمهم.. تلك هي فرضيتي ولن أصر عليها، بشرط أن تدعوني الآن بلقبي لأن جلد وجهي على وشك التساقط.

- أرابيلا الجميلة.. جميلة الجميلات.

طبعت أرابيلا قُبلة على يدها ونفحتها في الهواء باتجاه كاليجورا الذي تلقّى قُبلتها في يده واحتضنها قرب قلبه في حين قال تشابلن: هل تعتقدون أن "مازن" قتل أباه وزوجته في نوبة جنون؟

- مازن يعتقد أن خطيب أخته المختَل ذا الحسِّ العصبي والعدواني هو القاتل.

- خطيب أخته؟ لم ألتهِم تلك المعلومة.

- لننظُر للبلورة السحرية ونحاول تعويضك عما فاتك من طعام إذن.

- انتظروا.. ما رأيكِ يا غادة الكاميليا؟

- ها؟

- ما هو تحليلك؟

التفتوا جميعًا نحوها وابتلعت عبير ريقها وهي تنظر إليهم، والتوتر يكاد يفتك بصدرها.

- آه.. أعتَ.. أعتَقِد أن "مازن" مريض..

- هذا أمر بديهي.

- أعتقد أنه.. آه.. حزين.. هو حزين للغاية.. حزنه حقيقي..

- أتقولين إن حزنه انفصل عنه وتجسد في صورة قتل عائلته؟

- بالطبع لا، لكن.. آه.. حسنًا لا أعلم.

تنهَّدت عبير محمرة الوجه ونظرت للأرض، فعادوا بأنظارهم للبلورة بعدما تبادل كاليجورا نظرة مع تشابلن من طراز " تلك الوافدة الجديدة غير مفيدة على الإطلاق ".. فهز تشابلن كتفه..

وقفت عبير وخرجت من الدائرة قبل أن تسير الهُوَيْنا، التفت آزورد وراقبها وهي تسير مبتعدة..

بحيرة فكَّرت هي في اسمها، عبير أم غادة الكاميليا؟..

وقفت عبير.. غادة الكاميليا.. قُبالة الرجل الجالس في الظلال على المسرح أمام جمهور الدُّمى..

" غادة الكاميليا ": مَن أنت؟ ولماذا تجلس في الظلال؟

" الرجل المظلم ": ".. .. .. "

" غادة الكاميليا " لم لا تُجبني؟

" الرجل المظلم " - يحرِّك رأسَه وينزاح الستار بشكل تام، يتسلط الضوء عليه -: ما الذي تريدينه يا بائعة الخبز؟

" غادة الكاميليا ": معرفة سبب حزنك وانعزالك.

" الرجل المظلم " ارحَلي يا عاهرة بابيلون.

تتراجع عبير للخلف مبهوتة، لتجد آزورد يقف وراءها، ارتطم كَتِفها بصدره فالتفتت إليه لتجده قد ترك دائرة التحقيقِ والتحليل ولحِقَ بها، مدَّ يده صوبها هامسًا: سِيري معي ودَعْكِ منه..

وضعت عبير يدها الصغيرة في كف آزورد، الذي تلقَّى يدها بمزيج من رفقٍ وصلابةٍ أوْدَت بالقشعريرة داخل جسدها، ثم وجَدت نفسها تسير معه أمام جمهور الدُّمى للرُّكن الآخر من المسرح..

***

وقف الاثنان وتَبِعهم الضوء الأبيض لينير البقعة التي وقفا فيها، بينما أصبح الباقي جزءًا من خلفيَّة المشهد، وعندما سطعت الإضاءة رأت عبير لوحة ضخمة مُغطاة بقماش أصفر عملاق، همست وهي تنظر للوحة بينما كتفها يلامس جسد آزورد: لوحة من تلك؟

- لا أعلم، لقد كانت موجودة هنا دومًا لكن أحدنا لم يزل القماش من قبل.

صمتت عبير وتحاشت النظر مباشرة لعيون آزورد، وشعَرت بنبضات قلبها تتزايد، اقترب منها الفارس المملوكي قبل أن يَمدَّ يدَه

في جرأةٍ ويمسح جبينها بيده وتلمس أصابعه شعرَها.. هنا رفعت عينيها باتجاهه.. ونظرت إليه في صمت.. بأعين حائرة.. ابتسم لها آزورد قبل أن يقول: أنت شديدة الجمال يا غادة الكاميليا.. وشديدة الحيرة.. لا تحكُمي على نفسكِ، لا تقيِّمي أداءك، تلك من صفات البشر، هنا في عالمنا الأمور تجري بشكلٍ مختلف، كوني حُرة، انسابي كمِياه النهر، هل رأيتي مياه نهر مترددة مِن قبل؟

ابتسمت عبير وهمست: كلّا.

اقترب منها آزورد وحدق بعينيها مكررًا بصوت عميق: إذن كوني مثل مياه النهر المتدفِّق..

ومدَّ يده ليضعها على ظهرها قبل أن يحتضنها برفقٍ، أغمضت غادة الكاميليا عينيها وتركت نفسها تنساب بنعومة كمياه النهر بين أحضان آزورد..

- لقد هزمت جيش السلطان، وتعلمت على يد طومان باي، لقد حاربت الأبالسة، أنا آخر واحد من قومي، صرخاتهم لا تزال تدوِّي بداخلي بين جدران القلعة، ولكنك أنت يا غادة الكاميليا.. أنت..

نظر في عينيها مطولًا وهو يقف على خشبة المسرح قبل أن يرفع يديه معقِّبًا: لقد عبرت محيطات الزمن كي ألقاكِ..

ثم مد آزورد يده ليمسح بها على شفة عبير، التي سرَت القشعريرة بداخلها وارتجفت قبل أن ترتمي بحِضنه مرة أخرى وهي مغمضة العينين..

كان كاليجورا يرفع رأسه كل حينٍ وآخر لينظر إليهما قبل أن يعاود الحديث مع أرابيلا وتشابلن.. ثم ابتسم وغمز لتشابلن عندما احتضن آزورد عبير، وهمست أرابيلا: أغار قليلًا من الشباب، ليتني أستطيع الإحساس بهذا الشعور مرة أخرى.

نكزها كاليجورا ضاحكًا: أنت دومًا شابة جميلة بالنسبة لِي..

في حين نظر إليها تشابلن في صمت مبتسمًا..

في نفس الآونة انعكست الظلال على وجه عبير الجميل وآزورد يقول لها: لم لا نعد ونجلس معهم لنحلَّ تلك القضية..

ابتسمت عبير ومسحت دمعة هربت على وجنتها مضيفة: لنفعل ذلك، بثقة مياه النهر..

وعاد الاثنان ليجلسا في الدائرة مع رفاقهم.. صفَّر كاليجورا ونفخ بفمه راسمًا شكل بوق بيديه احتفالًا بعودتها..

ثم نظروا جميعًا للبلورة السحرية.. لمازن وهو يحكي..

***

نظر مازن لمصطفى الجالس أمامه قبل أن يقول بصوتٍ مرهق: أشعر بصداع قاتلٍ، أشعر كأن رأسي يوشك على الانفجار.. هناك غرفة مغلقة بالطابق العلوي، هذا أول شيء يجب عليك معرفته بشأن أسرار أسرتنا الصغيرة، هناك غرفة مغلقة يحرم أبي علينا الاقتراب منها، وأحيانًا في الليل أسمع أصواتًا قادمة من تلك الغرفة، كأنما هناك شيء حبيس بها يحاول الخروج.. آه رأسي يؤلمني بشدة..

- أنت مررت بالكثير من الصِّعاب.. الوعي البشري لغز من ألغاز الكون، عقلك قد استفاض من كثرة الطاقة السوداء وطريقته في التفريغ عن نفسه هي الصداع، الحقيقة أن الصداع هو أول مراحل المرض العضوي الناجم عن انهيار الصحة النفسية، هناك مراحل أخرى كالهلوسة والفصام والانفصال عن الواقع، وكلّا، فقدان الذاكرة ليست بواحدة من تلك المراحل، بل هي محاولة من عقلك الباطن لحمايتك من معرفة شيء، حجَب حقائق ليس أكثر، لن أسرع بالاستنتاج بأن أمر تلك الغرفة المغلقة والمحرَّمة لهو رمز من عقلك الباطن لشيء ما حدث أثناء طفولتك، لن أرفض واقعك، أيًّا كان الذي ستحكيه لي، لكني سوف أشير بلطف أن تلك مجرد احتمالية، لا تستهن بعقلك الباطن يا مازن، على أي حال ما أريد قوله أن ما تشعر به في تلك اللحظة هو ألمٌ نفسي وليس جسديًّا..

- وأيهما تعتقد أنه أصعب؟

ابتسم مصطفى ببطء قبل أن يقول: الألم الجسدي بالطبع، اسأل أي شخص مُصاب بالشلل أو بمرض عضوي مؤلم، ولسوف يؤكد لك أن المرض الجسدي هو أعتى أنواع الشر، ولكن هذا لا يعني أن نستهين بالمرض النفسي، الفارق بينهما هو أن الأول قصير الأجل، وتلك من رحمة الله بنا، عندما يصبح المرض الجسدي طويل الأجل فقُل على صاحبه السلام، أما المرض النفسي فهو شر خبيث مستتر يعمل ببطء وصبر على المدى الطويل قبل أن يتمكّن تمامًا من صاحبه..

- من الغريب سماع طبيب نفسي يستخدم هذا التعبير؟

- الشر؟

- نعم.

- مدارس علم النفس الحديثة لديها العديد من الكلمات المحرَّمة مثل "الجنون" و "الهيستيريا" و"الشر".. لكني أعتقد أن الشر موجود؛ لأني أُومِنُ بوجود الله، وهذا يحتِّم عليَّ الإيمان بوجود الشيطان كذلك.. هناك شر داخلي وخارجي؛ الشر الخاص بالانسان، وهو ما يفسره علم النفس، والناجم عن طمع وشهوة وغيرة.. إلخ إلخ، تلك الصفات الإنسانية غير الحميدة، الشريرة. وهناك الشر الخارجي كالشياطين والوحوش.. ما آمن به أسلافنا ورجال الكهف، وحوش البرية كالذئاب والدببة الموشكة على مهاجمة الكهف.. ومنه أتى الخوف من الظلام والليل..

ارتجف مازن مع ذكر عبارة " الخوف من الليل " قبل أن يسأل مصطفى: وأنت تؤمن بالشر الخارجي؟

هزّ مصطفى كتِفه مبتسمًا قبل أن يقول بصدق: لا أعلم.

ثم تنهَّد مكررًا: حقًّا لا أعلم.

تكراره للعبارة بتلك الطريقة جعلت مازن يظن أن طبيبه النفسي قد بحث في الأمور الماورائية من قبل..

ثم تزايدت ابتسامة مصطفى وهو يقول: من المفترض أن أوجِّه أنا إليك الأسئلة.. لا تكن مراوغًا.

- أنا مرهق للغاية..

- هل تريد تأجيل الحديث؟

- كلّا، أريد معرفة سبب القماش الطبي على وجهي ومكان أختي.. ولذا سأحاول أن أكون صبورًا رغم أن المنطق يدفعني أن أصيح بك أن تخبرني فورًا، ولسوف ألتزم باتفاقنا وأحكي لك كل ما أعرفه.

- كلي آذان صاغية، وأنا مقدّر ومتفهِّم صبرك.

- لقد حكيتُ لك عن نوبات الرعب الليلي وشلل النوم، عن وفاة والدتي..

قال مازن العبارة الأخيرة بصعوبة، وقد انتصر الألم بداخل صدره في اعتلاء وجهه قبل أن يواصل الحديث.. وحكيتُ لك عن زواج أبي من شيرين.. التي كانت تصغره بعدّة أعوام.. كنت أبغضها بشدة، وكذلك فعلت رنا، لم يحق لها أبدًا أن تحل مكان والدتنا، أعلم أعلم.. من الطبيعي أن يكره المرء زوجة أبيه، لا بد أن هناك لقبًا لمتلازمة سخيفة ما عندك لتلك الحالة، لكن لنكتفي بتسميتها " بمتلازمة كره زوجة الأب ".. ما الذي تريد مني حَكْيه بخلاف هذا؟.. لا أعتقد أنك مهتم بذكريات طفولتي وشبابي.. تلك أمور مضجرة للغاية.

مال مصطفى للأمام وعقد يديه أسفل ذقنه مستندًا عليه وقال: لا أعتقد أن ذكرياتك ستكون مضجرة، بالعكس يا مازن، هل سمعت من قبل عن تجربة نافذة فاوست؟ في القِدم كانوا يبنون نافذة خشبية داخل غرفة مقفرة وقبيحة، تلك النافذة لم تكن تطل على شيء سوى جدار كئيب، ويجلس الشخص المختار للنظر من النافذة، ينظر إليها، عقله يدرك أنها نافذة لكنه لا يستوعب أنها لا تطل على شيء؛

لأن كل النوافذ يجب أن تكشف لنا شيئًا ما من الحياة الخارجية.. ولذا يقوم الخيال بإرسال صور ذهنية للعقل المرتبك ليريه ما تنظر إليه النافذة، لا يوجد جدار الآن، بل حديقة أو بِناية أخرى بها فتاة جميلة.. تلك التجربة تكشف لنا الكثير عن الوعي البشري، عقلك الآن مثل نافذة فاوست، هو مرتبك، وهناك صور ذهنية يتم إرسالها إليه. ما أريد معرفته هو الحقيقة التي تكمن خلف كل تلك الصور، ما أريد رؤيته هو الجدار خلف النافذة، أرني إياه.. ذكرياتك مهمة يا مازن، ولسوف تكشف لنا الجزء الذي لا تتذكره.. قل لي.. من الذي اختار لك اسمك؟ والدك أم والدتك؟

أجاب مازن بسرعة ودون تفكير: والدتي بالطبع..

- أنت لا تحب أباك أليس كذلك؟

- علاقتي معه لم تتعَدَّ أو تتخطَّ تعاملنا المباشر، لم أفكر به أبدًا وهو غير موجود كما وصفت لك سابقًا وأعتقد أن هذا يعني أنه غير مهم بالنسبة، ومشاعري تُجاهه حيادية تمامًا..

- هل أنت سعيد في حياتك يا مازن؟

صمت الفتى طويلًا قبل أن يزفر ويجيب: لا أقصد أن أكون وقِحًا ولكن ألا ترى أن هذا سؤال ساذج وسخيف؟ هل جربت أن تسأل أي أحد من قبل إن كان سعيدًا في حياته أم لا؟

في نفس الآونة كان كاليجورا يضحك وهو يتابع ما يحدث خلال البلورة السحرية ويعلق: سؤال أحمق بالفعل، لم أكن لأسأله أبدًا لو كان هذا الأخرق ترك لي جسده لأتحكَّم به..

هز تشابلن رأسه في تفكير وربّت على ذقنه بأُصبعه قبل أن يُغمغم وهو يضيق عينيه: كلّا، أعتقد أن لديه هدف ما من هذا السؤال المباشر.

غمغمت عبير: اختبار ردة فعل مازن..

نظروا إليها جميعًا دون اتفاق مُسبق منتظرين تفسيرًا فكادت أن تتوتر مرة أخرى، لكنها نظرت لآزورد وابتسمت بجانب وجهها مثلما يفعل هو، ثم قالت: هو يختبر ردة فعل مازن لمعرفة مستوى ذكائه، أعني دعونا نفكر بشكل شامل، مصطفى يعرف مسبقًا أن مازن - على الأرجح - شخص غير سعيد في حياته.. لقد وجّه السؤال وهو لا يبغي إجابة، بل يبحث عن ردة فعل.. يريد معرفة هل سيجيب مازن أم أنه سيراوغ أم.. ربما.. وأعني فقط ربما.. سوف يستنكر السؤال شاعرًا بالابتذال، أغلب الأشخاص الذي يشعرون بالتكرار والابتذال ليسوا أذكياء بالضرورة، لكنهم يمتلكون نظرة شمولية أكثر من غيرهم؛ ولذا هم أكثر هدوء ولامبالاة في مواجهة الأزمات، هم يشعرون أن كل هذا مكرر، حدث من قبل، مبتذَل، ويتخيلون أنفسهم بعد عدة أعوام وهم يستعيدون مأساتهم الحالية كذِكْرى سخيفة أو مضحكة.. ولكن في الآن ذاته لا شيء مبتذل أبدًا عندما يحدث لك؛ ولذا أحيانًا هم يصابون بالجزع مثل الحالة التي يمر بها مازن الآن، يصابون بالجزع عندما يتفوق الأسوء على كل توقعاتهم، ومازن لم يتوقع أن يستيقظ فاقد الذاكرة ومغطّى الوجه وهو لا يعلم ما الذي حدث لأخته، هذا أمر غير مبتذل بالنسبة، وهذا ما كان يسعى مصطفى لمعرفته بالسؤال، تحديد منهجية عقل مازن.. عن طريق

ردةِ فِعله..

انتهت عبير من الحديث وهي متلاحقة الأنفاس، وقد ظلت تردد في عقلها: سوف أتحدث دون أن أُقيِّم نفسي، لن أتوتَّر، سأكون واثقة كمياه النهر..

كانت كل العيون تحدق بها، ثم نزلت بعينيها لتجد بسمة على شفاهم، وهز تشابلن رأسه بفخر في حين أومأت لها أرابيلا بوقار، أما كاليجورا فقط صفَّق لها هاتفًا: غادة الكاميليا الفيلسوفة الجميلة..

ضربته أرابيلا في كوعه ممازحة: أنا الجميلة ها هنا

- آسف يا ساحرتي لا تحوليني لضُفدَع..

أما آزورد فقد كان ينظر بصمت لعبير، فبادلته هي نظرة طويلة وقلبها يتأجج بين ضلوعها.. أرادت أن تقفز وتحتضنه مرة أخرى لكنها منعت نفسها، وغمغم تشابلن: إذن لم يكن سؤالًا سخيفًا بعد كل شيء، لقد كنا مخطئين وغادة الكاميليا كانت مُحقة.. لنستمع لباقي القصة..

هز مصطفى كتفيه وأجاب مازن: ربما هو سؤال سخيف، دَعْك منه..

نظر مازن بتمعُّن لمصطفى، هل هذا الطبيب أحمق؟ يسأله ثم يغير السؤال بطريقة متلعثمة ومرتبكة، لا يريد أن يفقد ثقته في هذا الرجل الذي يمثل له السلطة ووسيلة المساعدة الوحيدة في تلك اللحظة.. وغمغم مصطفى: أنا لست بمتكلمٍ لبِقٍ يا مازن، واسمح لي

برفع الكُلفة..

- لعلك تريد إنشاء رابطة ثقة وحميمية بيننا؛ ولذا تدعوني باسمي الأول.

- آاه هه.. أنت متشكك للغاية.. لكن كما قلت لك أنا لست بمتكلم لبق ولست بشخص اجتماعي.. لكني..

وتغيرت نبرة صوت مصطفى وهو يضيف بثقة دون تلعثم: لكني بارع في التحليل والاستنتاج، والتشخيص، وأمتلك رخصة للتنويم المغناطيسي وخبرة به كذلك.. أنا لست كما أبدو يا مازن.. دعني أساعدك.. لا تفقد ثقتك بي.. اِحْكِ لي كل شيء.. ودعنا نحاول - معًا - معرفة ما الذي حدث لأسرتك في ليلة رأس السنة.. أخبرني عن رنا وخطيبها.. عادل.. أخبرني عن شيرين زوجة مراد.. والدك.. أخبرني بكل شيء..

أخذ مازن نفسًا عميقًا، وانطلق قطار ذكرياته مُطلقًا وابلًا من الفحم، إلى تلك الليلة المشئومة..

الليلة التي زارته بها شياطين جهنم أجمعين، وبدأ يحكي..

الفصل الثالث

- أشعر وكأن شياطين جهنم كلها ستزوروني..

ابتسمت رنا وهي تقف في المطبخ، وتضع المِلح داخل إناء الماء المغلي دون أن تنظر لمازن الواقف وراءها قبل أن تقول: ربما عليك أن تكون شاعرًا، تعبيراتك مُبالغ فيها للغاية.

كاد مازن أن يقول إنه لا يمزح، وإن هناك شعورًا مقبضًا يسْرِي داخل قفصِه الصدري لكنه اكتفى بهزِّ كتفيه، اليوم هو عيد ميلادها ولا داعٍ للسوداوية والتشاؤم، تنحنح مازن قبل أن يقول: آه رنا.

- أنت تشتتني وهذا سيفسد حلةَ المحشي التي تُطالب بها طيلة الشهر.

- كلّا كلّا، سأنتظر حتى تنتهي وأسألك عما أريد معرفته.

هزت رنا رأسه قبل أن تُغمغم: الرجالُ يضعون دومًا مَعِدتهم في المقام الأول.

- ألا ترين أن حديثنا هذا مُفتعل؟

التفتت إليه رنا فاستطرد بلهجة ودود: أعني.. أنتي تعلمين ما الذي أعنيه؟ مكرر؟ كأننا في مشهد لمسلسل تلفزيوني لن يتابعه أحد أبدًا؛ أخ وأخته يقفان في المطبخ يتمازحان بشأن المحشي وطبيعة الرجال..

فكرت رنا قليلًا قبل أن تمط شفتيها بلامبالاة وتقول مفكرة بصوتٍ

عالٍ: أو ربما تلك طبيعة الأمور.

- ربما.

انتهت رنا من وضع الأرز داخل الإناء قبل أن تلتفت صوبَ مازن بعد أن أحكمت غلق الحلة وقالت: ما بك؟

- أردت أن أسألك..

- عن عادل؟ تريد أن تسألني للمرة العاشرة عما يعجبني بشأن هذا المجنون؟

- رنا أنا حقًّا أعتقد أنه خطر، هو ليس بشخص سويٍّ..

" كلَّا كلَّا.. . هذا حديث ممل للغاية "

صاح كاليجورا بالعبارة في سأم وهو يصيح مردفًا: أخ وأخته في المطبخ يتحدّثان عن " المحشي " وخطيب الأخت!! من المفترض أننا بصدد قضية غامضة ومشوقة ولا يوجد داعٍ لكل تلك الدراما الاجتماعية..

وافقه تشابلن بإيماءة من رأسه يشوبُها استنكار لما يرونه عبر البلورة السحرية في حين ظل آزورد محايدًا ولم تعلق أرابيلا، أما عبير فقالت بتأنٍّ: الحقيقة لقد كنت مستمتعة بالمشهد، به أُلفة وجوٌّ منزلي حميمي، كما أننا كنا على وشك التعرف على مازن ورنا وطباعهم من خلال حديثهم..

- كما قلت للتوِّ من المفترض أننا أمام قضية صادمة ومخيفة ولسنا نتابع مسلسل "ليالي الحلمية" ..

- الصبر يا كاليجورا.. لننتظر ونرَ..

كانت تلك مرة عبير الأولى في مناداة المهرج باسمه، وشعَرت بقليل من التوتر سرعان ما حلَّ بعيدًا عندما بادلها المهرج الحديث دون أن يبالي بتلك النقطة.. وهنا في تلك اللحظة العابرة شعَرت عبير بألفة تامة مع رِفاقها..

هزت أرابيلا رأسها قبل أن تقول: لنحاول أن ننتقل لجزء مثير، كاليجورا مُحق.. لا يوجد شيء مثير للاهتمام بشأن اثنين يتحدثان في المطبخ، نحن نعلم بالفعل أنهما يشاكسون بعضهما في مرح وفكاهة، وأن بينهما تفاهمًا، وأن مازن لا يحب خطيب رنا.. لا يجب أن نضيع وقتًا..

- ولكن التفاصيل مهمة، كما أن مازن كان على وشك توضيح أسبابه للظن بأن عادل شخص خطر..

زفرة قوية ثم " حسنًا لنتابع "

***

كان مازن يلوِّح بيديه محاولًا إقناع رنا وهو يقول: أنا لا أعلم متى ولا أين قابلتي عادل لكنه معتوه حقيقي يا رنا.. الرجل شديد النرجسية ويمتلك حبَّ التحكُّم، هو يعاملك كدُميةٍ وأنت تتصرفين كأنك تُحبين هذا، عندما يظهر تتحولين لشخصية أخرى بغيضة.. لا أعلم ما الذي يحدث لك بالضبط، لكنك تفقدين قوة شخصيتك وعنادك، وتصبحين خانعة وبلا شَغَف أو روح.. هل تُحبين كونه

خطرًا؟ هل يجذبك هذا إليه؟ هو لا يتحدَّث سوى عن نفسه وإنجازاته في الحياة.. هو يعتقد دومًا أنه مُحق.. أراهنك أنه يتسلَّى بتعذيب القطط في أوقات فراغه.. لأنه سادي كذلك، أتذكرين عندما كنا نشاهد فيلم " مذبحة منشار تسكاس "؟ أبي كان يشيح بوجهه وكذلك فعلت شيرين ولكن بالله عليك كان هناك استمتاع سادي على وجه عادل بينما الفتاة تنقسم لشطرين في الفيلم..

انتهى مازن من حديثه الذي تدرَّب عليه كثيرًا ولم يصدق أنه قاله أخيرًا لأخته، ظلت رنا تنظر إليه وتعبيرات وجهها تتغير أمامه؛ من حيرةٍ، لصدمةٍ، لاستنكارٍ لتفهُّم، ثم تعاطفٍ يليه جمود قبل أن تهمس الفتاة بعد تنهيدة: مازن عليك الكَف عن هوَسِك بعادل.. من المفترض أن تشاهد الفيلم معنا ولا تُراقب ردود أفعال عادل.. من المفترض أن تتبغط لي لأني قد وقعت في حب أحدهم أخيرًا..

ثم اقتربت رنا من مازن ووضعت كفَّها الرقيق على وجهه مردفة: مازن.. لن نستطيع أن نحيا طِيلة عمرنا بمعزلٍ عن الجميع..

دمعت عيناه ولم يتكلم، حرك شفتيه فحسب فأضافت رنا بصوتٍ متهدِّج: أنا في السابعة والعشرين من العمر، وأنت.. أيها الشقي.. قد أصبحت في الرابعة والعشرين.. لقد حان الوقت كي نختلط بالحياة وزحمتها يا أخي..

هز مازن رأسه وهو يقاوم الغُصَّة في حَلْقه محاولًا قول شيء ما دون فائدة، وأردفت رنا: ولا بأس من أن تشعر بقليل من الغيرة..

فتح مازن فمَه فسارعت هي بالقول: أنا أعلم أني كدت أُجن من

الغيرة عندما كنتَ أنت معجبًا بسميرة في المدرسة.. رغم أنك لم تتحدَّث معها والأمر لم يتخطَّ عتبات باب الإعجاب.. لكني كنت أكرهها بشدة وتخيلتها كثيرًا على هيئة ساحرة شريرة تلتهم قلوب الأطفال ليلًا..

***

"لماذا تنظرون إليّ هكذا؟ أنا لم ألتهِم قلوب أطفال.. منذ فترة طويلة على الأقل"

قالتها أرابيلا بشَممٍ وعادوا لمتابعة حديث رنا مع مازن.

***

انتهت رنا من حديثها ونظرت لمازن الذي استجمع قواه ونفض رأسه قبل أن يهتف بصوت مرهق: الأمر ليس متعلقًا باختلاطنا بالحياة.. كل ما قلتيه حقيقي لكن هذا لا ينفي حقيقة أن هناك شيئًا خطأً بخصوص عادل..

ثم أضاف مازن بصوت خافت ومرتبك: وأنا لا أشعر بالغيرة..

ابتسمت له رنا ولم تعلِّق، هنا لمح الفتى كتِف أحدهم وراء باب المطبخ فأشار لرنا بالصمت واضعًا أُصبعه على فمه وسار على أطراف أصابعه للباب، هنا تحرَّكت شيرين ودخلت المطبخ بابتسامة بريئة ومتصنعة وقالت: ها أنت ذا يا مازن.. همم رائحة المحشي جميلة للغاية.. أنتَ طاهٍ جيد يا مازن.. ليت أباك يتعلم منك..

صاحت رنا باشمئزاز: أنا اللي طهوت وليس مازن أيتها الشمطاء،

ولا تتظاهري بأنك لم تكوني تتنصتين علينا للتوِّ.

حافظت شيرين على ابتسامتها ولم ترد فخرجت رنا من المطبخ مسرعة وهي تصيح: لشدة ما أكرهك..

نظر مازن لحيثما خرجت رنا ثم أدار بصره لشيرين في توتر وهو يتصبَّب عرقًا قبل أن يقول: عذرًا.. عذرًا..

وخرج في عجالة، التفتت شيرين وتابعته بناظرها حتى خرج ثم كفَّت عن الابتسام..

ومن خلفها ظهرت سيارة مراد، التي ركنها أمام البيت ثم ترجَّل من السيارة واضعًا يده في جيب مِعطفه، وأخذ الكهل نفسًا عميقًا وهو ينظر " للفيلا " ذات الطابقين في الحي الفاخر بالتجمع، وشعر بالفخر، وهو يسترجع في ذهنه مقتطفات من حياته؛ شقتهم الإيجار القديم بوسط البلد مع والدة مازن رحمها الله، وعمله كرجل عصامي لا يتوقف أبدًا عن التخطيط، تذكَّر سخرية زملائه منه.. " لا أحد يستطيع امتلاك فيلّا في التجمع يا مراد، ارحم نفسك من تلك الفكرة ".. لكنه كان يؤمن - كعادته - أنه قادر على تخطيط وتحقيق أي هدف بالمثابرة وعدم الاستماع لكلام المحبِطين من حوله، يتذكر شجاره مع مازن عندما أخبره بخطتهم للانتقال للتجمع، لم يتوقع أبدًا رفض ابنه للفكرة..

" مازن والدك استطاع امتلاك فيلا بالتقسيط من مستثمر أجنبي أعلن إفلاسه، وهذا أمر لن يتكرر أبدًا "

تجنب مراد استخدام كلمة مثل " فرصة " واستبدلها بـ " أمر " لأن

كبرياءه لم يكن ليسمح له أبدًا بالإقرار بأنه استغل فرصة. الحقيقة أن نجيب محفوظ لو رأى مراد لهزَّ رأسه وقال: نموذج مثالي لازدواجية الرجل الصارم في البيت، والمحب للرذيلة خارج البيت..

مراد رجل عصامي جدًّا، وقد بدأ في بِناية ثروته من سرقة معاشات الأرامل والأيتام، لم يكن هناك استغلال على مدى واسع كما يفعل " عتاولة " تلك المهنة، مراد لم يكن يخاطر بحياته أو على الأقل بأصابع يده التي سمع أنهم يقطعوها عندما يحاول أحدهم منافستهم، كلَّا، مجرد تزوير في الأوراق الخاصة بالتأمينات مع صفقة جارية مع مندوب توصيل المعاشات، كانت مهنة آمنة نسبيًا بالنسبة له طالما تحدُث في محافظات متفرقة وعلى فترات متباينه، دعكَ من أنه يخاف بشدة من فكرة دخول السجن، وهذا كان دومًا يزيد من حرصه، كان هذا طبعًا قبل أن يُغير نشاطة مثل أي رجل أعمال متفانٍ ونشطٍ، ويقرر أن يواكب العصر الإلكتروني، وأصبح نشاطه التجاري الجديد هو التسويق لفتيات " الإنستجرام " المراهقات وهن يجنين المال من مقاطع رقص ومحادثات إلكترونية ويحصل هو على عمولته، نشاط إلكتروني أنيق لا مخاطرة به، ولم يعد هناك حاجة إليه ..

ذات مرة قالت له إحدى الفتيات: لن أفهمكم أبدًا معشر الرجال تدفعون أطنان المال من أجل صورة أعرض بها كتفي فحسب..

ابتسم ولم يرد، لم يكن مراد يبتسم في منزله، وبالتأكيد لم يكن يبتسم مع مازن، لم يرَ الفتى من أبيه سوى الوجه الصارم المُعْتد بنفسه، ولطالما قام مراد بضرب ابنه وهو صغير، لكن زوجته الراحلة

كانت تنافسه في هذا الأمر، حتى بعد يوم عودته للمنزل ذات مرة بشقتهم القديمة بوسط البلد ليجد مازن يمص أصبعه مصدومًا وهو يحدِّق بالفراغ والدموع الجافة على وجنتيه بعد رحيل والدته - وهذا مشهد كفيل بإذابة قلب أعتى الرجال - ظل مراد مكفهر الوجه ومتصلبًا ولم يُبد أي عاطفة..

أغلق مراد باب سيارته، ثم سار بوقار صوب فيلَّته الجميلة، هو رجل أعمال ومستثمر صارم وجاد في أعين الجميع، وقوَّاد مُحترف في الآن ذاته..

عادت إليه مرة أخرى بقايا ذِكرى شِجاره مع ابنه يوم إخبارِه بنيته لترك شقة وسط البلد.. صاح مازن حينئذ: تلك الشقة هي بيتنا وهي تحمل ذِكْرى أمي..

قالها الفتى بعين دامعة، واندهش مراد، ابنه لم يعارضه من قبل، ليس حتى عندما أخبره بنيته للزواج مرة أخرى.. فكَّر في أن يصفع الفتى، لكنه استوعب أن ابنه يعاني الكثير بالفعل بعد وفاة والدته، فصمت مراد ونظر لمازن في صمت.. بكى الأخير ورحل مسرعًا، وعندما استيقظ مراد ليلًا ليجرع بعض المياه وجد ابنه يحتضن جدران الشقة ويهمس: سوف أفتقدك.

لم يتأثر مراد وغمغم بسخرية: يا له من مراهق عاطفي مخبول..

ثم عاد لغرفته..

وارتمى بين أحضان شيرين..

شيرين التي كانت تفكّر وهي تحتضن زوجها في صفقة العمر التي أتمتها..

شيرين التي لم تكن تفكّر في زوجها السابق.. .

ولا زوج والدتها الذي أحال حياتها جحيمًا منذ طفولتها..

لم تفكر في حياتها بالخليج ولا مرحلة إدمانها..

لم تفكر في معاناتها بعدما أدركت أن حبيبها يستغلها وهي طالبة جامعية..

لم تفكر في لحظة هروبها من البيت للمرة الأولى ولا عملها بموقع " إنستجرام " في شبكة مراد الإلكترونية..

كانوا يلقبونها بـ " قطة منتصف الليل " لأنها تمتلك مهارة إبقائك مستيقظًا طِيلة الليل..

لم تفكر شيرين في أي من هذا..

هي تتعافى الآن، بعد أن قررت أن تكون أقوى وتستمتع بحياتها..

أما عن صفقة العمر فقد كانت بسيطة للغاية، لقد أحبها مراد، لم توقعه هي في غرامها ولم ترمِ شباكها، كلا، لقد تطوع هو بالافتتان بها، ربما كانت بداية الإعجاب عندما سألته هي عن منطق الرجال في دفع الأموال الباهظة مقابل رؤية جزء من كتفها فحسب، وفيما يبدو أنه قرر أن يجيب سؤالَها بالفِعل، وفي النهاية تزوجها، ولأنها تفهم طبيعة الرجال جيدًا، فقد كانت تعلم أن علاقتها مع مراد ستعتمد على جمالها وإبقائه طفلًا متعطشًا دومًا للمزيد كي لا يمَلَّ..

وليلة زواجهما نظر إليها مراد بحزم وقال بجدية وهو يلوح بأصبعه بينما هي ترقد أمامه فوق الفراش: أنت ملكي الآن يا شيرين، زوجتي وتحملي اسمي.. لا يوجد شيء اسمه الماضي.. أنت الآن امرأة جديدة..

كانت تستعد نفسيًا لخُطبة من الهراء يُرضي بها كبرياءه لكنها تظاهرت بالإنصات الجاد وهزت رأسها مبهوته قبل أن تقترب منه في تردُّد مصطنع كأنها تريد احتضانه وتنتظر إذنه، هز رأسه لها في رضًا فاحتضنته وأغمضت عينيها مفكرة لنفسها: صفقة العمر..

هي ستُرضي كبرياءه الأحمق وسيصبح هو طول يديها، هي تعلم أنها زيجة ثانية، ولن يكتُبَ لها مالًا وبالتأكيد لن يُنجب منها، هي وسيلة للمرح والسعادة بالنسبه إليه، كما أنها جميلة وهذا سيضيف لصورته الاجتماعيه التي يحب التباهي بها، خصوصًا أن لا أحد يعلم حقيقة هويتها السابقة كقطة منتصف الليل لأنها اعتادت ارتداء قناع جلدي لوجه قطه، نعم، بالتأكيد صفقة العمر، هي حرَم مراد باشا و..

***

بامتعاض وأسًى قال كاليجاري أو كاليجورا: ليالي الحلمية.

- انتظر يا رجل، هناك جريمة مُرعبة قادمة..

- أنا قلِق بشأن المشهد التالي، ماذا لو رأينا صراعًا على الميراث و..

- انتظر يا كاليجاري.

صمت المهرج وتابعوا هم مشاهدة البلورة السحرية.

***

تتابع شيرين أفكارها، هي حرم مراد باشا، وقد تغيرت حياتها للأبد..

هي تفكر أحيانًا أن تسأله عما يوجد في الغرفة العلوية بالطابق الثاني من الفيلا، تلك الغرفة المغلقة بباب حديدي وعدة أقفال كل مفاتحيها مع مراد، تلك الغرفة الممنوع دخولها، أثار الأمر فضولها في البدء لكن العقلانية تمكّنت منها، لا داع للفضول يا شيرين.. كذا قالت العقلانية لها.. أنت تعلمين جيدًا أن هناك الكثير من الأسرار المخفية في تلك العائلة.. لكن هناك الكثير من الأموال كذلك..

***

بخبث قال آزورد: هل ارتضيت الآن يا كاليجورا؟ غرفة مغلقة وغامضة بها سر ما..

مطّ كاليجورا شفتيه كطفل يتظاهر بعدم الرضا، بينما قالت أرابيلا بصوت حالم وهي تعدل من طرف أنفها الذي كاد أن يسقط: تذكّرني مسألة الغرفة تلك بقصة زوجة "ذو اللحية الزرقاء"، في قديم الأزل، بتلك القرية في الشمال، اشتهر رجل قصير القامة شديد الثراء بلحيته الزرقاء الطويلة، وقد تزوج أجمل فتاة في القرية، والحقيقة أنها تزوجته من أجل أمواله مثل شيرين، وانتقلت من كوخها الوضيع لقصره المَهيب؛ قصر كبير وجميل به مائة غرفة، وقال لها "ذو اللحية الزرقاء" في ليلة زواجهما: أنت صاحبة القصر الآن، كل شيء به ملكك عدا الغرفة الأخيرة، الغرفة رقم مائة، محرَّم عليك دخولها..

هنا تتحول حياة الزوجة لجحيم بسبب فضول الأنثى، لم يعد القصر مهم ولا كل الأموال، ونسيت أمر التسع وتسعين غرفة، أصبح شاغل همها هو معرفة ما الذي يوجد خلف الباب المغلق للغرفة رقم مائة، لم تتمكن منها العقلانية مثلما حدث مع شيرين، وبينما "ذو اللحية الزرقاء" يمارس أعماله، ذهبت الزوجة وفتحت الغرفة المغلقة، فماذا رأت؟ وماذا وجدت؟ بداخل الغرفة تستقر كل الرءوس المقطوعة لزوجات "ذو اللحية الزرقاء" من قبلها، رءوس مقطوعة فاغرة الأفواه بصرخة صامته، وهناك شموع تضيء تجويف أعينهم، تتراجع الزوجة للخلف في رعب لتجد "ذو اللحية الزرقاء" يقف جوارها ويده تحسس مقبض سيفه داخل غمده وهو يقول: كنت أعتقد أنك مختلفة، لكنك مثلهن، تريدين المعرفة، ومثلهن سوف تدفعين الثمن..

هز تشابلن رأسه وشَهِق كاليجورا بشكل تمثيلي واضعًا يديه على وجهه قبل أن يصيح: آه تلك قصة جيدة بحق، غموض ومفاجأة مرعبة في النهاية، نعم نعم تلك قصة جيدة..

أما آزورد فقد كان ينظر لوجه عبير الممتقِع إثر القصة الكابوسية وابتسم لها مطمئنًا عندما تلاقت أعينهما..

- والآن.. لنعد لحكاية مازن..

قالها تشابلن بتؤدة وعادوا جميعًا إلى النظر للبلورة..

***

كانت شيرين تقف في المطبخ عندما دخل مراد وهو يشعر بالفخر لامتلاكه تلك الفيلا الجميلة.. وهرعت لتحتضنه وتقبِّله مرحِّبة

بعودته وهي تتمنى أن يرى مازن تلك القُبلة لتثير حنقه، ربما هي الفتاة اللعوب بداخلها، تلك المراهقة لم تزوِ بعيدًا، وهي تعلم جيدًا أن مازن معجب بجمالها، وهي تستمتع بإثارة حفيظتِه بتلك الطريقة.. هنا لمحت شيرين بطرف عينها مازن يجلس القرفصاء أعلى سُلم الطابق الثاني ويختلس النظر إليهما فاحتضنت مراد مرة أخرى..

***

تبادل مازن نظرة طويلة مع رنا قبل أن تهمس الأخيرة وهي تنظر معه لشيرين: يا لها من حقيرة..

هز مازن كتفيه بوجهٍ شاحب ولم يرد بالطريقة التي تُميزها رنا، فعقدت حاجبيها ونظرت إليه بتشكك للحظة كأنه طفل قد ارتكب شيئًا فادحًا ثم هتفت: أيها الوغد الزاني.

وضربته في كتِفه بوجهٍ محمر وهي تصيح: أنت معجب بها أليس كذلك؟

حمى مازن وجهه بكفيه وهو يصيح: كفَى كفى يا رنا أرجوك.. أنا آسف.

وظل يردد الكلمة الأخيرة باكيًا وهو يحاول الارتماء في حِضن أخته، وتذكر مازن جملة ما اعتادت أمه أن تقولها له..

جملة بسيطة.. تحذير من نوع مختلف..

اعتادت والدته أن تقول له إنهم " سيعضون مؤخرته ".. كانت تقولها كنوع من العقاب، الذي سيتعرض له مازن لو ارتكب شيئًا

خاطئًا، لم يفهم الفتى من هم الذين سيعضون مؤخرته وعن كيفية تمكُّنهم من فعل هذا ونوعية أسنانهم، لكن عض المؤخرة أصبح بديلًا لغرفة الفئران بالنسبة للفتى، مرت الأعوام وبعدما بلغ مازن العشرين من العمر أدرك أن تهديد والدته لم يكن مجازًا، ولا كنايه به، البشر يعضون مؤخرات بعضهم طِيلة الوقت، يتخيل نفسه في وظيفة ما، ينحني أمام مكتب مديره والأخير يكشف عن أسنانه وهو يقترب منه قائلًا: لقد أخطأت بعدم إرسالك للتقرير في ميعاده، لقد كان هذا خطأ فادح، وجزاؤه خمسة عضات..

الشخص الوحيد الذي لا يعض المؤخرات هو رنا، كأنها ليست بشر، ولم يكن مازن مستعدًا لإغضابها، مجرد فكرة أنه قد أثار حفيظتها أو سبب لها حزنًا جعلته يكره نفسه؛ لذا ظل يحاول أن يحتضنها وهي تضربه بجنون وغضب، هو يعلم جيدًا مدى كرهها لشيرين التي حلَّت مكان والدتها، ويعلم أنها تكره والده كذلك، على خلافها لم يكن مازن يكره مراد، هو فقط لا يكترث لأمره.. مراد رجل غير مهم ولا موضع له على الخارطة بالنسبة لمازن..

- وغد شهواني.

هوت صفعة من رنا على وجهه، تلقَّاها دون أن يحاول حماية وجهه ثم ارتمى في حِضنها ودفن رأسه في صدرها وهو يبكي، وتحولت عصبيتها لبكاء بدورها وهي تحتضنه، بينما مازن يردد: ما الذي سأفعله عندما تتزوجي عادل وترحلي عن هنا؟ ما الذي سأفعله؟ سأكون وحيدًا كالأبالسة.. سأكون وحيدًا يا رنا أرجوك لا تتركيني.. يا إلهي أشعر أن شياطين الأرض كلها ستزورني بعد رحيلك يا رنا..

***

بعدها حل المساء سريعًا..

مازن يجلس على مائدة العشاء، رنا جواره.. وأمامهما شيرين وهي ترتدي فستانَ سهرةٍ أسودَ، ومراد مرتديًا حلَّةً سوداء أنيقة..

غمغمت رنا بصوت لم يسمعه سوى مازن: العاهرة والقواد..

كتم مازن ضحكته ونظرت له شيرين بتساؤلٍ، عندما رن جرس الباب، واحتقنت شتى المشاعر بداخل مازن، وهو يعلم هوية القادم مسبقًا، في حين قامت رنا مسرعة وفتحت الباب لتُدخل عادل ...

قاوم مازن الارتجافه المنذرة بإعصار بين طيات نفسه، قاوم فكرة أن يغرز سكين الطعام في عنق عادل..

دخل خطيب أخته السمج بابتسامة واثقة وجلس معهم على المنضدة دون حتى أن يبادلهم التحية..

***

هنا تنحنح مصطفى وابتسم قبل أن يقول: لقد دخل وانضم لكم على العشاء دون حتى أن يبادلكم التحية؟ أليس هذا أمرًا غريبًا؟

لم يرد مازن، كان مرهقًا من كثرة الحديث، رغم أن مصطفى لا يستطيع رؤية وجهه من خلف القماش الطبي لكنه للإرهاق وسائل عدة في الإعلان عن وجوده ومنها نبرة الصوت.. في النهاية رد مازن قائلًا: تلك كانت طريقة عادل في التعبير عن نرجسيته.

- لكن.. آه يا مازن.. المرء لا يعبِّر عن نرجسيته، الحقيقة أن النرجسي لا يُدرك حتى حقيقه أنه نرجسي..

- كلام علم النفس كله نظريات أليس كذلك؟ وليس حقائق علمية.. الفارق بين المعرفة والحقيقة أن الحقيقة مطلقة بينما المعارف نظرية قد تكون حقيقة بنسبة تسعين بالمائة فحسب..

- فلسفتك تلك تهدم علم التحليل النفسي.

- هذا هو رأيي أيها الطبيب، على أي حال، عادل مُعتَد وواثق من نفسه ولذا.. بلا وعي

تعمَّد مازن أن ينطق الكلمة الأخيرة بسخرية وهو يمد حروفها ثم أردف: ولذا بلا وعي فهو يتصرف كأنه يمتلك أي مكان يدخله بثقة مبالغة بها، هل هذا مناسب أكثر لنظرياتك النفسية؟

ابتسم مصطفى في تكلُّف، وسمع صوتًا بداخله يهمس في أذنه: لا تدعه يجادلك ويدخلك في مبارزة تَباهٍ خاصة بالأنا، فقط جارِه وكن مرنًا..

هز مصطفى رأسه، هذا صوت تشابلن في الأغلب، هو أكثرهم هدوءًا، هنا سمع مصطفى تعليقًا من كاليجورا: وربما هو مُحق، كلامه منطقي..

هز مصطفى رأسه بعُنف تلك المرة ثم قال لمازن: أنا لست عدوك، ولا أبغي تحديك، أنا موجود هنا للكشف عن حقيقة ما حدَث..

فكر مازن قليلًا وانتابته القليل من ظاهرة " الديجافو " شاعرًا بأنه

قد مرَّ بهذا الموقف من قبل مع الطبيب، ثم هز رأسه وتابع الحكي.

***

مدَّ عادل يده وتناول قطعة من اللحم المشوي والتهمها بطريقة بدائية ومُقززة دون استخدام أي مِن أدوات الطعام، نظر له مازن بدهشة ثم التفت صَوْب رنا ليجدها تنظر لخطيبها بافتتان فزفر وظل صامتًا، غمغم مراد بشيء ما لم يتبينه مازن عن الاحتفال، فأضافت شيرين: إنها فكرة رائعة أليس كذلك؟ حفل خيري لدعم تلك القضية المهمة التي تمس جوهر مجتمعنا..

مطَّ مازن شفتيه، والده يُقيم تلك الحفلات الاجتماعية ليدعوا قومًا أثرياء ينافقون بعضهم البعض، وقد سَئِم هو هذا الجو الزائف، أحيانًا يشعر أنه يلعب دورًا في مسلسل سخيف، وربما يأتي له والده يومًا ما ليقول له: كل هذا سيصبح ملكك..

كاد مازن أن يضحك باستهزاء لكن رنا - التي تفهمه دومًا قبل نفسه - نكزته من أسفل المنضدة لكي يظل صامتًا..

هنا قال عادل: غدًا سوف أقدم تقريرًا بخصوص أطفال الشوارع.

ابتسمت رنا وصفَّقت بيدها بشكل أخرق قبل أن تقول: رائع يا حبيبي..

لماذا تصفِّق بتلك الطريقة الحمقاء؟ تساءل مازن، هو يثق بأن عادل لا يهتم بتاتًا بشأن أطفال الشوارع، ويعلم أن الأخير يعمل كإعلامي ومذيع في التلفاز؛ لأنه يحب سماع نفسه وهو يتكلم فحسب، طبعًا

بالنسبة لوالده فإن صفقة الزواج بين رنا وعادل حتمية للغاية، إعلامي محبوب من الجميع وذو جماهرية، وثري.. تلك كانت ضربة حظ بالنسبة لرنا الرومانسية والتي كان والدها ليرفض أي عاشق آخر تختاره هي للزواج حسبما ظن مازن، كان التلفاز يعمل في الخلفية وهم جالسون يتناولون العشاء، وبالنسبة لمراد فهذا أمر غير لائق لكن مازن تركه متعمدًا، كانت هناك مغنية شابة ذات شعر قصير، لن تحقق جماهيرية كبيرة تلك الفتاة لكنها ستحصل على متابعين مخلصين لها من يشبهونها في الشخصية والطباع، كانت نحيفة وجذابة ولا بد أنها جلست في مقاهي وسط البلد ودخَّنت التَّبغ وهامت بين حواري المدينة لاستكشاف روحها المتمردة والمختلفة، مازن يفهم جيدًا من هُم مثلها، رغم عدم امتلاكه لجرأتها، لكنه يفهم جيدًا؛ لأنه مثلها في نهاية المطاف، هو فقط يفضل الهروب لأنه سلبي وجبان.. تنهَّد مازن وفكر: لا تجلد ذاتك الآن.

لكنه كان يعلم جيدًا ما يفعله، هو يسترسل داخل أفكاره الخاصة لكي يهرب من احتمالية الحديث معهم وهم جالسون حول المائدة، كل منهم يتحدث ليثبت وجوده فحسب ويعبر عن الأنا الخاصة به، يتحدثون ليرضوا كبرياءهم، وهذا يجعله يشعر بالتوتر، سترتكز كل الأعين عليه عندما يتحدَّث، لينتظروا ما الذي سيقوله.. كلّا، ليظل صامتًا، هو ليس بحاجة لهُرائهم..

هنا لدهشته، بعدما انتهى العشاء، رقص عادل مع رنا على أنغام موسيقى كلاسيكية، شعر مازن بغضب عارم وهو يرى يدي عادل على خاصر وكتف أُخته التي أراحت رأسها على صدر الوغد، نظر

مازن لوالده في استنكار، وبرجاء في نفس الوقت، ولسان حاله يقول: " افعل شيئًا يا أبي، اعترِض، والدتي كانت ستعترض لو كانت هنا "..

لكن والده كان يتحدث مع شيرين ولم يُبدِ له أنه قد لاحظ ما يحدث..

الغضب.. هذا الشعور المقيت.. الحليف الجهنمي للجنون.. لقد سرَى الغضب في جسد مازن وشعر بأن عادل ينظر له كل حين وآخر ليستفزه، عادل دومًا ينظر لمازن على أنه نكره، غير موجود، غير حقيقي ولا شأن له، ولشدة ما يبغض مازن هذا.. والآن ينظر له نظرة من طراز " أختك مِلكي يا وضِيع يا سافل"

الشيء الأسوء من إهانة أحدهم لك هو اعتبارهم بأنك غير موجود..

احمرَّ وجه مازن وهو جالس مكانه وبدا أن شيرين قد لاحظت ما يطرأ له فأعطته نظرة بها قلق عندما وصل ضيوف الحفل واستقبلهم مراد بابتسامة مرحِّبًا ولم ينسَ ارتداء معطف أنيقٍ وباهظ الثمن فوق حلته، ووقفت شيرين بجسدها الفاتن وفستانها الجذاب لترحِّب بضيوف منزلها، نعم هذا هو بيتها، كذا فكر مازن، هي الملكة هنا، هي أمي الجديدة.. هي قد أخذت كل شيء، هي وهذا الوغد.. نظر مازن بطرف عينه لعادل الذي استمر بالرقص مع رنا..

قام بعض من الضيوف بتحية مازن الشارد.. وتزاحموا مِن حوله، وظلوا يتبادلون أحاديثهم الخرقاء، لشدة ما أراد مازن في أن يصرخ

بتلك اللحظة.. يقف ليرقص عاريًا وهو يغني: منافقون.. منافقووون وحمقى.. كلكم غير حقيقيين..

ثم فكر مازن فجأه، ماذا لو أنه المبتذل؟ طريقة تفكيره تلك وتقييمه لكل هؤلاء الضيوف؟ ربما هم يحبون ما يفعلونه ويستمتعون بوقتهم، ربما هو صاحب المشكلة هنا.. دار عقله من الفكرة، فرفع يده ووضعها على رأسه في ألمٍ، ثم لمح شيرين تنظر إليه.. قبل أن تبتسم..

***

تبادل كاليجورا نظرة باسمة مع أرابيلا وواصلوا النظر للبلورة في حين فكرت عبير بصوت عالٍ: عندما تخيل مازن أنه سيصرخ في الضيوف ويرقص عاريًا، نحن تلك الخيالات العجيبة أليس كذلك؟ الأشياء التي لا يجرؤ البشر على الاعتراف بها..

ربّت آزورد على يدِها مطمئنًا وابتسمت هي له ثم نظروا للبلورة..

***

حل الليل ورحل الضيوف، نظر مازن لرنا وهي تصعَد لغرفتها وتنهَّد ثم ذهب لغرفته مفكرًا: ستصعد الحمقاء لتبادل الرسائل مع السافل المريض عادل..

جلس مراد في مكتبه وهو يتبادل حديثًا هامسًا مع شيرين، والدي وزوجته الشريرة، يا له من وصف طفولي، شرِّيرة.. لكني لا أجد وصفًا آخر مناسبًا لها، كذا فكّر مازن وهو يصعد الدّرَج للطابق الثاني،

دخل غرفته وارتمى على فراشه مرهقًا..

***

- أكمل ما الذي حدث بعد ذلك؟

ألقى مصطفى بالسؤال وهو يتفحّص مازن جيدًا وبتمعُّن، رغم اختفاء وجه الأخير لكن مصطفى ميَّز نبرة الخوف في صوت الفتى المرتجف..

- لا أريد أن أحكي هذا الجزء.

- مازن أنت بدأت بجملة " أشعر وكأن شياطين العالم كلها ستزورني ".. ما الذي حدث تلك الليلة؟ لماذا قصصت عليّ تفاصيل هذا اليوم؟ لا بد أنه له علاقه بليلة رأس السنة.. أنت تمهد في حديثك لشيء ما والآن أخبرني..

مال مصطفى للأمام وهو ينتقي كلماته بعنايه مُرْدفًا: أخبرني بالحكاية كلها..

رفع مازن يده على وجهه قبل أن يلوِّح بها بغضبٍ وسعَل قبل أن يهتف: أشعر بالحكاك، ولا أستطيع حتى ملامسة وجهي.. ما الذي حدث لي؟ لماذا تحيطون وجهي بالقماش الطبي؟

ظل مصطفى صامتًا ونظر له.

- تبًّا لاتفاقنا أخبرني الآن.

-.. .. ..

- أجِبني بالله عليك.

- ما تقوم به يا مازن لهو آلية دفاعية أنت تداري خوفك بالهجوم والعصبية، أخبرني بما حدث تلك الليلة..

- حسنًا يا دكتور، أتريد أن تعرف أي هول تعرضت له تلك الليلة؟ لقد عادت نوبات الفزع الليلي، وشلل النوم، لقد رأيته يدخل غرفتي وأنا لا أستطيع الحراك وواهن ويعتلي جسدي قبل أن ينام على صدري

- رأيت مَن؟

- الجاثوم.. . يا د.مصطفى..

***

- الفتى مخبول، يتَّهم عادل والآن الجاثوم.

- تشابلن لا تكن متعجلًا بالحُكم هكذا، هو لم يتهم الجاثوم بشيء، أقواله تؤكد أن عادل هو من قتَل عائلته.. هو يحكي فحسب ما حدث.

- لا أعلم.. الفتى مضطرب ومخبول.

- آه تلك الكلمة مرة ثانية، أليس جميعنا مخابيل هنا؟ لا تكن وقحًا.

- لا تكن حساسًا يا كاليجورا.

- لنصمت ونشاهد يا سادة.

- حسنًا يا ساحرتنا الجميلة.

***

ساد الظلام الغرفة..

هبت الرياح قوية وعاتية بالخارج..

غير مبالية بشيء من تُرَّهات البشر ولا أحلامهم..

وقف الغراب الأسود على حافة جِذْع الشجرة المطل على غرفة مازن الراقد في فراشه ومُنسل بين الأغطية..

تكاثفت السحب حول البدر في السماء المظلمة..

وأسفل نافذة مازن، في الركن البعيد من الشارع رفع قطٌّ أسود رأسه ولمعت عيناه..

انبعث بخار أبيض من فم مازن المستغرق في النوم..

على خلاف العادة لم ينتابه الأرق تلك الليلة وخلد للنوم دون صراع.. لقد احتواه فراشه وانتقل الفتى لعالم الأحلام..

للجدار الآخر من النوم..

ثم فتح مازن عينيه..

أراد أن يشهق لكنه لم يستطع..

هو ثقيل.. شيء يكبِّل حركته..

لقد فقد السيطرة على جسده..

لا يستطيع حتى الحديث..

كان مغطًّى بالكامل وكعادته أخفى رأسه أسفل الغطاء، لم يرَ سوى الظلام..

لكنه سمع حركة..

كلَّا، لم تكن خطوات ولا أقدام.. مجرد حركة..

وشعور مُضنٍ بوجود أحد معه في غرفته المظلمة..

رعب عارم يعتصر قلبه وغير مبرره، لقد استيقظ وهو خائف، كأنه قاطع نفسه في منتصف شيء ما يحدث عندما استعاد وعيه..

لماذا هو خائف لتلك الدرجة؟

ثم انسلت إليه أفكار الشيء في غرفته دون النطق بكلام، أفكار ماجنة، عابثة.. شيطانية..

كأن هذا الشيء يلوث عقله..

رأى وجه رنا مشوَّهًا..

رأى نفسه يقترب من شيرين وهي بوجه قرد..

وجد نفسه يدعو الله بأن تحدُث له المصائب..

حاول مازن أن ينتفض ويتخلص من تلك الأفكار..

لكنه مُتصلِّب الجسد، فاقد السيطرة تمامًا، لقد تمكَّن منه الوهن، هو حتى لا يستطيع تحريك أصبعه..

ألم عارم في صدره..

يا لمدى هول هذا الشعور.. شلل النوم..

بدأ يتلو سورة "الكهف" في عقله، فأتته أفكار الشيء في غرفته " لكنك ستنام بعدما تنتهي من التلاوه وحينئذ سوف أعود لك "..

كاد مازن أن يبكي من الرعب،، أي شيطان ليلي يزوره في لحظه الوهن تلك.. .

يحاول مازن تحريك جسده دون جدوى بينما الغراب يراقبه باهتمام من خلف النافذة..

" سوف أصرخ، أستغيث ولسوف يأتوا من أجلي "

" لن يأتي أحد من أجلك أيها اللقيط "

" زان "

" وحيد "

" بائس "

" منبوذ "

" ستموت "

" لا شيء له معنى "

يحاول مازن مقاومة تلك الأفكار التي تزيد من انقباضةِ قلبه..

ليته يستطيع الصراخ..

أو حتى الكلام..

هو بلا أي قدرة جسدية الآن..

هو مِلك الشيطان في غرفته..

العفريت..

" أنت لا شيء "

" حقير "

" لم لا تذهب وتعترف لزوجة أبيك بمشاعرك يا منبوذ "

" آهٍ آه يا مازن انظُر إليّ وأنا أضع أُصبعي في تجويف صدري وأنتزع قلبي قبل أن ألتهمه هاها "

يغمض مازن عينيه ويفتحهما، آه لقد بدأت في استعادة قدرته على الحركة، تنميلة رهيبة في أصابع يديه لكنه يقاومهم، حاول يا فتى حاول..

لا تكف عن المحاولة أبدًا..

لقد قرأ في بحثه على " الإنترنت " إن شلل النوم لا يستغرق سوى دقائق معدودة..

صرخ الشيطان في أذنه " ومن قال لك إن هذا شلل نوم يا زنديق ".

انتفض مازن وبكى..

"أنت سافل ووضِيع ولسوف يدفنوك حيًا على حالتك تلك".

" ستتعفن في تربتك ".

" ولسوف أكون معك في الكفن ".

" ارى الدود يخرج من أنفك ".

يهمس مازن: ر.. رنا

" صوتك ملكي ".

" أختك ملكي ولسوف أعبث بها طالما شئت".

" سأجعلها تنزف وأنا أمضغ لسانها ".

يرتجف مازن، ينتفض.

" هل أنت خائف الآن؟ دع الخوف يسري بأوصالك لحين وقوف قلبك عن الخفقان "

تقبض يد مازن على الغطاء ويزيله ببطء وهو يجاهد من أجل الحراك.. فيرى الشيطان..

يقف جوار فراشه وينظر إليه، هو نائم، رأسه عبارة عن جمرة من اللهب المشتعل..

يكاد قلب مازن أن يتوقف من الذعر..

يغمغم لنفسه: نوبات فزع ليس أكثر.. سأعتدل وأصرخ الآن وسيكون كل على.. . آه ما يرااااام.. اه.. يا إلهي، ابعد عنِّي.. ما الذي تفعله؟ ابعد عنِّي"

يرتفع الغطاء ويعود مرة أخرى فوق رأس مازن..

ويسمع خطوات الشيطان وهو يعدو تلك المرة ويقترب منه، يصعد فوقه ويكبِّل حركته تمامًا..

ويضغط على صدره..

" سألتَهِم قلبك "

ثم يقترب الجاثوم بوجهه من مازن فيرى تفاصيله بعدما خبَت جمرة اللهب، وجه قرد مُتحلل تمرح به الديدان وتتدلَّى منه أنياب فيل..

يعتدل مازن وهو يصرخ دون توقف، دون توقف..

تدخل رنا غرفته مسرعة وهي مجذوعة ثم تحتضنه ويحيط بجسده رداء نومها..

يغمض عينيه ويبكي.. بينما يقف والده وشيرين على عتبة باب غرفته..

ومن بعيد تحرك ظل الزائر الليلي مبتعدًا وعيناه الصفراوين كعيون القطط تتوهج في الظلام.

***

كان مازن يبكي وهو يحكي لمصطفى، وبعدما انتهى مدَّ الأخير يدَه في تردد ورهاب اجتماعي قبل أن يربت على كتف مازن في تردد..

***

رفعت أرابيلا ذراعيها لأعلى وصاحت مغمضة العينين بينما جسدها يتمايل يمينًا ويسارًا: الجاثوم.. سيد النوم.. تحيتنا لك.. كن عابرَ سبيل واتركنا لحالنا..

رغمًا عنه ظل كاليجورا صامتًا ولم يجد دُعابة ليقولها تلك المرة، ولاحظت عبير الوجوم على وجوه الجميع، هل تأثر مصطفى فانتقل هذا التأثير إليهم أم أنهم أصحاب إرادة حرة؟

لم تجد إجابة لسؤالها فأقنعت نفسها أن الإجابة هي الخيار الثاني..

في النهاية قال تشابلن كأنما ليؤكد قناعتها - أم أنه تردُّد خاص بمصطفى؟ -: الحقيقة أنها حكاية مقبضة، لكننا جميعًا نعرف أن هناك أساسًا علميًا لشلل النوم. ونوبات الفزع الليلية.

في شَمم صاحت أرابيلا: ألا تقتنعون أبدًا بخبايا المجهول؟ أي أساس علمي تقصده؟ ألم تروا آرخام وكثولو؟ ومخلوقات النسناس في جزيرة العرب؟ ألم تختفي عروس الإسكندرية في شارع دانيال في مطلع السبعينيات بعدما مزَّق جسدها ساكنو المقبرة المائية، ألم تحترق الطائرات في بارامودا؟ وتفتك العروسة الدمية بصاحبتها؟ ألَا زلتم تلجئون للأساس العلمي والقطرب يعوي؟ والشيء قَدِم من باخِرتِه ليتجسد بأشكال البشر؟ والروطاش يحيا بين ضباع المقابر ويفتك بأقرانه؟ وقصر سليمان يختبئ به الجَدي الأعظم؟ أي أساس علمي وقد فشل في تفسير زيارات الجاثوم؟ أي شلل نوم ونوبات فزع ليلية؟.. ويتجرءون على تلقيب الأمر بالظاهرة؟.. حسنًا إذن أيها العلماء، لماذا لا تفسرون تلك الظاهرة؟ لماذا يتعرض

كل سكان العالم إليها؟ دون تفسير على اختلاف ثقافتهم وأديانهم؟ منذ القرون الوسطى وهم يتحدثون عن الجاثوم، بل إن هناك رسامًا تجرأ على رسمه، ها.. ما هو سبب تلك الهلاوس المدعوة؟ لماذا كل تلك الهلاوس متشابهة على اختلاف البلدان والثقافة والأزمنة؟ ولا تتجرأ بالحديث عن الوعي الجمعي ليونج، قدم لي تفسيرًا منطقيًا للرائحة الكريهة الجميلة في غرفة النوم، وفقدان القدرة على الحركة، والاختناق.. هاها يقولون: إن شلل النوم ونوبات الفزع الليلي غير مؤذية وتستمر لدقائق، هذا لأن كل الذين هلكوا بسببها لم يظلوا ليحكوا ما حدث لهم..

انتهت أرابيلا من حديثها..

علا صدر عبير وهبط في انفعال.. ورغمًا عنها شعَرت بالخوف ثم حمِدت الله لوجود آزورد جوارها..

بسيفه العملاق هذا هو قادر على حمايتها من أي شيء، ليس كل يوم تجد فيه فتاة جميلة واهنة فارسًا مملوكيًا حارب عبر كل العصور جوارها ليحميها..

- حسنًا يا أرابيلا

قالها تشابلن بحزم وتابع: نظريتك قوية ولا يوجد لدينا رد الآن، لكن هناك احتمالات أخرى، ربما الفتى مصاب بالشيزوفرانيا وهو مصدر الهلاوس، أعني لنحاول أن نكفَّ عن التفكير بشلل النوم والجاثوم ونوبات الفزع وننظر بشكل شمولي للاحتمالات الأخرى، هناك أيضًا احتمالية بسيطة للغاية.

- ألا وهي؟

ابتسم كاليجورا وغمز لصديقه تشابلن قبل أن يقول: إن الفتى كاذبًا.

- أو إن هذا ليس بمازن خلف القناع القماشي..

قالها آزورد فنظروا إليه جميعًا بدهشة وهزوا رءوسهم مفكرين بتلك الاحتماليه..

تزايد التوتر داخل جسد عبير وهي تفكر بكل تلك الاحتمالات قبل أن تضيف في تردد: ربما هذا هو عادل وهو يتظاهر بكونه مازن..

نظروا إليها مفكرين وهم يقلبون الاحتماليه في ذهنهم..

ثم توالت نظرياتهم

- ربما مازن يتوهَّم الجاثوم بعد صدمة موتِ والدته أمام عينيه.

- ربما زوجة أبيه لا تزال حية وهي التي فعَلت كل هذا لترث أباه.

- قلت لكم إني أتوقع ذكر ميراث مع كل تلك الميلودراما.

- ربما مصطفى هو القاتل وتلك لعبة منه.

- سنشكُّ في أنفسنا الآن؟ ما هذا الخَبال..

واصلوا فرضياتهم ونظرت عبير بطرف عينها للرجل الجالس في الرُّكن المظلم، الشخصية الغامضة داخل عقل مصطفي، لماذا لا ينضم إليهم ليساعدهم في حل القضية؟.. انتبهت من أفكارها على صوت كالجاري وهو يقول: احتمالات عدة لكن لا تنسوا أن هناك جثثًا

أخرى تم اكتشافها في حفلة رأس السنة بخلاف والد مازن وزوجته.. الجيران الجدد..

- نعم.. الجيران الجدد

- أرسل برقية لمصطفى ليسأل الفتى عنهم.

ولمحت عبير شهوة خفيه وتلذذًا في عين كاليجورا، هو يتمنَّى أن يستحوذ هو على جسد مضيفهم ويتحكم به، أن يُجلس هو مازن ويسأله بنفسه، سرعان ما خبَا البريق وعاد كاليجورا مهرجًا لطيفًا ومطيعًا، وأرسل البرقية لمصطفى، وفكرت عبير: لو واتَت أحدهم الفرصة للحرية والخروج من تلك الغرفة للاستيلاء على جسد مصطفى سيفعلون هذا دون تردد، ربما أنا أيضًا، نحن محبوسون هنا بعد كل شيء..

- لقد وصلت البرقية لمصطفى في شكل خاطرة سريعة لكنه يعلم أنها منَّا.

- حسنًا لنشاهد ما الذي سيحدث الآن.

***

"طبيب مُصاب بتعدد الشخصيات"

***

نظر مصطفى لانعكاس وجهه في المرآة وغسل وجهه قبل أن يخرج من دورة المياه ويعود ليجلس قبالة مازن الذي قال ما كان يفكر به: هل ذهبت لتنتعش؟ تغسل وجهك بعد تلك الحكاية

المقبضة؟ هل نظرت لانعاكس وجهك في المرآه وتنهدت؟

ابتسم مصطفى وأومأ برأسه

- أنت ذكي ودقيق الملاحظة يا مازن، إن رؤية المرء لانعكاسه في المرآة لهو نوع من الإيقاف الزمني لكل الأحداث، لحظة اختلاء ابن آدم مع وَغيه

- وطالما أنا ذكي وقوي الملاحظة فلماذا إذن لا أتذكر ما الذي حدث؟

- سنتذكر معًا.

- دكتور.

- نعم.

- أنا خائف من الفكرة قليلًا لكن.. التنويم المغناطيسي.

قاطعه مصطفى: سيكون هذا آخر حلٍّ يا مازن.. والآن.. احكِ لي عن سيلين.

أجفل مازن بعينيه لثوانٍ وابتلع ريقه قبل أن يقول: هل حدث شيء لها؟

- أنت تحدثت عنها إبَّان هلوستك قبل أن تفيق، ذكرت أنها كانت مدعوة لحفلة رأس السنة..

- يا إلهي الرحيم.

- احكِ لي عنها.

- حسنًا، ما سأحكيه لك عن سيلين.. جارتنا المراهقة وعائلتها الذين انتقلوا للفيلا المجاورة، سيلين الرومانسية الجميلة، التي فقدت حاسة الإبصار، والتقيت بها وهي عمياء لأقع في غرامها، وضد كل الاحتمالات لم تغِزْ رنا منها، بل أحبتها كذلك.. لكن لو كنت تعتقد أن ما حكيته لك عن زيارة الجاثوم لي لهو شيء مخيف فعليك أن تعرف أن ما أنا موشك على حكيه الآن لهو أشد رعبًا.

هز مصطفى رأسه في تردد وضربات قلبه تتسارع، وسمعت عبير صوت طبول تدوِّى، واهتزت الأرض بهم فتعاقدت أيديهم جميعًا في الدائرة التي يجلسون بها حول البلورة، وقال آزورد: إنها دقات قلب مصطفى هو متوتر من الحكاية القادمة..

- اصمدوا سيتمالك نفسه الآن.

بعد ثوانٍ كفَّت الأرض عن الاهتزاز واختفى صوت الطبول.. وبدأ مازن يحكي..

الفصل الرابع

في صباح اليوم التالي لمهاجمة الجاثوم له، جلس مازن شاحب الوجه في شُرفة غرفته وخلفه رنا وقد عانقته مُغمضه العينين وهي تهمِس: ستكون بخير، أنت نمت وأنت تشعر بالحزن، وهذا مسبِّب لتلك الهلاوس الليلية.

رغمًا عنه أجابها بسخريةٍ: هذا أشبه بقول جدتنا: " لو نمت بمَعدة ممتلئةٍ ستنتابك الكوابيس "

- أرى أنَك لا زلتَ مُتحذلقًا رغم ما مررت به.

- أنا خائف يا رنا.

- لن تحتاج أن تخاف أبدًا وأنا معك يا حبيبي.

قالتها وهي تزيد مِن قوة عِناقِها لهُ.. عندما رأى مازن سيارة " جيب " سوداء تتوقف أمام الفيلّا المجاورة لهم والتي لا تفصلها عنهم سوى حديقة خضراء جميلة ومسْبَح صغير، رغمًا عنه تذكّر مازن زحام وسط البلد والشارع الضيق الذي أطلت عليه بِنايتهم القديمة المُتهالكة؛ صوت بائع الأنابيب، وشِجار الجيران، للمرة الأولى أدرك مازن - بينما الحديقة الخضراء والمسبَح ينعكسان على مُقلتي عينيه - أن حياتهم قد تغيَّرت كثيرًا، هو فقط لم يمتلك الوقت الكافي لملاحظة هذا بعدَ وفاة والدتِه، هزَّ مازن كتِفَيه، في المعتاد هو لا يهتم بشأن الجيران إلا عندما يتلصَّص عليهم من نافذته ليلًا بدافع الفضول فحسب، ذات مرةٍ سمِع جارتهم القديمة وهي تصرخ

كالغيلان خلال مشاجرة لها مع زوجها بعدها بِعِدّة أشهرٍ أتت عربة النقل واختلس مازن النظر من نافذته ليرى الزوجة تَقِف كقائد عسكريٍّ تُشرف على عملية نقل الأثاث بينما زوجها يقف جوارها باستسلام وكتفاه تكادان تلامسان الأرض ..

" هم مستأجرون، وليسوا ملاكًا، لا شأنَ لهم.. " كذا قال والده بعنصريةٍ وشراسة لا مبرِّر لها..

تذكر مازن عندما كان والده مستأجرًا في شقة وسط البلد ولم يُعلِّق، تبادل نظرة ساخِرة مع رنا التي فَهِمت ما يدور بخَلَده كعادتها، ومنذ عدة أيام رأى عربة نقل أثاث وعمّال، فمَطَّ شفتيه بعدم اهتمامٍ، مستأجرون جُدد، وحظه لن يُحالفه بوجود زوجة أخرى ليتلصّص عليها من نافذة الغرفة المُطله على الفيلا..

ثم انفتح باب السيارة الجيب وببطءٍ ظهرت ساق فتاة، تبادل مازن نظرةً مع رنا التي رفعت حاجبها وهي تقول: خروجٌ درامي غير مبرر.

- أُصمتي.

- أنت تتمنين فقط أن تأتي رياح لتطير تنورتها.

- ظلمٌ وافتراء.

- طبعًا.

بعدها ظهرت ذراعٌ استندت على الباب..

- لماذا تخرج هي بهذا البطء؟

استندت سيلين على مرفق الباب ووقَفت، ويدها الأخرى تُمسك بعصا بلاستيكية أنيقة، بينما النظارة السوداء تستقر على وجهها وتُخفي عينيها، لم يفهم مازن أنها عمياء حتى تحرَّكت ببطءٍ وهي تمُدُّ يدًا للأمام وتتحسَّس الطريقَ بالعصا، وهُرِع سائق السيارة ليُساعدها في حين خرجت فتاة أخرى-أختها في الأغلب- من الجهة الأخرى ووقفت بتمَلملٍ وهي تلوك اللادنَ..

كان الرجل، يبدو مِن طريقته أنه والدهما؛ يُساعد العمياء على دخول الفيلّا قبل أن يتوقف وينظر لأعلى صَوْبَ مازن الذي أجفل وتراجع مع رنا للخلف رغم أنه لم يوجد شيء مُشِين بالنظر من النافذة.. تنهَّد مازن وتبادل نظرة صامته مع رنا..

- هل أصبحتَ معجبًا ولْهان بجارتنا الجديدة بتلك السرعة؟!

- إليكِ عنِّي.

- لم أحب أختها.

- ولا أنا، هذا لو كانت أختها.

- آه ربما هي ابنة عمِّها توفيت عائلتها وتبنّاها الأب.

قالتها رنا بلهجة تمثيلية ساخرة وأردفت: كأننا في قصةِ "ذهب مع الريح".. صراعٌ أرستقراطي وحُب دفينٍ.. "سكارليت" الجميلة هي أنا بالطبع.

ودارت رنا حول نفسها ورقصت فضَحِك مازن وهو يشاهدها، ثم تذكَّر لثوانٍ هجوم ليلة الأمس وما حدَث له فوجمَ وجْهه، وقبل أن

يعاود النظر لرنا ابتسم في حُب..

***

- لنَقُم بتسريع هذا الجزء المُملّ، سيتعرف مازن على سيلين العمياء الرومانسية بمصادفة ما في الحديقة ويتحدثان عن شكسبير أو عبد الحليم ويقطف لها وردة وسنرى زوجة أبيه، شيرين، تنظر لهما من خلف النافذة، وستكيل مؤامرة ما لمضايقتهما، لكن رنا ستتدخل في اللحظة الأخيرة..

رغمًا عنهم ضحِكوا جميعًا إثْرَ ما قاله كاليجورا وأضاف تشابلن ضاحكًا: أو تقع أخت سيلين في حبائله فتعترف لأختها التي يتضح أنها في علاقة بالفعل مع الفتى..

- أنتم تتحدثون كما لو أننا بصَدَد قضية في محكمة الأسرة!!

- حسنًا سيلين سفّاحة، آكلة لحوم بشرٍ، هي وأهلها يُقدِّمون قرابين السحر الأسود..

- أرى أن نريح عقولَنا قليلًا ونُشاهد ما الذي سيحدث..

- حسنًا.

***

تتحرك عقارب الساعة بسرعةٍ لتمرَّ الأيام وعين مازن تنعكس على سطحها ثم حدَث الحلم..

حدث في أرض الواقع..

ولم يصدق مازن أنه يجلس حقًّا أمام تلك الفتاة الساحرة في ردْهَة منزله..

في الليلة الأولى كان يشعر بالغِبطة والحماس في مَعدته وهو مع جالس مع أهله ويفكر أنه بعد انقضاء اليوم سيختلس النظر إليها من نافذته..

لم يرَهَا سوى في الليلة الثالثة.. وهو يجلس على طرف سريره ويُلصِق جَفنيه بالمِنظار الذي ابتاعَه قبل ذهابه مع رنا لبُرج القاهرة..

لمح أختها تتحدَّث معها وهو ينظر، يراقب، سيلين تجلس فوق الفِراش، الأخت تقف، ضوء أصفر خافت ينسابُ لغرفة نومهما، صناديق انتقالهما وملابسهما لا تزال في موضعها أمام خزانة الثياب، هنا تبدَّل الأمر وبدأت سيلين بالحديث كأنها ترد على أختها، وبدأت الأخت تشيح بذراعها وتقلِّد بجسدها طريقة أختها العمياء في الحديث بينما الأخيرة تواصل حديثها الجاد غير مُدركة لسخرية واستهزاء أختها، ارتفع حاجبا مازن من خلف المنظار، وشعَر لوهلةٍ بتأنيب ضمير، هو يتجسَّس على سيلين بمِنظاره؛ لأنها عمياء وأختها تسخر منها، ثم واصل التحديق كأن شيئًا لم يكن بعدما نفض رأسَه..

رحلت الأخت وظلت سيلين وحدَها فوق الفِراش ثم قامت فجأة دون أي مقدمات وبدأت تُغير ملابسها، بتلك الطريقة المفاجأه التي تُجيدها الإناث، اتسعت حدقتا عين مازن وهو يشاهد مَعدتها البيضاء الناعمة، تحسَّست الفتاه طريقها لخزانة ثيابها وأخرجت روبًا حريريًا،رفَعت ذراعيها وبدأت في ارتدائه.. اشتد كجسدها كَسِهمٍ

متأهب للانطلاق واعتلى الانبهار وجهَ مازن، استلقت الفتاة فوق فِراشها بعد ذلك وبدأت تبكي..

حينئذ فقط تراجع مازن للخلف، ونظر للأرض شاعرًا بالخِزيان، وقبل أن ينام انتابته فكرة واحدة: هل يدمع العُميان؟

حسنًا لم تكن تلك هي الفكرة الوحيدة التي انتابته قبل النوم، لقد تسلَّل إلى أذنيه صوت الصرير إياه، وتخيَّل مازن الفأر العملاق المحبوس بالغرفة العُلوية، أي سرٍّ يُخفيه أبوه في تلك الغرفة؟.. أي شيء هذا الذي يسبِّب هذا الصوت؟ كأنما هناك شيطان حَبيس بالغرفة يحاول الخروج كل ليلةٍ.. شعَر مازن بالانقباض تلاه شعور بالمَقت تُجاه أبيه، لماذا لم يتمكَّن هذا الرجل من أن يكون أبًا طبيعيًّا وحنونًا؟ أو على الأقل أبًا صريحًا لا يخفي أسرارًا مخيفة عن أبنائه؟.. هنا اتَّسعت عينا مازن في رعبٍ، لقد سمِع صوتَ الصرير يتزايد بعنفٍ، كأنما.. يا إلهي.. كأن الباب قد انفتح أخيرًا، ساد صمتٌ مُطبق أعقبه صوت خُطوات ثقيلة، هل خرج الفأر العملاق من الغرفة؟ أم أن شيئًا آخر قد خرَج؟.. وهو يسير الآن ببطء بينما الجميع نِيام، صوت الخطوات الثقيلة هذا، كأنها نبضات قلب مِسْخ، مسخ قضَى حياته في سَقَر، وهو الآن قادم من أجلِ مازن، صوت الخطوات يقترب..

تاك.. تاك.. تاك..

يشعر مازن بصاحبِ الخُطوات يتوقف خلف باب غرفته المغلق..

من الغريب أن تشعر بوجود كِيانٍ ما قبل أن تراه، نفس الطريقة

التي تشعر بها بنظرات أحدهم لك قبل أن تُدير رأسكَ..

تدير رأسك؟ تُدير مقبض الباب.. اختلطت الأفكار داخل عقل مازن وانتابه دُوار حادٌّ وهو يرَى مقبض باب الغرفة يدور ببطء.. المسخ قادم من أجله، لقد خرج من محبسه وهو قادم الآن..

هنا تصلَّب جسد مازن وشَهِق في حين انفتحت حدقتاه على اتساعهما، وابيضت عيناه تمامًا.. حاول أن ينادي أخته، لكن لسانه أبى أن يُطيعه، هذا نوع آخر من الرُّعب، خِيانة جسدك لك، انفتح الباب ومعه كاد قلب مازن أن يتوقف عن النبض.. مستحيل أن يكون ما رآه حقيقة، مستحيل.. ثم فقد مازن وَعْيه وساد الظلام..

وفي صباح اليوم التالي وقَف الفتى أمام المرآة وهو يردِّد لنفسه بوجه شاحب: حلم، مجرد حلم.. لم يكن شيء مما حدث حقيقيًا، أنت بخيرٍ..

هكذا أقنع مازن نفسه، وقرَّر ألا يحكي لرنا عمّا حدَث، وقرّر أيضًا تجاهل الكَدمات على ذراعه الأيسر، كدمات تبدو وكأنها من اعتصار أصابع أحدهم لذراعه..

***

بعدها بيومين تبادل مازن حديثه الأول مع سيلين، عندما سمِع طرْقًا على باب الفيلا وهو جالس وَحْدَه، مراد خرج مع شيرين، ولوهلة شعَر مازن غير الاجتماعي بالجزَع، يكره دومًا فكرة الطّارِقين؛ لذا سار ببطء متمنيًا أن يرحل القادم ثم نظر من العين السحرية ليرى وجه سيلين..

انتابه توتر رهيب مع تَهلُّل أساريره وفتَح الباب قبل أن ينظر لها مَشدوهًا، ما كل هذا الجمال؟ كأنه يقف قبالة الشمس..

فور أن سمِعت سيلين الباب ينفتح قالت بسرعة: آسفة.. آسفة.. لكن أهلي بالخارج و.. أعتقد أن أحدًا في المنزل معي..

لم يتظاهر مازن بالتعاطف، لم يتحدّث بصوتٍ ناضج يوحي بأنها فتاة عمياء وحيدة تهلوس، قال لها بتفَهُّم: ادخلي وانتظريني هنا ولسوف أذهب أنا وأتفقّد بيتك.

شعَرت سيلين براحة تلقائية لطريقة ردِّه وتفهُّمه..

وأجلسَها في ردهة البيت مُفكرًا في ردةِ فعلِ أبيه وزوجته لو عادا ووجداها في البيت ثم ذهَب هو لتفحُّص بيتها، هل كان يعتقد أن هناك شخصًا فعلًا في منزلها؟ كلّا.. الحقيقة أن كل تفكيره كان منصبًّا على روعة الفتاة وحقيقة أنه يتبادل حديثًا مع جارته الجميلة التي كان يتلصَّص عليها.. قلبه يقفز بطَرَب داخل صدره، مهما كانت معاناة المرء فإن فكرة الاقتراب من فتاة جميلة كفيلة دومًا بتقديم حلول سحرية لكل شيء..

فور أن دخل بيتها شعَر أنه يَنتهِم المملكة المحرَّمة التي لم يجسر أحد على دخولها من قبله؛ هنا تحيا تلك الفتاه الجميلة، هنا رائحة عطرها في كل ركن، هنا تنام هي وتستحمّ وتستلقي فوق أريكتها، تسارعت دقات قلبه وهو يصعد السُّلم للطابق الثاني مُتجهًا لغرفة نومها، هل هو يحلم؟ أم أنها قد أتت وتحدَّثت معه وطلبت مساعدته وهو في بيتها الآن؟ بطلها الخارق !.. ضحِك مازن بصوت عالٍ،

لا يهتم لو كان هناك لص حقًّا في بيتها أم لا، المهم أنها قد طلَبت مساعدته، والأهم من ذاك أنه داخل غرفة نومها في تلك اللحظة، وجد نفسه يتَّجه في سرعة صَوب دُرج الكومود ويقف أمامه، يده ترتعش وهو يفكر: كل أشيائها الأنثوية الخاصة، أسرار الأنثى المقدَّسة، الكاهنة العُظمى، كل شيء داخل دُرج هذا الكومود، تلك الفرصة لن تكرَّر أبدًا..

مدَّ يدَه المرتعشة من فرط الحماس ليفتح الدرج، شعر بموسيقى هزلية في الخلفية بينما شعاع من الضوء ينعكس على وجهه من داخل الدرج.. ثم واتته فكرة فجأة أصابته بالقلق..

أين أختها؟ هل في الخارج مع والدها؟ ماذا لو عادوا ووجدوا الفتى غريب الأطوار مِن الفيلّا المجاورة في غرفة أبنتهم يتفحص مقتنياتها الخاصة؟

***

- كفى.

صاح تشابلن بالعبارة فنظروا إليه جميعًا بدهشة قبل أن يسأله كاليجورا بتشكك: ما بك؟

- كل تلك الفيلات والطوابق الثانية والحياة الفاخرة لا تناسبني، لماذا لا تدور الأحداث حول طبقة متوسطة، في شقة بحيٍّ شعبي ما، لقوم يعانون الديون ولا يأكلون اللحم مع البازلاء سوى مرة واحدة في الأسبوع.. أنا غير قادر على التعاطف مع تفاهات الأثرياء تلك.

- الحقيقة أن مازن قد أوضح أنهم اعتادوا في شقة إيجار قديم بوسط البلد وأن وظيفة أبيه كقوّاد هي سبب ثرائهم وانتقالهم لفيلا في التجمع..

قالت عبير العبارة بتردُّد.. ثم أردفت: آه أرابيلا وجهك يتساقط..

رفعت الساحرة لتجد أن جلد وجهها قد تساقط بالكامل، دعاها تشابلن بجميلة الجميلات قبل أن يواصلوا مشاهدة ما يتم عرضه على البلورة السحرية.

***

أغلق مازن درج الكومود ونظر لفراش سيلين قبل أن يعود أدراجه لمنزله، ولم يَفُت عليه أن يلمح في طريقه كتاب " نساء صغيرات "، نسخة مُعدَّة بطريقة " برايل " جوار الوسادة..

خرج مازن بلهفة والتوتر يكاد يعصِفُ بجسده، فتاة عمياء جميلة تقرأ أدبًا كلاسيكيًا بطريقة برايل، أشياء كتلك موجودة كي يسخر منها الواقعيون فحسب، أشياء كتلك تتواجد في الأفلام فقط، لشدة ما يصبح الواقع جميلًا عندما يتشبه بالخيال، وصل مازن لبيته ولم يجدها تجلس فوق الأريكة حيثما تركها، كانت تسير إيابًا وذهابًا دون أن ترتطم بشيء، لثانية انقبض صدره وهو يتخيل حياتها في الظلام قبل أن يتعمّد السير بخطوات ثقيله كي تسمعه ولا تجفل من وجوده المفاجئ، توقّفت الفتاة عن السير فقال بهدوء: لم أجد أحدًا في المنزل لكني أقترح أن تنتظري هنا لحين عودة أهلك.

جلست سيلين، وظلّت صامتة لوهْلَةٍ دون أن يعتلي وجهَها أي

تعبير ثم قالت: هل لي أن أسالك سؤالًا؟

عندما تقول لك فتاة جميلة: " هل لي أن أسالك شيئًا؟ " يتحول عالمك كله لكُتلةٍ من الحماس، أجابها مازن: بالطبع.

- أنت.. آه أعني.. أنت لم تتعجّب من حقيقة أني خائفة وأن هناك شخصًا في منزلي، هل لأنك تعتقد أني.. مخبولة؟

- بالطبع لا، وتلك ليست مجاملة أنا أعني حقًّا ما أقوله، أنه بالطبع لا، أنا فقط..

لم يجد ما يُكمل به عبارته، ثم حدَث الأمر السحري الذي لن ينساه أبدًا، لقد تغيَّرت تقاسيم وجْهِها، وتحركت شفتاها ببطء، ثم ارتفعت وجنتاها، وابتسمت سيلين.. كأنها تفهم ما يريد قوله..

كان قلبه يتلوّى ويرقص بين ضلوعه بجنون وحماقة..

ثم قال بغباء واندفاع: أنا أحب رواية "نساء صغيرات".

كاد أن يقول إنها ساعدته على فهم الأنثى لكنه وجد أنها عبارة خرقاء للغاية..

لوهْلَة فكرت سيلين في جِدِّية، وكاد هو أن يشهق، هي تعلم الآن أنه قد دخل غرفة نومها وتفحَّص فِراشها، حركت الفتاة رأسها كأنها تراه، وقالت: أنت دخلتَ غرفتي؟

- كنت أبحث عن الـ..

- عن الشخص المخيف.

- نعم.

- ولم تجده؟!

- نعم.

- لكنك وجدت روايتي!

- نعم.

- وأنت تحبها.

- نعم.

- ربما علينا تحليلها ومناقشتها معًا.

وهنا ابتسم مازن..

***

عاد أهله ورحَّبوا بالفتاة رغم قلق مازن من طريقة أبيه المتعالية في التعامل مع مَن لا مصلحةَ له معهم، قابلوها بأهلها بعدها، لم يُطق مازن أختها ولم يبالِ حتى بمعرفة اسمها..

ثم نام وهو مُثلَج الصدر وحلم بالفتاة، لم يزره الجاثوم تلك الليلة، لقد تولّت سيلين تلك المهمةَ..

***

بعد ذلك بأيام وقعت المشاجرة العنيفة التي ضرَب بها مازن عادل بلا هوادَةٍ مما تتسبَّب في إيداع الأخير بالمستشفى لعدَّة أيام..

وإليكم الحقائق السابقة لتلك المشاجرة..

في صباح أحد الأيام وجَد مازن رنا تجلِس شاردة في غُرفتها، واجمةَ الوجه، لم ينتبه لهذا إلا متأخرًا؛ لأنه كان محمومَ البال بالتفكير في سيلين، دخل غرفة أخته مبتسمًا وهو يُحلق بذراعية بطريقة ساذجة كالعصافير وارتمى خلفها على الفراش التي جلست طرفه تنظر من النافذة وقال لها مبتسمًا: كنتِ مُحقة يا رنا، نحن حقًّا بحاجةٍ للحب..

اختلج قلبه وهو يتذكَّر سحر سيلين؛ عيناها اللتان تريان كل شيء رغم فقدانها لبصرها، وجهها وابتسامتها الساحرة، وأضاف مازن هامسًا: لقد آمنت بالحب وتأثيره السحري..

رنا لا ترد.. مازن يقطِّب جبينه ويُدير رأسه تُجاههَا..

- ما بك؟ هل تشاجرت مع عادل الأخرق؟

تجيبه رنا بشرود وهي تحدِّق من النافذة: كلَّا.

تصمت قليلًا قبل أن تُضيف: لقد زارني أحدهم ليلة أمس.

يهب مازن معتدلًا بينما دقات قلبه تتزايد.

- الجاثوم.

تفيق رنا من شرودها وتلتفت إليه قبل أن تبتسم كأمٍّ تُطمئنُ ابنها.

- مازن، لا وجود للجاثوم يا حبيبي لا تَخفْ، تلك مجرد ضغوط نفسية.

ومدَّت يدها إزاء تعبير وجهه الخائف ومسحت على شعره مُداعبة، وهي تُضيف: وأنت لا تشعر بتلك الضغوطات مع فاتنتك الجميلة سيلين هانم أليس كذلك؟

وغمزت له فضحك مازن قبل أن يقول مسرعًا: إذن ما بك؟

تنهّدت رنا، ثم همَست: هو حُلم في الأغلب، أو كابوس، لكن شيئًا بصدري ينقَبِض كأنه نذير شؤمٍ.

- احكِ لي.

- ليلة أمس، استيقظت في الثانية صباحًا، أنا لست بكائن ليلي مثلك لكن أرقًا عجيبًا انتابني، استيقظت فجأة لأجد الوسادة مبللة بعرقي رغم برودة الجو، وأنفاسي متلاحقة، اعتدلت مِن جِلْستي، كنت أهم بالذهاب كي أضيء الغرفة، عندما رأيته.. مازن لا تدع عينيك تتسعان هكذا، لم أرَ الجاثومَ، لقد رأيث.. طائرًا أسودَ غريبَ الشكل بعينين صفراوين.. غُرابًا كبيرًا، يقف على طرف نافذتي، آه إنه حُلم.. حُلم بالتأكيد، كذا قلث لنفسي؛ لأن الغراب كان يتحدّث.. آه لشدة ما أضحك الآن وأنا أتذكّر غرابًا أسودَ كبيرًا يقف على نافذتي ويتحدث إليّ بصوتٍ ممتليء بالخُيلاء والزهو: " مَن أنت؟ ".. " مَن أنتَ يا زائر الليل؟ ".. " مَن أنت يا مبعوث الظلام؟ " " ومن أي شاطئ أتيت إليّ؟ ".. نطقت بتلك العبارات شاعرة بأني أكتب قصيدةَ شِعْر، فرفع الغراب رأسه وأجاب: " كل ليلة وضُحاها، يُحلّق أحد الغربان.. كل ليلة وضُحاها.. يسقُط أحدُ الغربان.. كل ليلة من الليالي السبع، وقريبًا ستُحلق كل الغِربان سويًّا.. نحن حفرنا التُّراب لنُرِي قابيل

كيف يضَع أخاه في بيته الأبدي، تلك كانت خطيئة الإنسان الأولى، ولم تكنِ الأخِيرة، وعمّا قريب، سنحلق من حولكِ يا فتاة ".. نظرتُ للغراب قبل أن أصيح " إليكَ عنّي يا طائر الليل ".. ضحِك الغراب وردَّ عليَّ بصوتٍ أجشّ " أبدًا ودائمًا.. دائمًا وأبدًا "..

تنتهي رنا من سرد ما حدَث لها ليلة الأمس فيرفع مازن حاجبيه مندهشًا، هو يعرف أن أخته شاعرة، هي تعشق قصائد بلايك وبو والمتنبي والحظرد وعنترة، يعرف جيدًا أنها تكتُب الشِّعر لكنه لم يتوقع أبدًا أن تحلُم بقصيدة كاملة، يهمِس لها برفقٍ مطمئنًا، بينما هي تنظُر له بترقب لترى إن كان سيسخر منها أم يواسيها، ويبدو الارتياح على وجْهِها ومازن يقول: حلم لفنانة جميلة مرهفة الحس.. لا داعي للحزن يا أختاه.

يقولها مبتسمًا بطريقة الشعراء ويُردِف: حلم ليلة شتاء، نعم ربما يجب أن تسمي القصيدة بهذا الاسم، وسنعتبره جزءًا ثانيًا لحلم ليلة صيف للأخ شكسبير، أعلم أنك قد استيقظتِ لتكتبي القصيدة التي حلمتِ بها فورًا قبل أن تجلسي بوجهِ البومة هذا وتنظري من نافذتك.

تُخرج رنا لسانها له قبل أن تضحكَ قائلة وهي تهزُّ كتفيها: طبعًا كتبته، آه يا مازن هناك شيء ساحر بالأمر برُمَّته، كأن قصيدةَ الغراب لبو قد انسابت لأحلامي وعِشت تفاصيلها.. على أي حال أنا قد أسميتها بعنوان آخر لو لم تمانع بالطبع أيها الرومانسي المتطفِّل..

- لن يكون الاسم أفضل من اقتراحي يا مغرورة لكن تفضلي، بم

أسميتي قصيدتك؟

أجابت رنا بصوت حالم: قصيدة "جرائم الغراب السبع" لرنا مراد..

***

تمر الأحداث بسرعة متلاحقة بعد هذا..

مازن يجلس في حديقة الفيلا مع سيلين، التي تجلس بنعومة فوق الأرجوحة، ورواية "نساء صغيرات" بين يديها، يتبادلان حديثًا باسمًا..

رنا تنظر لهما من خلف نافذتها..

مراد في مكتبه يُطالع مقاطع فيديو جديدة لفتيات الإنستجرام..

شيرين تتحدث عبْرَ الهاتف في غرفتها..

ثم حدَثت المشاجرة الشهيرة إياها في يوم الأربعاء..

كان مازن يسير عندما سمِع صوت نحيبٍ، تصلَّب جسده، هذا هو صوت رنا..

دخل غرفتها مسرعًا ليجدها متكوِّره حول نفسها وتبكي..

اقترب منها مسرعًا وهو يتذكر بكاءه في المدرسة واحتِضانها له ليلًا ووَعْدها " سأعتني بكَ دومًا "..

ثم فَهِم ما حدث فور أن رأى وجهَها التي كانت تخبِّئه بين ذراعيها..

وجه متورم.. عين مغلقة.. وانسابت الفكرة الشيطانية لرأسه.. لقد

ضربها خطيبها المجنون.. عادل..

حدَّق مازن بها قبل أن يصيح بعينين حمراوين: سأقتُله..

حاولت رنا أن تقول شيئًا ما من وسط بكائها على غِرار: ان تظ ر.. تلك.. . ك.. أ.. نت .غلطت.. ي

لم ينتظر مازن وخرج كالإعصار الغاضب من البيت..

***

والآن سيداتي سادتي مع فِقرة الأخبار التي ننتظرها جميعًا..

الإعلامي الأهم والأكثر شُهره في مصر..

الذي تَهِيم به الفتيات حبًا..

ويتمنى الرجال أن يصبحوا مثله..

الشاب الوسيم ذو الكاريزما الخلّابة..

والابتسامة الواثقة..

المثقف والرياضي..

ذو العقل التحليلي والحس الفكاهي الجميل..

عادل الأتربي..

***

كان عادل يرقص بينما تتر بَرنامجه يتلو بتلك الكلمات، ثم بدأت الحلقة ونظر عادل مبتسمًا للكاميرا وبدأ في الحديث: اليوم نناقش

ظاهره هامه وهي ضرب الزوجات، تلك العادة السرطانية التي يجب استئصالها من المجتمع..

انبعث صوت عادل من هاتف مازن الذي جلس في سيارة الأوبر متجهًا لمبنى الإذاعة والتلفزيون..

***

- هناك مشهدٌ عنيف قادم يا تشابلن.

- لا أحب العنف، بإمكان مازن أن يلمح عمّا حدَث لا داعي للوصف التفصيلي.

- لكني أحب الوصف التفصيلي، يجعلني أعيش داخل الحدث نفسه، بعضنا يحب العنف ولا داعي لكي نضحي به من أجلك.

- كلا يا أرابيلا، أنا أفضِّل التلميح وترك بعض الأمور للخيال.

- تشابلن وأرابيلا..

- نعم يا كاليجورا..

- أنتم لم تمانعوا مشاهد تلصُّص مازن على سيلين، وتتجادلون في القليل من العنف؟

- نعبر عن رأينا فحسب..

- أوه انظروا لهذا.. لقد كسر أنفه.. عادل يخرج من مبنى الإذاعة والتلفزيون، يتلقَّى لكمة مُباغتة ليسقُط أرضًا بأنف مهشَّم يضخُّ الدِّماءَ.. وركلات مازن تنهال على وجهه..

- وقد كسر له ضلعًا أيضًا فيما يبدو..

- الآن القوم يتجمعون وأفراد الأمن..

- لننتقل للمشهد التالي..

- انظر.. والد مازن يجلس مع الأخير وعادل في قسم الشرطة..

- عادل لا يبدو بحالة جيدة، عكاز وضلع مكسور وضمادات حول أنفه..

- مراد يعطي عادل حقيبة بها نقود..

- تعويض عن مبارة الملاكمة التي لم يتطوع لها مع مازن ..

- ألا يمانع مراد أن عادل قد صفع ابنته؟

- هناك حلقة مفقوده..

مالت عبير برأسها للأمام وهي تشاهد المشهد التالي، حديث طويل ومشاجرة بين رنا ومازن تنتهي ببكاء وحضن قبل أن يناما متجاورين..

وفي اليوم التالي رأوا مشهدًا لمازن وهو يجلس مع سيلين في الحديقة بينما كتاب "نساء صغيرات" يستلقي جوارها، مالت عبير برأسها صوبَ البلورة السحرية لترى تفاصيل المشهد جيدًا وقطَّبت جبينها، شيء ما خاطئ لكنها لا تستطيع تحديده.. ثم قررت الانتباه لما يقوله مازن في المشهد لسيلين: لقد قررت الحمقاء أن تعطيه فرصة ثانية.. يكاد هذا أن يجنني.. النرجسي الوغد صفعها، وقَبِل

المال كتعويض، أبي لا يبالي سوى بصفقة الزواج والجزء الربحي الاجتماعي من الأمر، ويريدون الزَّج بي أنا في المصحّة النفسية لما حدث كأني مخبول.. أي عبث هذا..

ثم يرتجف مازن عندما تحتضنه سيلين فجأه، وتبتسم عبير وهي ترى هذا الحِضن الجميل، تلقائيًا تنظر لآزورد الذي كان يراقب ما يحدث باهتمام محاولًا تحليل الموقف، وتزايدت ابتسامة عبير..

يمد تشابلن يده ويحرك البلوة فيروا المشهد التالي..

ولدهشة عبير غمغم تشابلن وهو يشاهد ما يحدث: يا إلهي..

***

كان مازن يرقد فوق فراشه عندما انسلت شيرين لغرفته ليلًا، كان يتظاهر بالنوم ويفكّر في سيلين، عندما سمع حركه في غرفته، الحقيقة أنه قد اعتاد ترك ضوء الغرفة وهو نائم خوفًا من الجاثوم، لكنه شَم رائحة عطر شيرين وأدرك أن الذي يتجول حرًا في الغرفة الآن ليس الجاثوم، أراد أن يفتح عينيه لكنه أجبر نفسه على إبقائهما مغلقتين، انتابه الكثير من الفضول لمعرفة مُبتغَى زوجة أبيه في تلك اللحظة، جلست شيرين على حافة الفراش ومدّت يدها وهي تهمس: لم يكن عليك مهاجمة عادل يا مازن.. أبوك ينتوي حقًا إيداعك في مصحة نفسية..

لم يبالِ مازن حقًا بحديثها؛ لأن أناملها كادت أن تلامس يده وهي تتحدّث، ارتجف مازن وشيرين تُردِف: وأنا حقًا سوف أفتقدك..

هو يعلم مَن هي شيرين الآن، إنها الساحرة الشريرة، تخيلها بوجه قبيح كما في قصة "ذات الجمال الأبيض" ساحرة شمطاء شريرة بتفاحة مسمومة في جُعبتها، لكن.. آه يا مرآتي مَن هي الأجمل على الأطلاق؟ وهي شديدة الجمال الآن، رغم أن عينيها زائغتان، هي تحت تأثير مخدّر ما، شعر مازن بألم في رأسه وهو يفكّر في والدته، تُرى ماذا سيكون رد فعلها لو رأت ما يحدث الآن؟ ربما ستتقيء عليه دمًا مرة أخرى، أراد مازن أن يصرخ لكنه أطبق شفتيه وظل يتظاهر بالثّبات العميق..

اعتدلت شيرين، نظرت له مبتسمه وهمست: بإمكانك فتح عينيك الآن..

لكنه ظل مُغلق العينين، نظرت له قليلًا بتعجُّب، ثم أمسكت بيده وهمست: افتح عينيك..

تنهّدت شيرين ثم رحلت..

وظل مازن في فراشه..

ولم يرَ أيًّا منهما الظل على الحائط خلفهما..

***

ساد الوجوم والصمت وأربعتهم جالسون حول البلورة السحرية، لم ينطق أحد بحرف، وجْه عبير كان متوردًا بالخجَل، بينما بدأ الغضب المشين على وجه آزورد، تشابلن أظهر تعبيرًا من اليأس ولسان حاله يقول: يا للبشر، كاليجورا وضع يديه على وجنتيه وفرك وجهه، ولم

يَبدُ أن أرابيلا تبالي حقًا مما رأته، كأنها تحاول تبيّن تفصيلة ما شتَّتها عنهم المشهد..

في النهاية تنحنح كاليجورا قبل أن يقول: لن تجدوا مشهدًا كهذا في مسلسل عربي قديم..

وفي ضيق أضافت أرابيلا: يشوهون دومًا صورة زوجة الأب..

زفر شابلن وتنهَّد قبل أن يُحرك البلورة للمشهد التالي الذي عرض عليهم حديثًا بين مراد ومازن في مكتب الأخير، حول ما فعله الفتى بعادل واحتماليه إيداعه في المصحة، بعدها أتى مشهد لتحضيرات الاحتفال بليلة رأس السنة التي يصادف أنها ليلة عيد مولد رنا..

وغمغمت عبير: سجتمعون معًا ويحتفلون متظاهرين بأن شيئًا لم يكن.. كأن عادل لم يَصْفع رنا، ومازن لم يضربه، كأن مراد لم يُعط مالًا لعادل، يا إلهي، سيتظاهرون بأن مراد لا ينتوي إيداع مازن في المصحة، وبأن شيرين لم تمارس شتى الألعاب العقلية معه، يا لكل تلك الأسرار التي يخبئها هذا البيت، سيتظاهرون حقًا أن كل هذا لم يحدث وأن كل شيء على ما يرام..

- تلك هي شِيَم العائلات..

- وسيدعون سيلين وأختها ووالدها للانضمام إليهم..

- لأن الاجتماعيات مهمة بالطبع.

- وسيموتون جميعًا في تلك الليلة

- أغلبهم وليس كلهم.

شعَرت عبير بامتنانٍ مفاجئ لكونها شخصية خيالية داخل عقل مصطفى، لتترك البشر لحماقاتهم تلك، ولتجلس هي جوار الفارس المملوكي، ثم انتابتها فكرة عجيبة، أليس من المفترض أن تعتقد شخصيات من هو مُصاب بتعدد الشخصيات بأنهم حقيقيون ويتصارعون على جسده فحسب؟ أم أن مصطفى قد روّضهم حقًّا وعالج نفسه بحُكم كونه طبيبًا نفسيًّا بارعًا؟ لم تشعر عبير بأن هذا هو الوقت المناسب لطرح السؤال..

هز كاليجورا رأسه وقال: قضية عجيبة بحقٍّ..

أمامهم داخل البلورة حول مائدة العشاء جلس مازن بين رنا وسيلين، والد الأخيرة وأختها جلسا قبالتها، بينما كانت شيرين تجلس متشابكة الأيدي مع مراد، وعادل يجلس بخيلاء وهو يتفحَّص نفسه في مرآة صغيرة، وقد بدا أنه قد عاد لعادته القديمه في اعتبار أن مازن غير موجود، ثم انطفئ النور فجأة وساد الظلام مع انقطاع ذاكرة مازن..

تمتم آزورد: المأدبة الأخيرة.

وأضاف تشابلن: كأنها لوحة العشاء الأخير، الحقيقة أن هناك شيئًا ما.. لا أستطيع تحديدة، كأنهم حقًّا جزء من مسلسل وكل منهم يمثِّل دورًا ما بشكل مُفتعل، أعني انظروا لعادل وهو يتفحص نفسه في المرآة بخيلاء، البشر الحقيقيون لا يفعلون هذا طيلة الوقت، آه لا عليكم..

- ترى مَن هو يهوذا الذي قتَلهم جميعًا؟

- أحد هؤلاء الجالسين قاتِل بالتأكيد.

- لكن..

قطّبت عبير جبينها بعدما قالت الكلمة فالتفّت العيون ناحيتها، تنهّدت الفتاة، ومثل مياه النهر المتدفقة والواثقة من نفسها قالت: لكن هناك شيئًا خاطئًا في تلك اللوحة.. شيئًا غير منطقي بخلاف ما قلته أنت يا تشابلن..

ابتسمت أرابيلا وعلّقت: أوافقك الرأي..

- وما هو كُنه هذا الشيء؟

- لا أعلم بعدُ، لكن هناك شيئًا غير منطقي..

اندهشت عبير من ثقتها في نفسها وهي تقول: " لا أعلم بعد " بدلًا من: " لا أعلم " كأنها واثقة من أنها ستتوصّل للحقيقة..

- لنتبادل الآراء إذن.

قالها كاليجورا وهو يقفز ويقف على يديه رافعًا قدميه لأعلى قبل أن يعتدِل ويتمايل بجسده مغنيًا: هو هو هو ها ها ها، مازن مخبول، يعاني صدمة الطفولة التي تتلخص في موت والدته، ويتخيل الجاثوم كنوع من العقدة النفسية، وقد قتَل عائلته؛ لأن والده كان سيودعه في المصحة النفسية.. وزيارة شيرين له كانت القشة الأخيرة التي أفقدته صَوابَه، لا تنسوا أنه.. هو هو هو ها ها ها.. قد تذكر والدته في تلك الليلة، كأنه كان يصارع الجانب المريض بداخله، بطاقة حبه لسيلين، الفتاة العمياء التي تجلس فوق الأرجوحة في

الحديقة الجميلة وتناقش معه رواية "نساء صغيرات" يا للرومانسية المفرطة.. نعم.. مازن قتَلهم جميعًا لأنه مختل..

انتهى كاليجورا من رقصته وجلس فقال تشابلن بعد تفكير: فرضيتي مختلفة، مازن ليس القاتل، في المعتاد الشخص الأقل شُبهه هو القاتل في القصص البوليسية، أعلم ما ستقولون، أعلم انتظروا، نحن بصَددِ قضية حقيقية ولسنا في رواية بوليسية لكن فكِّروا معي فحسب، مَن الشخص الذي يبدو عاقلًا، رغم أنه قد تعرض لصدمة فقدان الأم، وصدمة العنف من الحبيب، وصدمة الحياه الأسرية المختلة؟.. إنها رنا يا سادة.. احذر من هؤلاء الذين يُظهرون عقلانية ولطفًا طيلة الوقت، رنا كانت تكتُم طاقة الحُزن بداخلها وظلت تتظاهر بالثبات حتى تمكَّنت طاقة الحزن واستولت على جسدها فدفعتها لقتل الجميع.. نعم رنا هي القاتلة.

فكروا جميعًا في كلام تشابلن قبل أن يسأل الأخير: ما هو رأيك يا فارس فرسان المماليك؟

بصوت أجش واثق ردَّ آزورد: الدخيل هو القاتل، كغُزاةٍ قادمون من الخارج ليهدموا حال المملكة، لقد حلَّ عليهم عادل كالطاعون بنرجسيته، ومن غير المنطقي أن ينسى إهانة مازن له ناهيكم عن أن يسامحه، لا تنسوا أننا لم نعلم بعد سبب صفع عادل لرنا، لكن هذا مؤشرًا على ميله للعنف، هو شخص لا يهتم سوى بنفسه، لا يشعر بالآخرين، كبرياؤه والأنا الخاصة به هي مُحرِّكه، نعم، الإعلامي المغرور، عادل هو القاتل..

قالها آزورد بثقةٍ ثم نظروا جميعًا لأرابيلا التي كانت تُعيد تركيب أنفها المرآة، وتُغمغم: يا مرآتي يا مرآتي من هي الأجمل على الإطلاق؟ ولوهْلَة تذكرت عبير أفكار مازن عن شيرين، زوجة الأب والساحرة الشريرة..

انتبهت أرابيلا إليهم فغمغمت بلامبالاة وهي تهزُّ كتفيها: المنطق كائن أحمق يتظاهر بالثبات، قلتُ لكم مِرارًا وتَكرارًا، الهجوم الليلي المتكرر على مازن ليس بسبب صدمة نفسية، لحظة موت أمه وعذابها، طاقة الاحتضار قد استدعت الجاثوم من المقابر، حيث يجثم هو ويتغذى على جثث الموتى؛ ولذا تلبّس الجاثوم مازن وهاجمه، الجاثوم هو مَن فَعَلها، وقد تجسَّد بصورة آدمية مثلما كان يفعل مع التجار في بغداد في زمن هارون الرشيد، يتجسد بصورة بشر لكن بقدمي ماعز، الجاثوم كان يجلس معهم على مائدة العشاء وهو مَن قتلهم جميعًا، أما الصورة الآدمية التي اتخذها الجاثوم فهي واضحه للغاية، مَن هو الشيطان الذي انسل لمنزلهم وحياتهم؟ إنها شيرين التي سحرت مراد وجعلته يتزوجها، ما الذي قد يدفع رجلًا عصاميًا يمتلك جزءًا تقليديًا من أن يتزوج فتاة ليلٍ حتى لو كان قوّادًا؟ نحن نستطيع تفهُّم ازدواجيته لكن أن يتزوجها؟! أن تصبح من عائلته؟! كيف؟!! لأنها قد سَحرته، الجاثوم يتغذى على العفن وتلك العائلة عُشّ كامل للعفن، نعم، الجاثوم طُفيل رهيب يدمر حياتنا، مثل شيرين، هي- مثل الجاثوم - قد انسلت لغرفة مازن وعبثت بعقله وروحه، وقد أعلنت عن هيئتها في ليلة رأس السنة وتحوَّلت لغول متخلِّصه من قشرتها الآدمية ثم قتَلتهُم جميعًا..

صمتوا مفكرِّين قبل أن تَنَحنُح عبير، لقد نسوها، نظروا إليها في دهشةٍ فقالت: لديَّ نظرية تختلف تمامًا، العائلة التي انتقلت للجوار؛ الأب والأخت الذي لم نعرف أسماءهم، سيلين العمياء، ذهابها لمازن وطلبها الغريب للمساعدة والحماية من شخص وهمي في منزلها، أعتقد أن سيلين ليست عمياء، لقد كانت ترى مازن وهو يتلصَّص عليها، وذهبت إليه لتغويه، هم أجروا الفيلا لمدة قصيرة حسب كلام والد مازن، الذي فجأة غير موقفه منهم ودعاهم للعشاء لأني أعتقد أنهم - مثلما فعلوا مع مازن - استطاعوا خِداعه.وكل تلك العائلة ليسوا من عبَدة الشيطان ولا يقدمون القرابين البشرية يا كاليجورا، هم ببساطة مُحتالون، يتعرفون على ضحاياهم، يتقربون منهم، ثم يسرقونهم ويقتلونهم.. سيلين لم تكن عمياء، وهي القاتلة..

بدت الدهشة عليهم وهم يفكرون في كلامها، وشعَرت عبير بالفخر.. ثم تنهَّد تشابلن وقال: كل الاحتمالات تبدو منطقية، حتى فرضية الجاثوم، سيفيدنا حقًّا أن نعرف من مات ومن نجا مِن ليلة عيد الميلاد..

- نعم، لو نجت سيلين وأسرتها فربما تكون نظرية غادة الكاميليا صحيحة.

- ولو نجت رنا فربما هي القاتلة.

- نعم نعلم أن مازن قد نجا..

- كونه الناجي من المذبحة لا يعني بالضرورة كونه القاتل.

- ولا ينفيه.

- لو ماتوا جميعًا فربما إذن هو الجاثوم..

- ولو اتضح لنا أن شيرين لا تزال على قيد الحياة فهي..

هنا قاطعهم صوت من مكانٍ بعيدٍ؛ الرجل الجالس في الظِّلال، جوار اللوحة المغطاة، قرّر أن يتحدث أخيرًا..

- لقد تجاهلتهم السؤال الأهم على الإطلاق، ما هو سرّ الغرفة المُغلقة بالطابق العلوي؟..

ثم تحرك صاحب العبارة.. وأمام عيون عبير خرج من الظلال، وهو يقول مُردِفًا: كُلكم تفكِّرون بالاتجاه الخاطئ، حمقَى.. حمقى..

تبادل تشابلن نظرة ذات مغزًى مع كاليجورا كأنهم قد اعتادوا وقاحةَ هذا الرجل الغامض، في حين نظر إليه آزورد باحترام، وقد اندهشت عبير لهذا، في المعتاد آزورد لم يكن ليقبَلَ بالإهانة أبدًا وربما يقتل من أجلها، دغْكَ من حقيقة أنه قد أخبرها منذ وهلةٍ ألا تهتم لشأن هذا الرجل، لكنه بدا مهتمًّا حقًّا الآنَ في سماع ما يبغِى الرجل قوله..

هنا رأت عبير وَجْه الرجل، وارتفع حاجباها في ارتياعٍ، ودهشة لا تُصدق.. الشخصية الخامسة داخل عقل مصطفى كانت مفاجأة حقيقية..

الفصل الخامس

نظرت عبير في دهشة رهيبة إلى محدثهم، وأدركت أن مصطفى شخص غير متوقع بحقٍّ..

الشخص الوقِح الصامت الجالس في كآبةٍ..

والذي يتهمهم جميعًا بالحماقة الآن، وهو بصدَد عرض فرضيةٍ جديدة عن هوية القاتل..

هو..

***

مصطفى يجلس في شقته وحيدًا والحزن ينتابه، يجلس في صمت، ثم يلمح شيئًا على التلفاز، فينظر إليه، وتدريجيًا تعتلي الابتسامه وجهه، يضحك بعدَها، قبل أن تأتي مرحلة القَهقة، وينسى مصطفى حزنه لفترة وهو يُشاهد ما يتم بثّهُ على التلفاز..

***

يشعر مصطفى بألمٍ في قلبِه وهو يرمُق فتاة حسناء تذكِّره بفُرصه الضائعة في الحياة، يعود لشقته وهو واجم الوجه، ثم يتذكر شيئًا فيُشعل الحاسوب ويشاهد شيئًا عليه ويبدأ الضحك..

***

الشخصية الخامسة داخل عقل مصطفى، كانت إسماعيل يس، كذا فكّرت عبير وهي مبهوتة تمامًا..

نظر إليهم إسماعيل يس بقنوطٍ، وبتعبير وجهٍ جادٍّ، وكرر: "كلكم حمقَى.. ألا تعلمون أن الثعلب يأتي مهرولًا عند سماع صراخ الأرنب، ولكن ليس لمساعدته ".

ظلت عبير تنظر إليه في انبهار، يبدو مضحكًا حتى وهو جادٌّ، كان متوسط الطول ممتلئ الجسد قليلًا، بشعر ناحلٍ وفم ضخم، يسير ويتحدث بصوت إسماعيل يس، ولغة جسده كذلك، أو حركات جسده، شعرت عبير أن التعبير الأخير مناسب أكثر لـ " أبو ضحكة جنان " ورغمًا عنها تساءلت عن كيفية امتلاكها ذِكْرى لإسماعيل يس، هل تنساب إليها ذكريات مصطفى؟ هزت عبير رأسها كي لا تُجن..

كان هناك شيء غريب بوجْهِه كأنه قد تعرّض لعملية تجميل مؤخرًا لكنها أدركت أن تلك هي طريقة مصطفى في تركيب الوجه داخل عقله..

هنا وأمام عينيها المبهورتين بدأ إسماعيل يقلِّد طريقة كل واحد منهم عندما كانوا يَعْرِضون استنتاجاتهم بسخرية وتهكم: هيء هيء.. يا رجل حرام عليك يا رجل.. آه آه انظروا إليه..

وبدأ يطرق الأرض بقدميه مِرارًا وتكرارًا بطريقة مضحكة وهو يضع يديه على خصره مُردفًا: أنا فارس عربي قديم وممل وأزعم أن القاتل هو الخطيب.. حماااقة.

ظل إسماعيل يردِّد الكلمة مغنيًا إياها وهو يطرق بقدميه ويداه تتوسطان جسده " حماااقة حماااقة حمااااااااااااااااااااقة "

همست عبير مبهورة: " هو يقدم مونولوج!"

ولاحظت أن كلًّا من كاليجورا وتشابلن ينظران إليه بانبهار، أرابيلا تنظر إليه مع آزورد في انتظار استنتاجه، انحنى إسماعيل يس وأشار لأرابيلا: الساحرة تقول إنه الجاثوم.. يا ماما يا ماااااااما..

وتلفت حوله بخوف تمثيلي، ثم مطّ شفتيه للأمام وأصدر ضوضاء مُضحكه مُردِفًا بصوت غنائي: والمهرِّج وتشابلن يقولان ويقولان.. ماذا يقولان؟ دعهما يقولاااااااان.. هيء هيء..

ثم اندفع للأمام وأمسك بعبير من يدها وجذَبها لترقُصَ معه، وهي تضحك، ظلا يرقصان وهو يُحيط جسدها بذراعه بينما مدّت هي يدها بتلقائية لتضعها على كتفه، تذكَّرت رقص ليلى مراد مع أنور وجدي وغنائهما وهما يرتديان الأقنعة، وغنى إسماعيل: وغادة الكاميليا تتهم الفتاة العمياء المسكينة، حراام عليكي..

أجلسها مكانها بعدما انتهي وجلس بينهم، فقال كاليجورا: ابن حميدو قرَّر الانضمام إلينا أخيرًا ومساعدتنا

- بدا لي أنكم تحتاجون المساعدة، بكل تلك الحماقة..

- حسنًا، مَن هو القاتل؟

- قاتل، إهيء، يا شاويش، يا بوليس، لقد كان الأمر واضحًا أمامكم طِيلة الوقت، منذ البداية، لكنكم لا تمتلكون عقلَ " شمعَة " لتستوعِبوا..

- من هو القاتل يا إسماعيل؟

- ألم يحكِ مازن عن جلسته مع أخته أمام الأخبار لتفقُّد جرائم

"الرجل ذو القناع الأبيض"؟ جريمة القتل البشعة التي حدثت في ليلة رأس السنة كذلك؟ ألا تجدون تشابهًا بين الجريمتين؟ نمطٌ متكرِّر؟ ألم يعلمكم التحليل النفسي أن اللاوعي يُكرر نفسه بنمطيةٍ؟ أم أن هذا هو ما قد حدث فعلًا؟ هل توفيت عائلة د.هيكل في رأس السنة فعلًا؟ هل تم قتلهم بشكلٍ مماثل؟ أم العقل الباطن لمازن يحاول مَنطَقة الأمور؟ هل تدور رءوسكم بعد؟ تشعرون وانكم تكادون تضلوا الطريق من كثرة الاحتمالات؟.. فقط تذكَّروا أن الحقيقة دومًا بسيطة بعيدًا عن كل المشتِّتات كما قال هوديني -الساحر الشهير- آه آه الساحر يقدِّم عرضَه المُبهر على المسرح، يشتِّت الجمهور، وهناك الخدعة، بمنطق " الآن تراه، الآن لا تراه الشهير "..

- تريد القول بأن هناك قاتلًا متسلسلًا هو الذي قتل عائلة د.هيكل من قبلُ، وأن نفس القاتل عاد ليفتك بعائلة مازن؟

بدا لعبير من تعبير وجه آزورد أنه يميلُ لتلك الاحتمالية أيضًا، آزورد تعوَّد دومًا أن الخطر خارجي وليس من الداخل، كخطيب رنا أو قاتل ليلة رأس السنة، رغم أن علم النفس يشير إلى أن الخطر في المعتاد داخلي، لكن آزورد بطبيعته يميل لفرضية الخطر الخارجي القديم، وفكَّرت عبير أن المخيف حقًّا أن كلا الخطَرَين حقيقي، لكن ماذا لو أن مسألة "ذو القناع الأبيض" لا علاقةَ لها برأس السنة، وعقل مازن تحايل عليه فقط لإقناعه بتطابق التواريخ؟.. رأسها يدور.. ترفع عبير ناظريها لإسماعيل يس الذي أطلق ضحكةً طويلة مُقهقة قبل أن يقول بكل جِديةٍ وتعبير وجه صارم: ماذا لو

أن الرجل ذا الضمادات الطبية هو القاتل، د.هيكل قتل عائلته، وهو يرتدي الضمادات على وجهه، وادعى أن مجموعة من اللصوص فعلوها، لماذا قتلهم؟ لأنه مُصاب بالانفصام، كلَّا تلك ليست الكلمة الصحيحة؛ لأنه مُصاب بتعدد الشخصيات، د. هيكل، د.جيكل والسيد هايد، وإحدى شخصياته قتَلت عائلته، وقد انتحل د.هيكل شخصية جديدة واسمًا جديدًا بعد هذا، لكن مرضه استمر معه، وشخصياته استمرت معه، فقط أصبح اسمه مصطفى، الطبيب النفسي الذي يحيا وحيدًا، ومثلما حدث من قبل استولت شخصية القاتل على جسده، وفتكتب بعائلة مازن، ثم جلس الطبيب النفسي يستجوب الفتى لمعرفة ما حدث تلك الليلة، وهو لا يعرف أنه القاتل، آه آه آه آه يااااه.. الآن سوف تسألوني بحماقتكم المعتاده كيف توصَّل مصطفى لعائلة مازن؟ لأن مراد كان سيودِع مازن في مصحة نفسية بعد مُهاجمة الأخير لخطيب رنا، عادل، آااه عادل يا عادل هيء هيء، وقد ذهب والد مازن لمصطفى طلبًا للعون، ولم يعلم أنه ذاهب لهلاكه، هذا هو ما حدَث، مصطفى الطبيب النفسي المصاب بتعدُّد الشخصيات هو القاتل، أعني أحد الشخصيات داخل عقله المريض، بمعنًى آخر.. أحدُنا هو القاتل..

انتهى إسماعيل يس من حديثه الطويل..

رفعت عبير يدها وتحسست رأسها الذي يدور ويكاد ينفجر، ليته ظل صامتًا..

نظرت الفتاة لوجوه رِفاقها، كانوا جميعًا يتبادلون نظرات متشكّكه، ألِهذا كان إسماعيل يجلس وحيدًا في الظلام، تساءلت عبير داخل

عقلها؛ لأنه يعرف الحقيقة الصادمه؟..

لكن هل هي تلك الحقيقة حقًّا؟

ببطء تنحنح تشابلن قبل أن يُغمغم: فرضية جادة ومَنطقية كذلك مثل الباقي.

- لكنها مجرد فرضية أليس كذلك؟

سألت عبير بقلقٍ فقال آزورد: آه، نعم بالطبع.. لو أن نظرية يس حقيقية فربما أحدنا استولى على جسد مصطفى وقام بالقتل.. رغم أنها تبدو فرضية واهنة للغاية، أعني والد مازن يذهب لمصطفى طلبًا لعون طبيب نفسي بعد مهاجمة مازن لعادل، كلًّا الأمر يبدو معقدًا وسخيفًا، لكن لو كان حقيقيًا.. فأحدنا هو القاتل..

صمتوا مرة أخرى وظلوا يتبادلون النظرات كأنهم يرون بعضهم للمرة الأولى وكلهم يفكرون بنفس الفكرة..

أحدنا هو القاتل، ومصطفى لم ينجح في معالجة نفسه، أحدنا تسلَّل ليلًا واستولى على جسد المضيف ليذهب لعائلة مازن ويذبحهم..

أم أن مصطفى كان هناك بالفعل..

ربما مراد قد دعاه لاحتفالية رأس السنة..

وأمام أعينهم على البلورة السحرية في لوحة العشاء الأخير انضم وجْهٌ جديد.. وجه ضيف بلا ملامح..

مصطفى..

ضحك كاليجورا فجأة وقال: يا لها من فكرة، أحدنا القاتل.

- قد يكون أنتَ أيها المهرج.

قالها يس ثم نظروا جميعًا بريبه لأرابيلا التي هزت كتفيها بشكل مُضحك ونظرت لأعلى، فالتفتوا ونظروا لتشابلن الذي نظر للأرض بخَجل وبراءة وهو يلعب في شاربه..

- ربما هي الفتاة الجديدة.

نظروا لعبير التي لم تشعر أنها واثقة في نفسها كمياه النهر المتدفِّق، فصاح آزورد: إليكم عنها..

- وربما هو الفارس الذي قتل العشرات بسيفه في معاركه ضد العثمانيين، الفارس الذي تشوَّهت طفولته برؤية رأس طومان باي - معلِّمه - وهو يافع السن..

- ربما عليك أن تكف عن إلقاء الاتهامات جُزافًا يا كاليجارو، أليس اسمك مستوحًى من شخصية قاتل مختلٍّ في قصة ألمانية قديمة؟

هنا صاحت عبير وهي ترفع يدها: اسمعوني، تبادُل الاتهامات لن يفيدنا بشيء هنا، لا داعي للانقلاب على بعضنا، هناك العديد من الاحتمالات، وجميعها منطقيّ، ربما مازن هو القاتل، أو رنا، أو سيلين، أو شيرين، أو عادل، وربما الجاثوم.. أو مصطفى، وفي تلك الحالة يكون أحدنا القاتل..

- نعم كل الاحتمالات متساوية ومنطقية كلام الفتاة الجديدة

صحيح..

- وماذا نحن بفاعلين الآن؟

مطّ إسماعيل يس شفتيه واعتدل واقفًا، ثم سار مبتعدًا وهو يغنِّي " ظلموه يا وعدي " وجلس بين الظلام ثم صمت، لم تفهم عبير ماهيه تلك الأغنية بالضبط، " ظلموه يا وعدي " لكنها فهِمت أنه قد أدى دوره وسيعود لجلسته القديمة الآن، تنهَّدت الفتاة ثم انتبهت على صوت تشابلن وهو يستعيد القيادة ضمينًّا وقال: كاليجورا، أرسل برقية لمصطفى، مُفادها أننا توصلنا لعدَّة احتمالات، لكن التفكير والتحليل المنطقي لن يكفي، نحن بحاجة للحلِّ الأخير "

ثم فكَّر قليلًا وأضاف: وأرسل له ملخصًا بقائمة استنتاجاتنا..

في كسَلٍ رد كاليجورا: ولِمَ أذهب أنا؟ أرسِل أنت البرقية يا تشابي..

- ليس هذا بوقت الكسل.

صاح آزورد: سأذهب أنا.

وهبَّ واقفًا بنشاط وبدأ يكتُب على ورق عاج، ثم ذهَب لركن المسرح وعاد بحمامةٍ زاجلة من قفَص رأته عبير للمرة الأولى الآن، ربط الرسالة في ساق الحمامة وتركها تطير، والتفت لثانيةٍ ناظرًا لجماهير تماثيل الدُّمى المرصوصين أمام المسرح، وغمغمت عبير: حياتي عبارة مسرحية طويلة.

هنا أشار آزورد لعبير أن تأتي إليه خِلْسه، هزَّت الفتاة رأسها وتركتهم جالسين، فقط سمعت كاليجارو يقول وهي تقف: أنا

جوعان، من الجيد أننا أرسلنا البرقية، الحل الأخير سيشكِّل وجْبةً رائعة لنا..

سارت عبير لآزورد الذي أحاط كتفها بذراعه القوى، نظر لعينيها بإعجاب، وقال: هل أنت بخير؟

- نعم بخير.. . آزورد.

- نعم يا جميلتي.

- ما هو الحل الأخير؟

تنهَّد الفارس المملوكي، وأشاح بوجهه بعيدًا وهو يجيب: التنويم المغناطيسي..

***

وضع مصطفى يده على أذنه ليسمعهم جيدًا، وتلقَّى برقيتهم، ثم أخذ نفسًا عميقًا، سأله مازن بتوجُّس: لماذا تشرد وتضع يدك على أذنك هكذا كأنك تسمع أصواتًا داخل عقلك؟

رفع مصطفى حاجبيه، الفتى نبيه ودقيق الملاحظة حقًّا، ثم ابتسم وهو يردُّ: أنا أفكر فيما حكيتَه فحسب، ما حكيته، كل تلك التفاصيل لم تكن بسيطة.

شعر مصطفى بالخِزْي وهو يهرُب من سؤال مازن بتلك الطريقة الوضيعة مُستخدمًا مأساة الفتى ضده لكنه لم يجد حلًّا آخر..

ظل مازن صامتًا لوهلة وهو ينظر لمصطفى بشكٍّ قبل أن يتنهَّد،

عاد بجسده حتى ألصق ظهرَه بالفراش ونظر للسقف ثم رفع يديه وتحسَّس الضمادات المحيطه بوجهه، قبل أن يقول بوهَن: تلك هي حكايتي بالكامل أيها الطبيب، حياتي كلها، ما أتذكره على الأقل، لم أعرف سر الغرفة التي يُبقيها أبي موصَده بالطابق العلوي، وقد أصبحت حياتي بأسرها مثل تلك الغرفة المغلقة، لا أعرف لها ولا أمتلك مفتاحًا لعينًا، هل تعلم هذا الشعور أيها الطبيب؟ بأنك قد فقدت السيطرة على حياتك. طِيلة عمري وهذا الشعور المضني يرافقني، والآن أشعر وكأنه قد انفصل عنِّي وتحول لماردٍ عملاق يصيحُ في أذني دون توقف، آه يا إلهي لَكَم أنا مرهق، أخبرني بالله عليك أين رنا؟ ولماذا تلتف تلك الضمادات حول وجْهِي؟ لماذا لم أستطع التحدُّث أو الرؤية عندما أفقت؟ أخبرني بحقيقة ما يجري هنا يا د.مصطفى..

تنهّد مصطفى مع تهدج صوت مازن في الجزء الأخير من حديثة، إن الفتى يبكي، وقد أزعجت تلك الفكرة مصطفى، الذي كرَّس حياته لمقاتلة الحُزن عن طريق مهنته، طرَق مصطفى بأصابعه على حافة مقعده وهو يقول: إن وظيفة المحلل النفسي هي مساعدة المريض في معرفة ما يبغي لاوعْيه إخباره به، إن اللاوعي يُخفي كل أسرارنا يا مازن، كل المواقف التي نتعرض لها وتؤلمنا في حياتنا اليومية، كل الصدمات، نحن نهرُب من التفكير بها، نحتمي بين أحضان الإنكار، أو الهروب من التفكير، هذا ما يفعله وَعْيُنا، يتخلَّص من كل تلك الذكريات في حقيبة اللاوعي، الذي يختزن كل تلك الأشياء المظلمة، لكن اللاوعي ليس بساحرٍ، رغم كل ما نسمعه عنه، لديه قدرة احتمال

هو الآخر. نعم، هو ليس بساحرٍ لكنه عبقري، ويُجيد فنَّ التفريغ، هو أقوى شخصية من وَعْينا، ويبدأ اللاوعي في ممارسة ألاعيبه الخبيثة معنا، أول تلك الألاعيب هي الأحلام.. كل أحلامنا لها معانٍ وتفسيراتٍ دقيقة، لا يوجد حُلم بلا معنًى، اللاوعي يحاول دومًا أن يقول لنا شيئًا عن طريق أحلامنا، مثله مثل صديقك الذي يبتسمُ لك ويربت على كتفك محاولًا تنبيهك في لطافةٍ أنك تسير في الاتجاه الخاطئ، الكوابيس دلاله على التوتر والضغط النفسي، لاوَعْيكَ يحاول أن يلفتَ انتباهك أنك لستَ على ما يُرام، الحلم بمن فقدناهم، لاوعيك يقول لقلبك أن يُعطي لنفسه مساحة الحُزن، لا داعِ للمقاتلة المستمرة أيها القلب الصغير، استرخِ واحْزَن وتذكَّرهم، رحِّب بالألم، لحين يأتي وقت تكون فيه أفضلَ، الأحلام العادية التي لا تُسبب لنا قلقًا هي محاولة من لاوعيكَ أن يقول لك أن تعطي لنفسك مساحة للتخيل والتطلُّع، وهكذا تستمر الدائرة، هناك الأحلام التي لا نتذكرها، والأحلام التي نشعر أنها حدثت حقًا وتختلط بالواقع، كل تلك رسائل من لاوعْينَا، الأحلام التي لا نتذكرها هي صدمات وحقائق لم نُدركها بعد لكن لاوعينا سبقنا إليها. مثلًا: رجل حلم بأن زوجته تخونه، واستيقظ وهو لا يتذكر لكنه موقن بأنه قد حلم بشيء مهمٍّ، ولأن وعيه حجَب الحلم عنه لأنه لم يفهمه، فهو لم يُدرك بعد، لا يتذكر الرجل، ولكن حتميًا بعدها بأسابيع سيكتشِفُ خيانتها، وربما حينئذ يتذكر حُلمه، أو رجل حلم بأنه قد مرَّ بحادثة أوْدَعتهُ في المستشفى، واستيقظ وهو يتذكَّر الحلم وكل شيء.. وبعد أيام يتعرض لحادثة، ما دلاله هذا؟ إن لاوعيه استنتج وتوقَّع أن الرجل مهم، وسيتعرض للحادثة.

- أو أن اللاوعي يتنبأ بالمستقبل.. أو أن الأشياء التي نتمناها تحدُث لنا.

تنهَّد مصطفى دون أن يبذل جهدًا للرد إثْرَ السخرية الواضحة في صوت مازن قبل أن يُردِف: إن اللاوعي رجل يحيا من أجل التفاصيل ولا ينسى شيئًا.. وهو يحاول دومًا إخبارنا بشيء.. فقدان الذاكرة هي صراع قوي بين الوعي واللاوعي؛ الأول يريدك أن تنسى، أن يَحجُب عنك صدمة مؤلمة، ولكن لاوعيك يقاتل من أن أجل إرشادك للحقيقة، ولن يهدأ له بال حتى يُريك إياها..

- حسنًا.. كلام منمَّق وجميل أيها المُحلل النفسي البارع، يا سليل كارل يونج، وماذا بعد؟

- لا داعي للسخرية والوقاحة يا مازن، أنا أحاول مساعدتك، والسخرية هي آلية دفاع ليس أكثر لحجب مشاعرك ونقاط ضعفك.

- أسَتظَل تحلل كل شيء أفعله؟

- أنت دفاعي للغاية وهجومي كذلك، نعم سأظل أُحلِّلُكَ تلك هي وظيفتي.

- أنا.. آه.. أنا

رفع مازن يديه ووضعهما على وجهه المُغطَّى بالضمادات، هزَّ رأسه وهو يتألم قبل أن يهمس: أنا مرهق وتائه.. أنا أريد الصراخ والبكاء والموت.. أشعر باختناق شديد، كأني مقيد، كأن الجاثوم قد وصل ليجلس فوق صدري ويخنقني..

- الجاثوم، نعم، هذا الكائن الأسطوري القادم من الكوابيس والذي يصاحب وجوده ظاهرتين أسماهُما علم النفس بشلل النوم ونوبات الهجوم الليلية، الجاثوم رمزية من لاوعيك للشر الهائل الذي يفسد ويعفن كل شيء، الخطر الرهيب القادم هو الجاثوم أليس كذلك؟ من هو جاثومك يا مازن؟ من الذي رمز له لاوعيك؟ من هو الشخص الذي يدمِّر ويفسد ويقتل ويجعل كل من حوله مرتعب؟

- لكني لم أتخيله

- هناك كوابيس يقظة تمامًا من الأحلام يا مازن، لاوعيك هو من أصابك بشللِ النوم، وهو مَن جعلك ترى الجاثوم؛ لأنه يريدك أن تعرف شيئًا ما.. والآن علينا معرفة ما هو هذا الشيء؟

صاح مازن بصوت جهوري: كيف؟

- يجب أن تتذكر كل شيء يا مازن، تتذكر ما الذي حجَبه عقلك ليحيمك منه، تتذكر حقيقة ما حدَث.. حديثنا وجلستنا أوشَكت على الانتهاء، لقد انتهت مرحلة التحليل، أنت تعانى من اضطراب وهلاوس ناجمة عن صدمة طفولة، لحظة موت والدتك، طبيعتك ترفض الاستفاضة في الحديث بهذا الشأن ولسوف تبغى في الهروب منه، لاوعيك رحب بتلك الذكرى، لكن.. لقد حان وقت العودة، سنُحرر لاوعيك معًا، ونعرف كل أسراره، سنعرف حقيقة ما حدث في ليلة رأس السنة.

- أنا لا أفهم، أنت تتحدث عن موت والدتي وليلة رأس السنة؟ ما العلاقة بين الاثنين؟ أرجوك أخبرني..

- كل شيء مرتبط داخل عقلك، لا يوجد سوى حل واحد الآن لمعرفة الحقيقة..

- وهو؟

- التنويم المغناطيسي..

***

تتسع عينا عبير ويومئ لها آزورد برأسه

***

يمد مصطفى يده لمازن ويقول: سِرْ معي..

***

تمتد يد مازن وتنعقد بين كفّي مصطفى..

***

يسير الاثنان في ردهة طويلة بها غرف على جانبين، غرف زجاجية..

***

يتردد صوت مصطفى داخل عقل مازن: خُذ معي تلك الجولة بين العنابر وانظر للمرضى.. أريدك أن ترى كل شيء..

***

يسير الرجلان في الردهة، وتتلفت أعين مازن وهو يتفحّص

الجالسين خلف الزجاج..

***

يغمغم مازن: لماذا تلك الجولة؟

- لتعرف أكثر عن طبيعة العقل البشري قبل أن نبدأ جلستنا الأخيرة..

***

يتوقف الاثنان أمام غرفة زجاجية بها امرأة تحتضن الهواء وتبكي، تنهَّد مصطفى، ولاحظ مازن أن مصطفى يكرر تنهيدته بنفس الطريقة دون تغيير، كأنها من دِلالات شخصيته؛ المرة خلف الزجاج كانت شديدة النحافة، يبدو عليها الإعياء، شعرها متساقط، تحتضن الهواء كأنه طفل رضيع وتغنِّي له بصوت هامس: أحبك يا صغيري، أحبك يا طفلي الجميل، أنا ماما يا حبيبي..

شعر مازن بألم في قلبه وهو ينظر إليها، كانت منفصله تمامًا عن عالمهم، كأنما عيناها تزوغان في تفاصيل بُعد آخر. همَس مصطفى: الأم الثكلى، أجهضت ابنها غير الشرعي، وبعدها بأربعة أعوام أصابتها تلك الحالة، والآن ركِّز معي، هي عاشت أربعة أعوام في هناء كامل، وتحقَّقت فيها كمديرة قسم موارد بشرية في شركة مهمة، ولكن عشيقها أنجب من زوجته مولودهما الأول، وعندئذٍ أصابتها تلك الصدمة، حالة شيزوفرانيا متقدِّمة، عالم بالكامل تحوَّل لرضيعها الميت، لم تعُد ترى غيره، لم يَعُد هناك عمل ولا شيء، هل السبب أنها دفنت ذكرى الإجهاض في لاوَعْيِهَا لأربعة أعوام؟ أم أنه إنجاب

عشيقها لطفل من أخرى؟ هل امتزجت الحسرة بالغضب لينجم عنهما هلوسة عملاقة ابتلعت تلك المرأة؟ كلها احتمالات ولكن الحقيقة الوحيدة أن إجهاضها لطفلها، تلك اللحظة، كانت بداية النهاية بالنسبة، كانت المؤشر للاوِعْيها كي يُدير محركاته.

همس مازن برهبة: أو أن الجاثوم قد زارها.

- سِر معي يا مازن..

خلف زجاج الغرفة الثانية جلس رجل ممتلئ الجسد، أصلع الرأس، يحدِّق في الفراغ، همس مصطفى: فاقد الأهلية، وجدوه بتلك الحالة في الشارع، لكن ملابسه، والتي كانت عبارة عن بذلة أنيقة وحقيبة يد رجالية، أشادت بكونه ليس بمتشردٍ؛ لذا اهتم به الناس وذهبوا به للسلطات، أترى التناقض البشري هنا؟ لو كان متشردًا لتركوه لحاله حت يموت على الأرصفة، مَن الذي يدفن المتشردين بعد موتهم؟ ثُرى أتتحلل أجسادهم وتضاف للشوارع التي نسير فوقها؟ ابنتي سألتني هذا السؤال، أنت تعلم منطق الأطفال البريء في طَرْح الأفكار، شرحت لابنتي أن السلطات تدفنهم فكان ردها: إذن نحن نعتني بالمتشردين في حالة لو ماتوا فقط، والحقيقة أني لم أجد ردًا عليها، والآن لنعد لحالتنا، لقد وجدوه في تلك الحالة دون حافظة ولا أموال، لا هوية ولا شيء، فقط تلك البذلة والحقيبة الفارغة، لم تكن فارغة حقًّا، كان بها تفاحة مقضومًا منها، لقد ظل هنا لأعوام، لم ينطق خلالها سوى بجملة واحدة، أنا صلاح الدين الأيوبي..

رفع مازن حاجبيه من خلف ضمادات وجهه، وابتسم مصطفى

بمرارة مردفًا: نعم، هناك حقًا مَن يعتقدون أنهم بونابرت، وصلاح الدين، تلك ليست خرافات تلفاز وأفلام، وَاصِلِ السيرَ معي..

هنا تمتم مازن: ابنتك سألتك عن المتشردين وفاقدي الأهلية؟

لكن لم يبد أن مصطفى قد سمِعه وهو يسير أمامه..

التفت مازن وهو يسير للغرفة الأولى حيث الأم الثكلى، كانت تُرضع الهواء الآن، أغمض مازن عينيه بألمٍ، وقال مصطفى دون أن ينظر إليه: أحيانا أعتبِر الغُرف لوحات، وأُطلق لقبًا على كل واحدة منها، تلك طريقتي أنا في التأقلم مع كل هذا الحزن، أستخدم أدوات الفن لتشكيله، كأنه حجر ماثل أمامي، أتتذكَّر مقولة الرسام مايكل أنجلو: " أنا لا أرسُم الحجر لكني أحرر التمثال بداخله " يعني أن لا أحد سواه يرى التمثال، أنا أراها كلوح فنية وأتخيل أن هذا كله معرِض؛ الغرفة الأولى، اللوحة الأولى حيث الأم الثكلى عنوانها: الحُزن، والغرفة الثانية حيث الرجل الصامت عنوانها: الغموضُ، مَن هو هذا الرجل؟ وما الذي حدث ليوصله لاوعيه لتلك الحالة؟

الغرفة الثالثة كانت خالية، ظل مصطفى ينظر إليها بينما وقف مازن جواره بعدم فَهمٍ، ثم رأى الأخير انعكاس وجهه على زجاج الغرفة، بالضمادات البيضاء والعينين السوداوين المتسعتين، هل تلك الغرفة مُعده له هو؟

سار الاثنان في صمت لنهاية الردهة، قبالة الغرفة الأخيرة..

بداخلها رجل نائم، فتح الرجل عينيه كأنه قد شعَر بوجودِهما وهبَّ واقفًا، نظر إليهما بحدقتين مذعورتين قبل أن يهرع نحو الزجاج وهو

يصرخ: أرجوووووووووك أخرجني من هُنا، أرجووووووووووووك يا عدنان.

نظر مازن بعدم فَهم لمصطفى، في حين ظل المريض يبكي ويلطم ويصرخ.. .

- أنا آسف يا عدناااااان أخرجني من هنا..

- هيا بنا.

قالها مصطفى ببطء.

أراد مازن أن يسأل بتهكُّمٍ: وما هو عنوان تلك اللوحة؟

لكنه وجد نفسه يسأل بجِديةٍ: ما الذي حدَث له؟

- اسمه عدنان، استيقظ ذات يوم ليقتُل زوجته وابنه وجيرانه، ثم ذهب لوالدته ووالده، وقتَلهم، قبل أن يفعل نفس الشيء مع ذويه، كل هذا في يوم واحد، وقد استخدم سيخًا حديديًا كأداة للقتل، كان يضعه في أسفل جسدهم ولا يتوقف حتى يخرج من أفواههم، إن وسائل التعذيب تلك لهي خير دليل على توارث الشر في الوعي الجمعي للبشر مختلف أنحاء العالم لك أن تتخيل كم كان موتهم بطيئًا ومؤلمًا، طبعًا قيدهم هو في البَدء قبل أن يولج السيخ بداخلهم، أتريد أن تعرف دافعه للقتل؟

- نعم.

قالها مازن بتردُّد. تنهَّد مصطفى بطريقته المعتاده وأجاب: إرسالهم للجنة، وتخليصهم من ذنوبهم عن طريق الألم، في عقله هو رجل

بريء وقد أسدَى لهم جميعًا خدمة، لكنه الآن في ذاته هو لا يستطيع تحمل حقيقة أنه القاتل؛ لأن العقل البشري شديد التعقيد، ولذلك تجده أحيانًا يتّهم أي أحدٍ من حوله بكونه "عدنان"

كرر مازن كأنه يتذوق الجملة الغريبة: يتهم مَن حوله بكونهم هو.. يتهم.. يا إلهي

- كما أنه مُصاب بجنون اضطهاد، يعتقد أن الكل يتآمر ضده، الكل يتربص به، ويقضي وقته في الرثاء للذات وكثرة التفكير في مؤامرات الغير. الحساسون يعانون تلقائيًا من جنون الاضطهاد بنسبة صغيرة، الشخص الحساس يعتقد بأن الكل يُراقبه، ويسخر منه، بل ويتنمَّر عليه خِلسه، ويعاني من تخيل بعض المؤامرات كذلك..

هتف عدنان من غرفته كأنه يؤكد كلام مصطفى: كلّا كلّا.. هو ليس مصطفى، أنا مصطفى، هذا الرجل هو عدنان، لقد قتلهم جميعًا بالسيخ، واستولى على المصحة بعدما تغلب عليّ وانتحل هويتي، وتظاهر بأنه أنا، أنا الطبيب النفسي صدِّقني، هذا الرجل قاتل مخبول يتظاهر بأنه الطبيب..

ثم صاح الرجل من خلف الزجاج بينما اللعاب يتطاير من فمه: صدقنيييييييييييي.

ضحِك مصطفى وهو يسير جوار مازن دون أن يُعلق، لاحظ مازن غرفة أخرى مظلمة، وقد كان يعتقد أن الرابعة هي الأخيرة فقال: مَن بالداخل؟ آاه د.مصطفى باب تلك الغرفة مفتوح..

وأشار للغرفة، توقَّف مصطفى والتفت للغرفة، كان هناك انعكاس

لجسد رجلٍ نحيف طويل القامة يجلس في الظلال، يصفِّر، ويُدندن، نظر الاثنان للغرفة طويلًا قبل أن يتمتم مصطفى بصوتٍ خافت ولم يفت على مازن تمييز نبرة الخوف في صوت مصطفى: تلك حالة مختلفة قليلًا، لا يوجد متلازمة عقدة الذنب مثل الغرفة الأولى، ولا حالة طمس هوية مثل الغرفة الثانية، لا جنون اضطهاد ولا شيزوفرانيا.. هو ليس بنزيل هنا، بل زائر، أحيانًا يقدِّم لي العونَ، وهو يأتي متى يشاء، ويرحل حينما يريد، هو شديد الذكاء، خارق الذكاء للدقة، قوي الشخصية إلى حدٍّ مذهل، الحقيقة أنهم قد كمَّموا فمه فيما سبق عندما تم حبسه لفتره؛ لأنه لو تحدَّث فهو قادر على إقناعك بفعل أي شيء، أو على الأقل كلماته قد تتلف سلامك العقلي وصحتك النفسية للأبد..

رغمًا عنه شعَر مازن بطاقة نفسية هائلة لهذا الرجل الواقف بين الظلال، وعيناه تلمعان كالقطط إثر الضوء البعيد، ووجد مازن نفسه يهمس بدوره: أنت قلت إنه كان محبوس، لكنه حر الآن؟ يأتي هنا ويرحل عندما يريد! لماذا؟

لم يُجب مصطفى على الفور، كان ينظر للرجل قبل أن يقول: لنَقُل إنه يحب المشاهدة، لا يوجد تصنيف في الطب النفسي لهذا الرجل، لم يجدوا له تصنيفًا بعدُ.. هو سيرحل بعد قليل على أي حال..

نظر مازن بقلقٍ لباب الغرفة الموارب.. قبل أن يرفع رأسه ليجد عيني الرجل ترتكزان عليه، شعَر بأن الرجل ينظر إليه من بين الظلال مبتسمًا، تحسَّس مازن الضمادات على وجهه قبل أن يستدير ويتبع خطوات مصطفى، وخرج الاثنان من العنبر.. بينما صفير الرجل

الواقف في الظلال يستمر بهدوء، ولوهلةٍ خُيل لمازن أنه سمع كلمة " البهجة ".. قبل أن ينفض الأخير رأسه ويواصِلَ السير مع د.مصطفى..

***

وجد مازن نفسه في غرفة مختلفة، انتهى بها بعد مسيرته خلف مصطفى، يجلس فوق أريكة مريحة للغاية، لا مبالغة هنا، تلك أفضل أريكة استلقَى فوقها في حياته، وفكّر بسخرية أن أرائك الأطباء النفسيين ستساعده حقًّا على الحديث، ليته كان في تلك الغرفة بدلًا من الأولى، ثم فَهِم أن الغرفة الأولى مُعدّه له أما الآن فهو يجلس في مكتب مصطفى، أشعل الأخير لنفسه غليونًا ونفث دُخانه، لم يملِك مازن نفسه من الضحك بمرارة، وقال: غليون وأريكة .. أنت تؤمن بالطقوس التحضيرية حقًّا..

نظر له مصطفى بعدم فهم وعقَد حاجبيه، قبل أن يَهُز عود الثقاب ويضحك بتوترٍ..

عاد مازن برأسه للخلف ونظر للسقف الأبيض قبل أن يسأل: ستنومني حقًّا مغناطسيًا؟

- نعم، أنا مرخص لهذا.

- ولسوف أتذكر كل شيء.

- لو أردت أن تتذكر حقًّا، سنصارع لاوَعْيك معًا.. كُن مستعدًّا لرحلة داخل عالم الغرائب مثل ألّيس..

- وأنت الأرنب؟

- هاها.. نعم.. أنا الأرنب.. مرشدك للرحلة..

- أنا أخاف من كوابيسي، لا أريد أن أدخلهم.

وبدأ مازن يتصبَّب عرقًا، بعدما سرت ارتجافة خافتة بجسده..

تفحصه مصطفى جيدًا، لا يريد نوبات هلع الآن، همس مصطفى مبتسمًا: من أجل رنا يا مازن..

التفت إليه مازن مبهوتًا عند ذكر اسم أخته ثم ردّد وهو يحاول الاسترخاء: من أجل رنا.

- كلما شعرت بالتوتر ردِّد اسمها بداخلك ولسوف تكون هي بوصلة هدوئك ونجاتك..

- حسنًا.

ندم مصطفى فورًا على استخدامه لكلمة " نجاتك " فهو لم يكن يريد أن يشير للفتى ضمنيًا أن هناك احتمالية هلاك..

كان مصطفى يُعد لنفسه كوبًا من الشاي الأحمر، ولمازن كذلك، وانبعثت موسيقى فاجنر في الخلفية من آلة تسجيل تخص مصطفى، وشعر مازن بهدوء وطاقة تسيطر على جسده مع تغلغل الموسيقى لخلاياه..

أتى مصطفى وجلس أمام أريكة مازن مغمغمًا وهو يُمسك بشيء ما بين يديه: كنت أفضل بتهوفن، لكن حالتك تستعدي فاجنر، أحيانًا ألجأ لأم كلثوم أو عبد الوهاب كذلك، هل تعلم أن سيمجوند فرويد اعتاد معالجة مرضاه بالموسيقى؟

- لم أكن أعلم هذا، لكن الوغد كان بارعًا فيما يبدو.

ابتسم مصطفى دون تعليق..

ثم رفع ما بين يديه ووضعه أمام أعين مازن..

بندول صغير، أسفله ساعة رملية..

وهمس مصطفى بصوت عميق: أنت الآن لا تستمع سوى للموسيقى.. أغمض عينيك.. ودع البندول يكون هو آخر ما تراه عيناك قبل بدء رحلتك و..

- د.مصطفى

أجفل مصطفى ونظر بغيظ لمازن قبل أن يقول: نعم.

- ماذا عن تعدُّد الشخصيات والانفصام؟

- آه الانفصام هو الشيزوفرانيا ولا يعني بوجود شخصية أخرى، تعدد الشخصيات حالة نادرة، لكنها حدثت وسجلت عدة مرات في العالم عبر العصور، يمتلك المرء شخصيتين أو أكثر، قد يمتلك رجل شخصية طفل وأنثى داخل عقله، تلك الشخصيات تكون حقيقية للغاية، ولديها ذكريات وحياة كاملة، كل منهم يؤمن أنه الوحيد الحقيقي، وأن له الأحقية المطلقة في العرش، ألا وهو جسد المضيف، وهكذا تتصارع الشخصيات للسيطرة على صاحب الجسد وعندما تمكّن الشخصيات فإنها تفعل أشياء لا يعرفها ولا يتذكرها سواهم فقط.. أحيانا يتمكّن المضيف من ترويضهم ومواجهتهم ببعضهم البعض، قد يموت أحدهم في الصراع الناجم عن هذا، ولو

نجح المضيف في ترويضهم فسيبصحوا مثل الأسود الشرسة داخل أقفاصهم، قد يبدو أنهم مطيعون ومتعاونون لكن لو واتتهم فرصة الهروب والسيطرة فلسوف يغتنموها دون تردد..

هز مازن رأسه فأردف مصطفى: سوف أبدأ جلسة التنويم مرة أخرى، لا تقاطعني من فضلك ولا تفكر في شيء سوى صوتي.

- لكن كيف أتحكم في أفكاري و..

- أُصْمت.. سوف أبدا.. مازن.

- نعم يا دكتور.

- والآن نرجوكم الصمت.

الفصل السادس

كان عقل مازن متأهبًا بشدة، واستمرت محاولات التنويم قُرابة الساعة، ظل مازن يفكر ويتخيل..

تسابقت الأفكار داخل عقله على لسان مذيعٍ مبتسم يذيع نشرة أخبار من كوكب جديد تم اكتشافه:

" والآن سيداتي سادتي.. أحدثكم من كوكب نيو - زحيل، هنا سنقوم بتنويم مازن مغناطيسيًا، رغم أن عائلته قد ماتوا، لكن هذا الكوكب غير حضاري وتلك العادات مثل احترام الميت لم تصل إليه بعدُ؛ لذا أتينا هنا لهذا الكوكب، حيث يجلس في الهواء دون جاذبيه، انظروا لمؤخرته وهي تتراقص في الهواء، بعد قليل سوف ينساب صوت مصطفى من على بعد بصدًى من الخلفية كالمسلسلات المصرية القديمة، وسوف ينساب مازن ويسقط صارخًا في دوّامة وهو يتلوّى بذراعيه، قبل أن يسقط على قدميه، سيعتدل واقفًا، ويسير في كهفٍ لاكتشاف الحقيقة، سيرى سيلين بهالة بيضاء، أم أنه سيرى رنا؟ "

كان مازن مغمضًا ويهزُّ رأسه مقاومًا وهو يجلس فوق الأريكة بينما مصطفى ينظر له في صَبْر..

" السخرية آلية دفاع "

" تخلص منها يا مازن "

" من أجل رنا "

" رنا "

"رنا"

"ر.. ن.. ا" .

"رن.. انر"..

ولت السيطرة بعيدًا..

سقطت صريعة وهي تسير بخيلاء..

اغتالوها في موكب مَهيب..

وجنازتها لم يحضرها أحد..

سوى الاتزان الذي بكى على شاهِد قبرها..

وتمتم: لم يأتِ المنطق لجنازتك..

لكن الاتزان لم يكن يعرف الحقيقة..

في زقاق خلفي انهال العبَث بالركلات على جسد المنطق الذي تكوَّر على نفسه بمنطق الشهداء وتحمّل الضربات..

تزاحم الجميع عند مدخل الزقاق ليشاهدوا صراعَ المنطق الأخير..

وجوار العبَث وقَفت الفوضى ترقص بفستان شرقي يكشف جسدَها كله..

وتعالت أصوات المزمار والطبول..

رقَصت الفوضَى ضاحكة..

وانحنى العبَث، ممسكًا بالمنطقِ من فروةِ رأسه، قبل أن يدُقَّ رأسه بالأرض..

انهمرت الدماء كالسيل من وجْهِ المنطق..

ثم هرع الرعاع..

كل هؤلاء الذين قضوا دهورًا محبوسين داخل أسوار مملكة اللاوعي الأعظم..

لقد انفتحت البوابة.. وخرجوا مهلِّلين..

الحزن.. كثرة التفكير.. جلد الذات.. الصدمة.. الألم.. الغضب.. وقاد مسيرتهم سيدهم الأوحد.. الجنون..

نظر إليهم العبَث مبتسمًا، وهو يلهث قبل أن يلتفت بعينين تبرقان للفوضى وقال بصوتٍ ماجنٍ: لقد وصلوا..

انقض الرعاع على المنطق وسحَلوه ثم أخرجوا من الزقاق وهم ينهالون عليه بالضربات..

صلبوه في الميدان، بعدما أفرغوا أحشاءه وتركوه للطيور الجارحة..

هنا تزايد التهليل المنذر بعنفٍ عظيم..

مازن كان يقف مشدوهًا، بلا سيطرة على جسده، ولا اتزان، كان يدور داخل دوَّامات متتالية، بغرف زجاجية، يرى مائة انعكاس لنفسه قبل أن تتهشَّم المرايا ويرتمي جسده داخل دوامه أخرى، يقف

مشدوهًا بلا سيطرة ولا اتزان.. ولا منطق..

وتزايد تهليل الرعاع بينما القلقُ يصيح: لقد وجدتها، الغانية، لنريها الأمَرَّين، لنقطع أطرافها الأربع ونحرقها حيَّة، لنسلخها حيَّة، لنُجْلسها فوق الخوازيق..

كان يجُرها من شعرها ضاحكًا، وهي تولول وتصرخ.. تبكي وتستغيث.. بينما هم يبصقون عليها ويلطموها ويركولونها..

جذبها القلقُ من شَعْرها عاليًا، وأتى الاكتئابُ، حاملًا سيفًا في يده، نظر لها مطولًا، في عينيها، بوجهه الشاحب والسواد أسفل عينيه، بشفتين بيضاويتين لا حياه بهما، نظر لوجنتيها المتوردتين، وجسدها الفاتن، ثم انحنى الاكتئابُ وقبَّل السعادةَ رغمًا عنها، بينما القلق يجذبها من شَعْرها.. وفورَ أن فعل هذا شحب وجهها واسودت وجنتيها، ثم نحَر الاكتئابُ عُنقَ السعادة واستحمَّ الرعاع في دمائها قبل أن يشنقوا جسدها جوارَ المنطقِ..

ينحني مازن من داخل غرف المرايا، ويراقِب ما يحدُث من ثَقبٍ في الحائط..

ثم وقف مازن وتلفت حوله ببطء..

حركته بطيئة وثقيلة..

الأرض تَميد به.. تلتف كأنها عجلة كبيرة.. وهو يدور معها..

كان يسير داخل غرف مرايا كتلك الموجودة في الملاهي..

سمع صوت موسيقى سيرك في الأرجاء من حوله..

الأرض تدور..

مئات الانعكاسات له في كل صَوْبٍ..

جفناه ثقيلان ورؤيته زائغة..

ثم رأى انعكاس وجْهٍ مختلف على إحدى المرايا التي دارت بسرعة..

وجه الجاثوم..

شهِق مازن.. صرخ وبكى..

وترددت ضحكات المسخ من حوله..

صوت الضحكات يتزايد..

يجثو مازن على ركبتيه واضعًا يديه على أذنيه في ألمٍ..

تتهشم المرايا وتتطاير شظايا الزجاج في كل صوبٍ..

نحو وجْهِه..

نحو عينيهِ..

" مازن تتبَّع صوتي "

صوت غائر له ألف صدًى..

" مازن.. تَتبَّع صوتي وأخرج مَن عندك.. من أجل رنا "

لكن مازن يصرخ ويبكي كالأطفال..

وهو يحمي وجهه بذراعيه فتنغرز بهما شظايا الزجاج..

" أمسك بيدي يا مازن "

يمدّ مازن يدَه المرتجفة في الظلام فتنعقد بيدٍ أخرى في الظلام..

" كلا يا مازن، لا تمسك بيدِه، هذا ليس أنا، هذا ليس مصطفى "

" هذا هو الجاثوم "

يصرخ مازن وينقض المسخ عليه ليجثمَ فوق صدره..

يطفو جسد مازن في ظلام هائل..

ظلام مقبرة لها عمق المحيط، تطفو بها الأجساد..

الجاثوم هو سيد اللُّعبة الآن..

الجاثوم يحتضن مازن.. يكبِّل حركته..

لقد ماتت السيطرة ومات معها الاتزان..

الشلل يُحيط بجسد مازن، لا يستطيع الحراك..

كأنه نائم..

لكنه مستيقظ.. .

والمسخ يكبِّل حركته..

مسخ بوجه ضبع.. وجسد قرد..

يلتهم الجاثوم وجه مازن..

" صوت مصطفى صائحًا: مثل السقوط من أعلى داخل الحلم، لو ارتطمت بالأرض ستموت في الحقيقة، ستتوقف كل أجهزتك الحيوية عن العمل، إنها قوة النوم، هذا الجدار السحري الذي نعبره كل يوم غير مدركين، لا تتركه يلتهم وجهك يا مازن، ستموت فعلًا لو قتَلك في الحلم، قاااوم.. من أجل رنا "

" رنا "

" انر "

" من أجل انر.. انر.. انر "

يفتح مازن عينيه ويحاول دفع الجاثوم بعيدًا عنه وهو يئن..

وجه رنا..

ابتسامتها..

رائحتها..

سيفكر بها..

هي السلام وسط حروب الحالم أجمعين..

رنا تحتضنه بعد معاناته في يومه المدرسي

" سأعتني بك دومًا "

لكنه لم يتمكن من الاعتناء بها..

أين رنا.. ؟

ما الذي حدث لها؟

يصرخ مازن في غضب وهو يدفع الجاثوم.. بكل قوة.. ثم تسحبه جاذبية مُفاجِئة ويسقط في دوامة حمراء طويلة ملوِّحًا بيديه ببطء ثقيل قبل أن يسقط وسط أرض خراب..

أمامه تَلَّة هائلة من سيارات مهشَّمة متكوِّرة فوق بعضها.. بخلاف هذا هو في عراء هائل..

السماء مظلمة بلا نجوم ولا قمر..

لكنه يرى رغم ذلك أطيافَ مدينةٍ من على بُعد..

يحاول السير صوب الأضواء المتراقصة..

ويرى رنا أمامه.. يعدو نحوها وهو يناديها لكنها لا تسمعه..

تواصِلُ هي سيرها للأمام وسط صحراء قاحلة..

عواء ضباع.. يا إلهي ستهاجمها..

يعدو نحوها فيكتشف أنه يحرك قدميه فحسب لكنه ثابت مكانه..

" رنااااااااااااااا "

لا مجيب.. تواصِلُ أخته السير أمامه..

ثم يراها تسقط واقفة.. تنغرز قدماها في بحيرة رمال متحركة.. وتتمايل بجسدها..

الحمقاء لا تعرف أنها كلما قاومت ستغرز أكثر..

ولكن ما لو لم تقاوم؟ عليه إنقاذها..

" رنااااا "

تلتفت هي إليه تلك المرة، تسمعه وتستغيث به.. يا لتعبير وجهها عندما رأته..

عندما تعرَّفت عليه.. يا لنظرة عينَي من يفهمك حقًّا، بهما دفء براكين التاريخ كله..

نظرة واحدة صامتة ممن يفهمك، بكل كنوز العالم..

لكن حفرة الرمال المتحركة.. الرمال الناعمة القذرة سوف تبتلعها ولن يراها مرة أخرى..

يمد ذراعيه صَوْبَ أختِه..

" من أجلها "

يحارب ثقل قدمَيه..

يدفع بالاكتئاب بعيدًا.. كذا يحاول على الأقل..

ويعدو نحوها..

تتحرر قدماه من أصفادهما ويصرخ جلدُ الذات بكراهيةٍ..

يعدو مازن صَوْبَ رنا في الصحراء المظلمة بسماء بلا نجوم..

ويعدو ضبع قادم من بعيد يُسابقه..

تمدُّ هي يديها إليها بوجهٍ مُستغيث..

يعدو مازن..

ويرى عينَي الضبع الصفراوين.. الجاثوم..

تتلامس أناملهما.. وتبتسم رنا..

سينقذها.. ثم تخرج عشرات الأذرع من الرمال وتقبِض على عُنق أخته..

وينقض الضبع ليَلْتهِم وجْهَ أخته أمامه..

يصرخ مازن.. ثم يختفي كل شيء مِن حوله..

يدور الفتى حول نفسه في الصحراء مرددًا ومناديًا: أين أنتِ؟ أين أنتِ؟

يسير للأبد..

يسير حتى يدمَى قدمه..

فتمر أمامه قافله تجرّها الناعق.. أم أن تلك أوهام سراب؟

يسقط أرضًا، شفتاه متقترحتان، يكاد ينفق.. عندما يسمع نهيق جمل..

يرفع رأسه وينظر لجمل كبير فوقَه رجل عربي ملثَّم..

" من أنت يا عابر السبيل؟ "

" أنا ظمآن "

" هناك بئر قريبة "

" شكرًا يا عربي، لعلي أعرف اسم منقذِي لأمتنَّ له مدى العالمين "

" أنت لا تعرفني؟ الخيل والبيداء يعرفونني وأنت تجهلني؟! "يدير المتنبي لجام جمله بفخر ويرحل ليختفي وسط ظلال الصحراء دون المزيد من الكلمات..

ينظر إليه مازن بإرهاقٍ، قبل أن يصيح: أنت.. انتظر.. أنا أبحث عن أحدِهم، لكني..

يُردِف مازن هامسًا: لكني مُرهق ولا أعرف عمَّن أبحث..

ثم يضحك، يبكي، ويدفن وجْهَه في الرمال..

هنا تهتز الأرض وتثور.. فيجد نفسه في دوّامه أخرى، يُحيط وجهه بذراعيه ليحتمي من شظايا الزجاج الناجم عن المرايا المهشَّمة بينما الجاثوم يضحك..

" الغووووووووووووث " " ليس مرة أخرى ".

يسقط مازن أرضًا، يرفع رأسه مُسرعًا ليجدَ نفسه في شقتهم القديمة بوسط البلد، قبل أن ينظر بانبهارٍ لما يحدث أمامه..

الشقة.. التي وعد جدرانها بأنه سيعود إليها يومًا ما..

يقترب مازن بيد مرتجفه ويتحسَّس الجُدران، قبل أن يحتضنهم في حب..

يدخل المطبخ، يشم رائحة طهي والدته ويخفق قلبه..

يبكي بلا دموع.. بلا صوت.. يُنَهنه فحسب ويرفع يديه لرأسه..

لشدةِ ما يفتقدُ أمَّه..

يسير في الصالة وينظر لصورة في إطار.. هو ووالدته ومراد ينظرون مبتسمين في نُزهة يوم شَم النسيم..

أجبروه ضاحكين على أكل " الفسيخ ".. كان هذا يومًا سعيدًا، لماذا لم يتذكره من قبل؟

لماذا؟.. أين رنا؟ لماذا هي ليست معهم في الصورة؟

أهي مَن التقطتها لهم؟

يجفل مازن ويختبئ عندما يسمع صوت مفاتيح في الباب، ويرفع رأسه من خلف المِقعد الكبير فيشهق قبل أن يضع يده على فمه ليكتم صوته..

يرى نفسه وهو ابن الأعوام التسعة يسير في الشقة..

مازن الطفل الصغير قد عاد من المدرسة، هنا تتسع عيناه في ارتياع وينظر للتقويم الشهري على الحائط..

اليوم.. التاريخ.. يوم موت أمه..

لهذا هو لا يتذكر يوم شم النسيمإ لأنه اليوم السابق لوفاة أمِّه..

يتذكر فكرة طفولية بأن " الفسيخ " قد قتَلها.. يهزّ مازن رأسه وهو يتذكر القيء والدماء.. يقفز من خلف المِقعد.. يصرخ: اهرب يا صغير، لا ترَ ما سيحدث، اصمدي يا أمي سوف آتي بالجيران.

كان يشعر كأن كل شيء ينهار من حوله.. لكن الطفل لم يسمعه، هو

طيفٌ لا يراه أحد، يقف مازن أمام الطفل وهو يهلّل ويصيح لكن لا أحد يراه..

يقفُ الطفل، ويرى الأمَّ تخرج، تقفُ أمامه..

يصرخ مازن: يا إلهي ليس مجددًا.

تنحني الأم صَوْبَ الطفل..

سوف تقيء دمًا عليه الآن..

قبل أن تسقط جثة هامدة..

ويجلس هو جوارها يمصُّ أُصبعه، يهز مازن الكبير رأسه باكيًا، ويضع أصبعه في فمه مراقبًا ما الذي سيحدث..

تنحني الأم صَوْب الطفل..

وتساعده في التخلُّص من حقيبته المدرسية قبل أن تسير في صمت للمطبخ..

يهز مازن رأسه في عدم فَهم، ويصرخ: لماذا لم تُفرِّغِي جوفَك؟ لماذا لم تموتي؟

" لأن هذا ليس ما حدَث يا مازن، تلك ذِكرى زائفة مِن عقلك، الحقيقة هو ما يحدث أمامك الآن "

تردد صوت مصطفى داخله..

وضع مازن يده على رأسه في ألمٍ.

" أخرِجْني مِن هنا "

" كلا يا مازن، لا تُقاوم الحقيقة، لا تستلم للإنكار والهروب، واجِه، لقد حان وقتُ الحقيقة "

" آه يا إلهي الرحيم أغثني "

" واجه الحقيقه يا مازن، ابْقَ مكانك ولا تتحرك "

يبول مازن داخل سرواله وترتجِفُ يداه، تخرج أمُّه من المطبخ حاملة كوبًا من اللبن الأبيض، تتسع حدقتا عين مازن واللون الأبيض مُنعكس عليهما، يتشنج ويرتجف، كأن نوبة صرَعٍ هائله تنتابه، النوبة الأخيرة التي لا حياة بعدها..

" أُصْمد يا مازن "

ترشف الأم من كوب اللبن، ثم ينفتح باب الشقة وتدخل جارتهم المحجبة مبتسمة، وتُعطي أمة حقيبة ملابس وهي تقول بالحركة البطيئة وبصوت الأحلام الذي تنساب كلماته لعقل مازن دون أن يسمعه حقًّا: الملابس التي طلبتيها يا عزيزتي..

هنا يتعرف مازن على وجه جارتهم المحجبة، شيرين، فتنفجر رأسه وتتطاير دماؤه على الحائط..

يفتح مازن عينيه، هو في الفيلا الآن، عشية ليلة رأس السنة..

يمدُّ رأسه ويختلس النظر الى مائدة العشاء حيث يجلس الجميع..

سيلين.. والدتها.. والدها.. أخوها..

مراد.. شيرين..

أين رنا؟..

انتظر لحظة، والدة شيرين وأخوها؟ والدة شيرين متوفاة، وهي لا تمتلك إخوة، بل أختًا واحدة..

" الحقيقة يا مازن.. الحقيقة "

أين رنا؟

هناك آخر يجلس على مائدة الطعام معهم، لكن مازن لا يستطيع تبَيُّن ملامحه من موقعه الحالي.. يتحرك بجسده للأمام للرؤية بشكل أوضح، ويلتفت الجالس فجأة- الضيف الغامض- صَوْبَ مازن كأنه يستطيع رؤيته، وشَهِق مازن بعدم تصديقٍ عندَ رؤية وجه الضيف الأخير وصاح: مستحيل..

استمر الجميع في تناول طعامهم والحديث كأنهم لا يسمعون مازن ولا يرونه..

" مستحيل "

عدا الضيف الأخير.. الذي هبّ واقفًا عند رؤية مازن..

" مستحيل "

يقطع الضيف الغامض عُنقَ مراد، وتنبثق دماء الأخير لتملأ طبق الطعام، بينما مراد يواصل الحديث والأكل مبتسمًا بعُنق مقطوع، وتسقط قطع الطعام الذي يبتلعه من عنقه المفتوح، يتَّجه الضيف

ويغرز سيخًا حادًّا في أذن شيرين، ليخرج من أذنها الثانية وتسقط إحدى عينيها، انبثقت عيناها للخارج لتسقط في إناء الدجاج..

" دجاجة بثلاث أعين هاها "

التفتت شيرين لمازن بعينها السليمة وغمزت له بدلالٍ..

" كلا اهربي يا سيلين "

يبدو لمازن أن سيلين تتعرف على صوته، تُقطِّب جبينها في شرود كأنها تحاول تبَيُّن صوتَ مَناديها "

لكن الضيف يجذبها من شعرها ويضع رأسها في صحن الحساء المغلي..

" كفَى.. كفى.. كفى "

يلتفت الضيف صوب مازن، ويواصِل طهي الجالسين على مائدة العشاء باستخدام أدوات الطبخ..

ثم يتراجع الضيف وينظر إليهم، جثثٌ مشوّهة تتناول الطعام وتمزح، رغم أنهم موتَى..

ثم يلتفت الضيف فجأة صوبَ مازن الذي تراجع للخلف في ذعرٍ..

يسير الضيف صوبَ مازن..

يجد الأخير نفسه في حالة شلل النوم، غير قادر على الهرب..

يقترب منه الضيف، بعينين صفراوين كعيون الضبع..

رنا، سوف أفكِّر في رنا وحينئذ لن يستطيع إيذائي وسأتمكن من الهرب..

يقترب الضيف..

يحارب مازن من أجل إغماض عينيه..

" أنر.. أنر.. أنر "

تلك الكلمة السحرية الغامضة تساعده على غلق عينيه..

وفور أن يفعل هذا يفكِّر في رنا..

يفتح عينَيه..

الضيف يقترب..

يغمضهما.. " رنا "

يفتحهما.. الضيف يقف أمامه، وهناك سكين تقطيع لحم في يده.

" انر "

كذا يفكر وهو يغمض عينيه..

فيراها أمامه تبتسم له وهي تَمدُّ يدها، مرتديه فستانًا أبيضَ، يرقصون في حديقة خضراء جميلة، يرقصون ويرقصون.. ويتذكر كلمات قصيدة رنا المفضلة " كل صباح وكل ليل، البعض يولد لنسيم مشرق، والبعض يولد لليل بلا نهاية "..

يتعالى صوت الموسيقى..

لن يهم شيء ورنا معه.. ليتعفن ويفسد كل شيء.. هو بين أحضان رنا الآن بفستانها الأبيض في تلك الحديقة الجميلة..

يحتضنها في حب..

تنظر هي إليه بوجهٍ باسمٍ..

يا لنظرة مَن يفهمك تلك..

يدور الاثنان في رقصتهما الأبدية وهما متعانقين..

وتمطر السماء كأنها تحتفل بهم..

لكن.. الأبيض.. رنا.. فستانها.. أبيض..

يتشنج مازن..

قطرات السماء الحمراء تُغير لون فستان أخته وجِلْد وجهها للون آخر.. لأحمر قاتم.. السماء تمطر دمًا..

هناك عاصفة قادمة.. إعصار مَهيب.. تطير رنا من بين ذراعيه..

الأعصار سوف يأخذها..

سوف يأخذها منه، يتمسَّك بيدها وهو يصيح..

لماذا تحاول قوى الطبيعة أخذ أخته منه؟

في البدء الصحراء، والآن الإعصار؟ لماذا؟

" نعم.. لماذا؟ عليك أن تُجيب هذا السؤال أيها المازن "

" أُصْمت أيها اللعين أُصْمت، أمسكي بيدي يا رنا سوف أنقذك "

أمام عينيه المرتاعتين يتمزَّق جسد أخته، ولا يجد سوى يدها في يدِه..

ينظر مازن لليد المقطوعة قبل أن يصرخ، يصرخ بلا توقُّف..

قبل أن تعدو اليد المقطوعة على كتِفه باتجاه عنقه لتقبض عليه وتخنقه..

يختنق مازن ويحمر وجهه، ينفتح صدره ويزرق وجهه..

" قاوِمْ يا مازن، لو متَّ في الحلم ستموت في الواقع، قااااووم "

يسقط مازن أرضًا، الجاثوم يمزق التربة الطينية المبللة للحديثة ويخرج منها وهو يزأر كوحوش البرية..

" قاوم "

يهبُّ مصطفى واقفًا في مكتبه بينما جسد مازن المستلقِي أمامه على الأريكة يتلوَّى، بندول الساعة الرملية يهتز..

مازن مغمض العينين، يصيح الطبيب: أفِق..

يتمتم مازن وهو مغمض العينين: لا أريد، سأبقَى هنا مع رنا.

- ستدخل في غيبوبة أبدية، أفِقْ يا مازن..

- كلَّا، أريد البقاء هنا..

- انر.. هذا هو اسمها بالمقلوب لأن كل شيء معكوس في مرايا الحلم، انر، رنا، انر، أفققققق..

- كلّا، كلا، كلا، إليكَ عنّي.. اتركني لحالي..

يزحف مازن في الحديقة واليد تقبض على عنقه.. الجاثوم يعدو خلفه..

الجاثوم يطارده أعلى تلةٍ عملاقه..

سيارات مهشَّمة في الصحراء..

مازن يسقط فوقهم، اليد تهشم عُنقه..

لحظة الموت..

سيظل مع أخته للأبد.. لن يفرّق بينهما أحد..

لن يفرق بينهما الموت، حتى الموت لا سُلطه له داخل مملكة اللاوعي الأعظم..

يبتسم مازن وتدمع عيناه من أسفل الضمادات التي تخفي وجْهه..

يميل مصطفى بجسده.

***

هناك دومًا مخاطرة في التنويم المغناطيسي

***

يمد مصطفى يده نحو كتفيها ويهزها بعنفٍ قبل أن يطرق بأصبعه وهو يصيح: أفيقي يا رنا.. الآن

تشهق رنا وتفتح عينيها، وهي تسعل بقوةٍ، وتُجاهد من أجل التقاط

أنفاسها، تنظر أمامها، رؤية ضبابية تستعيد دقتها تدريجيًا، ترى بندول الساعة، وجه مصطفى ينظر إليها..

يدها ترتعش..

هناك شيء ما في يد الطبيب..

تتحسَّس رنا عنقها والألم الممض به..

يمد مصطفى يده وهم في مكتبه، بينما هي مستلقية فوق الأريكة، ويعطيها المرآة الصغيرة.. قبل أن يبتسم بهدوء رغم حاجبيه المنعَقدين ويقول: لقد حان وقت فك الضمادات..

بيدٍ مرتجفه ترفع رنا يدها على وجهها قبل أن تهمس: ك.. كلّا.. لا أريد..

- من أجل مازنٍ..

ردّد رنا من خلفه: نزام.

- كلّا يا رنا، مازن، لقد حان وقت إعادة ضبط الأمور لِنصابِها الصحيح..

تضع الفتاة يدها على الضمادات وتصيح باكية: لا أريد..

صمت مصطفى لوهلة كأنه يواجه صعوبة في اختيار كلماته قبل أن يقول: علينا معرفة من قتَل عائلتك يا رنا، ولمعرفة هذا، عليك أنت معرفة مِن أنت في البداية..

تمُدّ رنا يديها المرتجفه وتبدأ في فك الضمادات، التي لم تحاول

أبدًا من قبل أن تفكّها..

تسقط الضمادات البيضاء..

***

وماذا عن تعدد الشخصيات يا دكتور؟

***

طمس الهوية.

***

لقد اختفى العالم من حولها وظلت تتخيل رضيعها الميت.

***

هو يرى أنه ليس عدنان، بل يتهم كل مَن حوله بكونهم عدنان.

***

يعتقد أنه صلاح الدين الأيوبي.

***

المتنمرون ينهالون بالضرب على مازن الصغير في المدرسة، يسقط الفتَى أرضًا ويبكي ويستغيث، ينادي باسم أخته، رنا، التي كانت تجلس مع صديقاتها في الحوش وتضحك معهم دون أن تتوقفَ، رنااااا، تتوقف هي عن الضحك وتتلفت حولها، تتظاهر لثانيتين أنها لم تسمع النداء بسبب الخوف، ركلة من قدم متنمّر تهشّم صفَّ أسنان

مازن، فيخرج اسم أخته غريبًا وهو يحاول الاستغاثة بها، انر، انر، ر.. ن.. ا، تشهق رنا وتقف مجذوعة وهي ترى في رعب ما يحدث، يسقط قلبها ليستقر في مَعِدتها وهي تعدو، تصرخ، تدفع بالمتنمِّرين بعيدًا وهم يضحكون، وتحمل جثة أخيها..

***

موت طفل في مدرسة إبَّان أول يوم دراسي.

***

أنت قتلته، تصيح والدتها بالعبارة وتتركها واقفه وحيده في منتصف الرَّدهة لا تعرف إن كانت ستظل واقفة هنا للأبد أم أن عليها العوده لغرفتها.

***

يا لكل هذا الألم غير المحتمل في قلبها.

***

والدها يجلس واجمًا في عُقر دارهم.

***

تترك رنا فراشها وتدخل غرفة أخيها الخالية، تنظر للفراغ، قبل أن تحتضن الهواء مردِّدة في حب: "سوف أعتني بك للأبد"

***

تقف رنا في مطبخ الفيلا فتدخل شيرين مبتسمة، وتقول: طاهية

محشي ممتازة، يصيح مازن لشيرين: لشدة ما أكرهك.. ويخرج غاضبًا، تظل شيرين مبتسمة؛ لأنها لم ترَ ولم تسمع شيئًا، تنظر فحسب لرنا التي تنظر إليها بارتباك..

***

تنظر شيرين بتوجُّس لرنا الجالسة تحدث نفسها في غرفتها، قبل أن تتبادل نظرة طويلة مع عادل الذي يقول ببطء: سأُودِعها في المَصحة.

فيشير مازن لرنا أن تصمُت قبل أن يهمس: يريد أن يُودِعني في المَصحة.

***

ترفع رنا منظارها الليلي وتنظر للفيلا المهجورة المجاوة..

***

رواية "نساء صغيرات".. شكسبير.. ألا ترين أن كل الشخصيات التي تخيلتها تمتلِك نفس قدر ثقافتك وحبك للقصة والشعر؟..

***

تجلس رنا أمام التلفاز تشاهد في افتتانٍ الأعلاميَّ الشهير عادل الأتربي وهو يقدِّم رقصة غنائية في برنامج ترفيهي ويقول مازن جوارها بتأففٍ: لا أعرف ما الذي يعجبك في هذا الإعلامي الأخرق!!

فتهمس رنا بصوت حالم: ليت فارس أحلامي يكون مثله.

***

انر.. نازم

***

تخرج رنا من المدرسة وتسير مشدوهة وَحْدها.. تقف أمام بائع عصير القصب وتطلب كوبين..

***

تسقط الضمادات من على وجه رنا الجالسة فوق الأريكة أمام مصطفى، تنظر رنا لوجهها، بعينين دامعتين، قبل أن ترفعهما صَوْب مصطفى الذي قال بهدوء: مع مَن أتحدَّث الآن؟ رنا أم مازن؟..

تنظر إليه رنا مطولًا، ثم تهشم المرآة بحركة مباغتة، لوهلة اعتقد مصطفى أنها سوف تهاجمة، لكنها ظلت مكانها، وعادت بإرهاق لتستلقي فوق الأريكة..

- رنا.

- نعم.

- هل تتذكرين الآن؟

- نعم.

- أخبريني، أنا وفيت بوعدي لمازن، استمعت لحكايته وأريته أين توجد رنا، وما الذي يوجد خلف الضمادات، عندما استيقظتي كنت في حالة طمس هوية، جسد بلا شخصية؛ لذا لم تستطيعي الحديث

ولا الرواية ولا الحركة، وعندما سيطرت شخصية مازن على الجسد المضيف، استعدتي حواسك..

- حسنًا.

قالتها رنا بلامبالاة، ببرود، ونبرة حُزن تكوّنت من هموم العالم بأسْرِه..

ثم قالت: أنت أريتني نزلاء العنبر لأني أعاني من كل ما يعانوه هم مجتمعين.

تنهد مصطفى بطريقته إياها قبل أن يقول: نعم ولا.. أردت أن أهيئك نفسًا لما سيحدث عندما تفيقي من جلسة التنويم..

- لقد خدعتني.

- لقد ساعدتُكِ.

قالها بحزم وبطريقة واضحه وأضاف: لا تستلمي لألاعيب عقلك.

- أنا مجرد مريضة بالنسبة إليك.

نظر مصطفى لانعكاس وجهه على المرآة الكبيرة، ورفع يده صَوْب أذنه كأنه يسمع صوتًا ما قبل أن يقول: كلنا نعاني يا رنا.

- كفّ عن مناداتي برنا، أنا لست حمقاء، لن يفيد هذا في أن تتحقق هويتي وكل هذا العبث.. فقط اتركني لحالي، أنا مرهقه وأريد أن أنام.

- كلّا، هذا الخمول لأن مازن يريد أن يأخذ جسدك مرة أخرى، أحيانًا يستضيف الجسد الشخصيتين في نفس الوقت ليتبادلا حوارًا

كاملًا، وأحيانًا يتمكّن الشخص الآخر من السيطرة الكاملة. قاومي الخمول وقاطعته رنا بغضب: لقد سئمت المقاومه، دعني لحالي..

واصل مصطفى حديثه كأنه لم يسمعها: علينا معرفة الحقيقة معًا يا رنا.. .

- أي حقيقة؟ ها؟ حقيقة أن أخي قد مات لأني قد فشلت في إنقاذه..

- متلازمة عُقدة الذنب، متلازمة طمس الهوية، تعدد الشخصيات، والشيزوفرانيا، أنت عانيتي من كل هذا إثر موت مازن، علم النفس الحديث سيلومني على مواجهتك بأمراضك بتلك الطريقة القاسية، لكن الوقت ينفد يا رنا، لم يعد أمامنا الكثير من الوقت، علينا معرفة حقيقة ما حدث ليلة رأس السنة، نحن نعلم أنك قد خلقتي شخصيته بداخلك واحتميتي خلف جدار الإنكار والهروب من الحقيقة، والهلاوس الناتجة عن الفصام جعلتك تتخيلي حياة كاملة، كل ما مررتي به يا صغيرتي هو إجابة لسؤال " ماذا لو؟ ".. ماذا لو لم يَمُت مازن في تلك الليلة؟ ماذا لو أنقذتيه وخرجتما معًا في نزهة بالمدينة، وسرتما معًا واشتدت علاقتكما؟ ماذا لو أنكم أصبحتم أصدقاء مقربين، ما الذي سيحدث حينئذ؟ خلقتي بعدها عالمًا كاملًا من الهلاوس، عادل الأتربي المذيع الشهير أصبح خطيبك، أنت ذهبت وهاجمتيه بالفعل عند مبنى الإذاعة وأنت تتلبسي شخصية مازن، وحرّر لكم محضرًا وأعطاه والدك تعويضًا ماليًا، لقد دارت بينكِ وبين مازن محادثة كاملة عن اعتداء عادل عليكِ، الحقيقة أنك كنتِ تشعرين بالغيرة من علاقة مازن الوهمية بالفتاة العمياء،

وأردتي جذب انتباهه والتأكد من حُبه وغيرته، لاوعيك أراد هذا، ومن هُنا أتت واقعة مبنى الإذاعة والتلفزيون، أتعلمين لماذا خلقتي لمازن قصة حب مع سيلين؟ ولنفسك مع عادل؟ لأنكما كبرتما داخل عقلك؛ لأنك أصبحتي في العشرينيات في حقيقة الأمر، عندما دخل مازن حالة التنويم لم يستطع إيجادك أبدًا مع أحد داخل أحلام لاوعيك، لأنكم دومًا تروا بعضكم البعض فحسب، تلك الجملة التي كنتي ترددينها وأنت في حالة السبات، نظرة واحدة ممن يفهمك حقًّا تغنيكِ عن العالم، أنت كنتِ تنظرين للمرآة يا رنا، مازن بداخلك فحسب، وطيلة حياتك وأنت الشخصية المسيطرة على جسدك، هو طفيل، لا أقصد إهانة لا تتحفزي، هو ضيفٌ بداخلك، لكن المرة الأولى التي استولى فيها مازن على جسدك بالكامل، كانت إبَّان ليلة رأس السنة، شيء قد حدَث في تلك الليلة، شيء له علاقه بحادثة طفولة لا تخصُّ مازن..

كاد مصطفى أن يقول: " لكن مازن أتى لحمايتك في ليلة رأس السنة ليقيك أهوال ما حدث" لكنه عدَل عن قول هذا، لا يبغي الإيحاء لها أن مازن هو مُنقذها..

" ولكن تلك هي الحقيقة ".

" مازن هو منقذها ".

" لِمَ لا تدعني أقود جسدك قليلًا يا دكتور "

" أنت خبَّئت عنَّا حقيقة أن مازن هو رنا لتختبر ذكاءنا، لم تُرسل لنا تلك الوجبة "

" إلى د.مصطفى، ستظل بدين للأبد وستحيا وَحْدك في شقتك، اترك لي جسَدك، هاهاهاهاها "

دوّت ضحكة كاليجورا بقوة داخل أذن مصطفى، وتألم الأخير، ثم مسح العرَق من على جبينه، نظر لانعكاس وجهه في المرآة الضخمة بمنتصف المكتب وأردَف لرنا الشاردة: شيء قد حدَث في ليلة رأس السنة، تسبَّب في استيلاء مازن على جسدك و..

صرخت هي: لا تقل استيلاء، جسدي له، أنا كلي مِلكه، ليفعل بي ما يشاء، اخرس أيها الكهل الدميم اخرس..

وبكت رنا بحرارةٍ وهي تكرِّر: جسدي له، أنا مِلْكه.

- رنا توقَّفي عن قول هذا الآن.

- جسدي له، أنا مِلكه.

ظلت تردد العبارة بإرهاق وجفناها يثقلان كأنها مخدَّرة، هبَّ مصطفى واقفًا وهو يصيح: رنا..

فتحت الفتاة عينيها، ببطءٍ، واعتدلت بابتسامة واثقة وهادئة، وعينين لا حياة لهما، بتعبير وجه قانطٍ قليلًا، قبل أن تقول بسخرية: مرحبًا يا دكتور.

بشكٍّ سأل مصطفى: مع مَن أتحدث الآن؟

- مَن تعتقد؟

- مرحبا يا مازن..

- شكرًا لأنك قد وفيت بوعدك، لقد اطمأننت على رنا أخيرًا..

ثم شخر مازن فجأة ورمى مطفأة صوبَ المرآة الكبيرة ويهشِّمها، وصرخ: لا مراايا

رغمًا عنه رفع مصطفى حاجبيه، رنا كانت تتحدث بصوت رجولي، كأن روح مازن قد استحوذت عليها، وصاحت أرابيلا في أذن مصطفى: الأرواح حقيقية، لا يوجد تعدد شخصيات، بل هو استحواذ من الموتى.. روح أخيها قد تلبستها..

وأضاف تشابلن: بعض نظريات كارل يونج عن الوعي الجمعي تشير ضمنيًا لهذا.. لكني أعتقد أن تغير صوتها دليل على قوة تأثير العقل الباطن في الإيحاء..

نفض مصطفى رأسه وهو ينظر لرنا.. لمازن..

- حسنًا يا مازن لا مرايا، أين رنا لو سمحت لي بالسؤال؟

رفع مازن رأسه وقال بتحفزٍ: لماذا تسألني عن أختي؟

- أنا طبيب، وأريد الاطمئنان فحسب..

قالها مصطفى بثبات نفسي وهدوء، دون أن يرفع يديه مهدئًا الفتى، أي إشارة لغة جسد خاطئة ستجعل مازن ينقض عليه كالأسد.. عليه أن يظل " الألفا " المسيطر..

ببرود أجابه مازن: هي مرهقة، نائمة فحسب..

- حسنًا، مازن هل أنت الشخصية المسيطرة على الجسد الآن؟

- نعم

- لماذا؟

- لأن رنا قد أُرهقت من تلك الحياة.

كان مصطفى يعلم خطورة هذا جيدًا، أن تَضمُر شخصية المضيف وتختفي في القاع دون عودة في حين يحتل أحد الشخصيات الأخرى الجسد للأبد..

- مازن.

- نعم.

- أنا أريد مساعدتكم.

- حقًّا؟ يا لك من رجل لطيف.

- مازن هناك سبب مهم، لكوني أريد المساعدة.

- وما هو؟

- أنا لست كباقي الأطباء.

- غير مهتم.

قالها مازن وهو يهز كتِفه بينما شَعْر رنا يهتز بنعومة.

- مازن.

- هممم.

- هل قتلت والدك وزوجته في ليلة رأس السنة؟

- بالطبع لا، أي سؤال هذا؟!

- هل قتَلتهم رنا؟

احمرَّ وجه مازن غضبًا ونظر مُنذرًا لمصطفى الذي ظل ثابتَ الجَنان، حدَّق الاثنان ببعضهما البعض، قبل أن يزفر مازن ويرد: كلَّا، رنا لم تقتُل أحدًا..

- إذن، يا مازن، هلّا أخبرتني بحقيقة ما حدث ليلة رأس السنة؟ من الذي قتل مراد وشيرين؟

وضع مازن يده على رأسه في ألمٍ، وهمس: لا أتذكَّر..

- مازن أنت قد استعدت ذاكرتك بالكامل بعد جلسة التنويم المغناطيسي، أتْرك الحقيقة تنساب لعقلك ولا تقاومها..

***

- أحمق أحمق أحمق.

صاح كاليجورا، وهو يتراقص يمينًا ويسارًا، قبل أن يُشير لتشابلن بغضبٍ وهو يصيح: كيف لم نُخمن أن مازن هو رنا؟

- كانت مفاجأة حقيقية، لم أكُن لأتوقع..

آزورد كان يفكر بعمق وأرابيلا تراقب شِجار تشابلن مع كاليجورا باستمتاع، عبير كانت تجلس متلاحقة الأنفاس وهي تلتهم كل ما يتم عرضه أمامها على البلورة السحرية، ثم هبَّت عبير واقفة وصاحت: أشعر بالدّوار..

- أنت بحاجة لمعرفة الحقيقة، كلنا الآن بحاجة لمعرفة هوية القاتل، وكل هذا التأهب يدفعنا صوب حافة الجنون..

- أهَذا يعني أن شيرين لم تتحرش بمازن، آه طبعًا هي لم تفعل هذا لأن مازن هو رنا، يا إلهي، وسيلين وعائلتها شخصيات وهمية، وهذا يفسر الخلط في الحلم بكون والدتها حيّه، وأن أختها تحوّلت لذكَر..

- وفي هذا نوع من الرمزية خفية لمازن ورنا كذلك..

- لماذا هلوسة تحرش شيرين بمازن؟

- لأن رنا تكره زوجة أبيها، وبالحتميه مازن يبغض المرأة كذلك، وهكذا في عقلهما تصرَّفت هي كأنها الشيطان.

- لكن.. والده حقًا قوّاد أليس كذلك؟ وشيرين بماضيها المشين هذا، كل تلك معلومات حقيقية.

- بلى، حقيقة واحدة كانت محجوبة وهي أن شيرين اعتادت أن تكون جارتهم عندما كانت والدة رنا على قيد الحياة.

- لماذا لم تقئ والدة رنا دمًا وتموت في الحلم أمام مازن؟

- لأن الوالدة فعَلت هذا حقًّا أمام رنا وليس مازن، لو كان هذا هو حلم رنا لكنّا رأيناها تفعل هذا..

بقشعريرة أضافت عبير: كلما أتخيل رنا تجلس وَحْدها في الحقيقة مُمسكة برواية "نساء صغيرات" وهي تعتقد أنها مازن وتحدّث الهواء على أنه سيلين..

- الفتاة قد عانت بشدة.

- كل هذا بسبب موت مازن.

- كلَّا.

التفتوا جميعًا لتشابلن الذي قال: موت مازن هو أهم عامل، لكن شخصية كتلك، هناك عوامل أخرى، كالتعرض لإيذاء مستمر والجينات الوراثية..

- وماذا عن شلل النوم؟ ونوبات الفزع الليلية؟ والجاثوم؟ ومن قتل مراد وشيرين عشية رأس السنة؟

- أعتقد أننا موشكون على معرفة التفسير خلف كل هذا..

نظرت عبير بطرف عينيها لإسماعيل الجالس بصمتٍ وسط الظلام، لا يبدو أنه يريد أن يضيف شيئًا..

هنا صاح كاليجورا ضاحكًا: أرسل برقية لمصطفى يا تشابي، أخبره أنه يسأل السؤال الخاطئ، لا يجب أن يسألها عما حدَث ليلة رأس السنة.

ثم كرر كاليجورا ما هتَف به في البداية: أحمق.. أحمق.. أحمق.. قل له ألَّا يسأل عن النتيجة، بل السبب، أخبره الآن بأن يسألها سؤالًا واحدًا فقط، ما الذي يوجد داخل الغرفة المغلقة في الفيلا؟..

***

مال مصطفى للأمام صَوْب مازن، نظر إلى عينيه، ثم سأله: ما الذي

يوجد حقًّا داخل تلك الغرفة التي أبقاها والدك مغلقة يا مازن؟..

أغمض مازن عينيه، كأنه يسمع لحنًا خفيًا، ثم فتح عينيه وابتسم بهدوء، ثم همس: سوف أخبرك لو وعدتني بأنك لن تقول لرنا.. هي لن تتحمل معرفة مَن الذي يوجد داخل الغرفة يا دكتور..

فكَّر مصطفى قليلًا، صاح كاليجورا: أعطِه وعدَك.. الفضول يكاد يقتُلني..

ظل مصطفى صامتًا، وهو يفكِّر، عليه البقاء في وضع الأقوى أمام مازن، هناك مخاطرة في تسليمه إياه بالوعدِ، ربما يهشِّم مازن رأسه لو شعَر أنه هو المُسيطر، لكنها مخاطرة بنسبة صغيرة، أو هكذا أقنع نفسه، هو حقًّا يريد أن يعرف، وهناك مخاطرة في إظهار تردّده باتخاذ القرار، وهكذا هزَّ مصطفى رأسه موافقًا..

ظل مازن ينظر إليه مبتسمًا.

- أعدك يا مازن..

تحرك مازن للأمام..

وقال: شكرًا لك، والآن قبل أن أخبرك بحقيقة ما الذي يوجد داخل الغرفة..

أمسك مازن برأسه فجأة في ألمٍ قبل أن يردف بوجهٍ واجمٍ: أنا أرى كل شيء؛ حديثك عن الغرفة تلك، ما هو تعبيرك؟ الحقيقة تنساب لعقلي، يا لكلام الأطباء هذا، لقد تذكرت كل شيء، كل ما حدث في ليلة رأس السنة، ولكي أخبرك حقًّا بما حدَث، يجب أن آخذك معي

لنفتح الباب المُغلق ونرى ما الذي ينتظرنا داخل الغرفة، لكن هناك شيئًا أريده في البَدء..

تنهَّد مصطفى، هذا ما كان يخشاه، لقد فشِلت المخاطرة، فقط بدلًا من الهجوم الجسدي، هو هجوم معنوي، أردف مازن: أريدك أن تخبرني بسِرِّك يا د.مصطفى، أخبرني بسرِّك، ولسوف أدلي إليك بهوية القاتل الذي تبحث عنه..

ثم مال مازن للأمام مقلدًا طبيبه النفسي وأردَف: أخبرني بكلِّ شيء..

الفصل السابع

في البدء وقف تشابلن باحترام، ومثله فعل آزورد ثم انضمت إليهما أرابيلا وهي تطلق تنهيدة حسرة طويلة، كاليجورا جلس القرفصاء وظل يكرر كالأطفال: لا أريد الذهاب، لا أريد الذهاب.. نظرت إليهم عبير بعدما فهمت، ما الذي يحدث؟ نظر إليها آزورد في صمت متعاطفًا وقال تشابلن: الآن سنذهب جميعًا لمشاهدة الذكرى الأهم لمصطفى، طالما هذا جزء من صفقته مع مازن ليخبره بهوية القاتل، معلومة مقابل أخرى، هيا بنا يا رِفاق..

لاحظت عبير أنه رغم كل شيء فإن أيديهم ترتعش، وتشابكت أصابعهم كأنهم يستمدون القوة من بعضهم، انضمت هي إليهم بحيرة، في حين ربَّت تشابلن على كتف كاليجورا مضيفًا: هيا بنا..

وقف كاليجورا وقد رسم تعبيرًا حزينًا على شفتيه الملطختين بالطلاء الأحمر-مُهرِّج حزين- وسار معهم.. إلى الركن الأيمن من المسرح، مروا جوار إسماعيل يس فنظروا إليه في صمتٍ متسائلين إن كان سيأتي أم لا، نظر إليهم " أبو ضحكة جنان " وغطَّى وجهه بيديه بطريقة مُضحكة وهو يقول بصوت مضحك: " يا دلعدي " " يا عيني "

- لن يأتيَ، هيا بنا ..

تركوه ووقفوا في الركن، تبادلوا نظرة طويلة، ثم مدَّ كاليجورا وأزال بعض الغبار فوجدت عبير لدهشتها مقبض باب، أداره المهرج ودلفوا لغرفة صغيرة بها شاشة عرض بيضاء، جلسوا في صفٍّ مقاعد

أمامية، وبعد قليل بدأ بث مقطع فيديو على الشاشة..

مقطع فيديو لعائلة تسير في شوراع القاهرة، هناك أم حُبْلى، وفتاة مراهقة شديدة الجمال تسير مع أمها، الكاميرا كانت تهتز في يد المصور الذي كان يمازحهم بصوتٍ صبي كلَّ حين وآخرَ، هو الابن إذن، ومعهم سار مصطفى، الذي لم يكن وحيدًا ولا حزينًا حينئذٍ..

سمعت عبير صوت نهنهة فالتفتت جوارها لتجد دموع أرابيلا، كاليجورا يدفن وجهه في يديه، وتشابلن ينظر للشاشة في حزن عميق وكذا فعل آزورد.. سمعت صوتًا من خلفهم فالتفتت لترى إسماعيل يس وقد انسل خلسة للغرفة وجلس في مقعد خلفي، كان يبكي هو الآخر، شعَرت عبير بانقباضٍ في قلبها، وعادت لتنظر للشاشة، للحظات الأخيرة لعائلة د. مصطفى..

***

أحيانًا نتعرض لصدمة لا يستطيع عقلنا استيعابها، فنهرب للإنكار، وينتج عنها الهلاوس وربما تعدُّد الشخصيات.

***

تحدث مصطفى ببطء بعد أن نظر لنفسه في انعكاس المرآة الكبيرة المهشّمة، رأى عدة وجوه صغيرة لنفسه، وأمامه جلست رنا تستمتع بشخصية مازن..

يتحدث مصطفى دون توقف، ولا تعبير وجه، دون تغير في نبرة صوته، كأنه قد تحول لإنسان آلي، يقص ما حدث في رتابة وآلية:

" لكني لا أحب الخروج في وسط البلد يا أبي "

- لازلت أتذكر جملة ابنتي تلك كل يوم، هي لم تكن تريد الذهاب لهناك، لكني كنت قد وعدت زوجتي وابني، كنت أقود السيارة وهم جالسون يتمازحون، أتت إلينا فكرة النزهة العائلية بعد مشاهدتنا لفيلم قديم، وقالت زوجتي ونحن نشاهد الفيلم: انظر إليهم، لا هواتف خلوية ولا مواقع تواصل، لا أخبار سلبية، عائلة لطيفة في زمن " الأبيض والأسود " يخرجون معًا لقضاء يوم في المتنزَّه، وانظر إلينا نحن الآن ".. نظرت لأجد ابنتي تنظر في هاتفها وكذا يفعل ابني، رفعت ابنتي رأسها إليّ في خُبث وابتسمت ثم عادت بعينيها للهاتف المضيء، لم أمْلِك سوى أن أبتسم، هي ذكية وتسمع كل شيء، لكن زوجتي مُحقة، لم نتبادل حديثًا حقيقيًا كعائلة منذ فترةٍ، كأن مفردات هذا العصر تسلُبنا الروح الحقيقية لما يجب أن يكون، ومن هنا أتت فكرة النزهة بالطريقة التقليدية دون تكنولوجيا. في البَدء لم يتحمس الأبناء، لكننا أصررنا فتظاهروا بالتحمس من أجلنا وأنا قدَّرت هذا كثيرًا، الجزء الناضج في أولادي، لشدة ما أنا فخور بهم، وبينا نجلس عند مائدة المفاوضات بشأن مكان الخروج اندلعت الاقتراحات النارية..

" أريد الذهاب للتجمع "، " كلا السينما "، " لنذهب للملاهي "..

احتد النقاش، وفي النهاية قالت زوجتي وهي تربِّت على مَعدتها: تصويت، خروجة على النيل ونُزهة سيرًا على الأقدام في وسط البلد.

رفعتُ يدي معها، فهتفت ابنتي: اثنان ضد اثنين، وسط البلد ضد

التجمع..

- كلَّا، ثلاثة ضد اثنين.

وربتت زوجتي الحُبلى مرة أخرى على مَعدتها فصاحت ابنتي ضاحكة: غِش، وفرض رأي و..

وذهبنا ضاحكين لوسط البلد، ركنَّا السيارة وقرَّرنا السير على أقدامنا، بعد أن استطعنا بمعجزة إقناع أنفسنا بترك الهواتف الخلوية في المنزل، فقط حمل ابني كاميرا التصوير، وغمغمت أخته مشاكسة: على الأقل معك شيء يسلِّيك..

ذهبنا وتناولنا الحلوى، جلسنا في مقهًى قديم وشربنا الشاي، وغمغمت ابنتي: لا أفهم ما هو المثير في الجلوس بمقهى في الشارع والسيارات السريعة تكاد تطيح بنا جميعًا..

- استمتعي بالخروجة، بالتفاصيل..

- ليتنا لم نشاهد هذا الفيلم الأخرق، وماذا الآن سنغني ونقدِّم عرضًا راقص مثلما فعلوا في مشهد المتنزه؟ ماذا كان اسمه المغني على أي حال شكوكو؟

- يا مصطفى أغثني ابنتنا لا تعرف الفرق بين شكوكو وإسماعيل يس، كان إسماعيل يس في الحقيقه هو صاحب هذا المشهد، وقد استوحى المشهد من فيلم قديم لتشارلي تشابلن، وقد استلهم الأخير بدوره هذا المشهد من قصة كابينة الطبيب كاليجورا الألمانية، ويقال إن القصة الشهيرة لها علاقة بقصة ذات الجمال الأبيض والساحرة

الشريرة التي تتحدث مع المرآة، وهناك دراسة تحليلية نقدية تقول إن حكاية غادة الكاميليا أشارت ضمنيًا للعلاقة بين الساحرة الشريرة وذات الجمال الأبيض..

- ماما نحن لسنا في كلية الألسن الآن لا تحوّلي الأمر لمحاضرة منك عن الدراما أرجوك..

ابتسمت رغمًا عني وأنا أنظر لمشاكستهم المستمرة، بينما ابني يواصل التصوير.. كان هناك قط شارعٍ ينظر إلينا في ملل وينتظر انتهاء المزاح لنعطيه أي طعام.. و فجأة أطلق القط فحيحًا وتكور على نفسه بعد أن تقوّست أذناه..

لمحتهم قادمون من على بُعد، وشعَرت بانقباضٍ غير مبرر بدوري، هل تعلم أن بإمكان الحيوانات توقُّع الزلازل والكوارث الطبيعية وتتحفز من أجلها؟ هذا ما حدث للقط، والجزء الحيواني بداخلي انقبض بغير منطقية كذلك؛ لأنه توقَّع الكارثة القادمة، هناك دومًا جزء متأهب داخل الرجل، وهو خارج بيته مع عائلته، الجزء القديم الذي ورِثه وعْينا الجمعي من رجل الكهف، كان رجل الكهف يتوقَّع الهجوم من ذئب أو دُبٍّ وهو يستحم مع عائلته في النهر، الآن يحدث نفس الشيء، لكن بدلًا من الذئب والدب هناك المتحرِّش والصعلوك، كانوا أربعة، يسيرون في الشارع كأنهم يملكونه، بملابس رثَّة؛ أحدهم يحمِل عصًا خشبية ينتهي طرفها بمسمار حديدي، قطَّبت جبيني وأنا أنظر إليهم، هل هم سُكارى؟ هناك اثنين منهم في منتصف العمر، وشاب، ولدهشتي الرابعة كانت امرأة ملطخة بالأثمال، هم عائلة إذن، مثلنا، مع القليل من الاختلافات، لم أكن أنظر إليهم كمحلل نفسي،

بل كرجل يتمنى ألا يرى هؤلاء - بنظرتهم الجائعة - ابنته الجميلة والرقيقة، أدركت مِن نظرتهم التائهة أن أربعتهم تحت تأثير مخدِّر ما، هم شديدوا الفقر، أنا ايضًا كنت شديد الفقر، وأتيت من قرية، نِمت في المحطة وذاكرت على ضوء مصباحٍ وأنا أعمل في مخزن لأستطيع دخول الكلية، لكن بَدَا لي أن طموحهم يختلف عنِّي، نعم نعم، سيمرون جوارنا دون أن يرونا، لاحظت أن المارة يتحاشونهم في الشارع، إنها وسط البلد حيث كل شيء ممكن، حبستُ أنفاسي، هم يمرون جوارنا من الجهة الأخرى الآن، لم يرونا، ثم ضحكت زوجتي فجأة إثر شيء قاله ابني، تلك الضحكة العالية والواثقة لسيدة تعلم أن زوجها يجلس جوارها وقادر على حمايتها من أي شيء، بعض النساء تتجوّز لهذا السبب فقط، ورأيتهم يتوقفون، انحبست أنفاسي تمامًا، استدار الشاب ونظر إلينا وقال شيئًا، فالتفتوا جميعًا وارتكزت أعينهم على ابنتي، طبعًا اعتقدوا أنها صاحبة الضحكة، الجمال يستفزهم، والسعادة تطيِّر صوابهم، رأيتهم يعبرون الشارع متجهين إلينا، قلت بتلعثم: لنجلس داخل المقهى..

لكنهم وصلوا إلينا بسرعة خاطفة، ووجدتهم أمامنا في المقهى ذي المقاعد في الشارع جوار السيارات وحافلات نقل العالم السريعة، المقهى الذي أصررنا على الجلوس به لأنه يحمل نكهة وسط البلد، كانت المرأة تنظر إلى زوجتي وابنتي بمقتٍ وغلٍّ رهيب، في حين قال الرجل بعينين شبه مغلقتين ولسان ثقيل: أعطنا عشرة جنيهات يا رجل، مَن معه يجب عليه إعطاء مَن ليس معه..

في البدء اعتقدت زوجتي أنهم باعة متجولون، ثم تلاشت

ابتسامتها وصمتت عندما رأتهم، ابنتي تظاهرت بالنظر للمنضدة، وضع ابني الكاميرا على المنضدة وأصبحت عدستها مصوبة ناحيتهم دون أن يقصِد، وظل ينظر إليهم في تحفُّز، كانوا يرتدون زيًّا رثًّا خاصًّا بمخزنٍ لتوريد البضائع، رأيت اسم المخزن بوضوح على ملابسهم، ثم رفعت عينيّ، ونظرت إليهم، وانساب الرعب لقلبي، تلك اللامبالاة المخيفة في أعينيهم المخدرة ونظراتهم الزائغة، هم لا يمتلكون شيئًا ليخسروه، ونحن الآن هدفهم الوحيد، بحثَت عيناي عن النادل في المقهى، كطفلٍ يريد الاستغاثة بالمعلم، لكن مثلما حدَث معك يا مازن، المعلم لم يظهر، والاستغاثة لم تجدِ، مدَّ أحدهم يده ليأخذ الكاميرا، في حين نظر الآخر لابنتي وصاح: سوف تأتي معنا يا حلوة..

بينا اقتربت المرأة وتحسست بطن زوجتي المنتفخ بجنيننا القادم وقالت: ألا يكفيكِ اثنان، تريدين الثالث؟

لقد اقتحموا مساحتنا الشخصية، هدّدونا، ولم يفكروا في عواقب، هذا ليس مجرد تحرش، بل اعتداء، ولوح صاحب العصا الخشبية المنتهيه بالمسمار كأنه محارب من قبائل البربر في وجه ابني صائحًا في تحدٍّ: علام تنظر؟

همست لابني: لا تفعل شيئًا.. تجاهلهم..

وصحت داخل عقلي: يا إلهي أين النادل؟ أين الناس؟ .. بينما ارتكزت عيناي على الأربعة وقلبي يخفق كبِناية متهاوية، متساقطة، حجر تلو الآخر.. طاخ طاخ..

كانوا يقيِّمونا؛ ولأننا لم نأتِ برد فعلٍ، قرَّروا التمادي..

فمدَّ الرجل الآخر يده صوب جسد ابنتي..

احمرَّ وجه ابني وقفَز صائحًا بشيء، وتذكرت مشهدًا حكاه لي زميل عمَل من قبلُ عن بلطجية يمزقون رجلًا بالسيف في المطرية..

هوت العصا على وجه ابني ليستقر المسمار داخل عينه..

حدث الأمر بسرعة رهيبة لا تُصدق.. بينما يد الآخر تعتصر جسد ابنتي..

سمعت جلبة من خلفنا، وصياح، سيتجمهروا ويتصايحوا لكن أحدًا لن ينقذنا..

هببت واقفًا، لم يبدُ لي أنهم يُعيروني اهتمامًا، أنا لا شيء بالنسبه إليهم، لا شيء..

رأيت المرأة - للوعتي - تجذِب زوجتي من حِجابها وتَلْكِمها في مَعدتها وهي تصرخ: ألا يكفيكِ اثنان؟

انتزع الشاب العصا من وجه ابني وظل يهوى بها بسرعة جنونية على أم رأسه حتى سقط ابني غارقًا في دمائه جوار الكاميرا على المنضدة..

قفزت للأمام فالتحمت مع كبيرهم الذي عضَّ أذني ودفَعني للخلف ثم لطَمني على وجهي، لم أنس رائحته أبدًا، رائحة الكراهية والمقت، رائحة المخدرات التي أودت بعقولهم للجحيم وتركت العنان لغريزتهم الحيوانية، الرائحة التي دمرت حياتي.. يا إلهي كيف

تفاقم الأمر وتطوّر لهذا الحد؟ أي كابوس هذا؟ من دقائق كنا نجلس سالمين..

تلقيت ضربة من العصا فسقطت أرضًا، أحدهم كان يضحك كالمهرِّج ويتراقص، زوجتي تدفع بالمرأة وتجذِب ابنتنا من بين أذرعهم وتحتضنها متراجعة للخلف، أنا أسقط أرضًا وأقدامهم تنهال عليّ بالضرب، أحاول الوقوف..

أنظر لزوجتي..

أحاول أن أقول شيئًا..

زوجتي تتراجع للخلف وهي تصرخ بهم ببسالة، وهي تحتضن ابنتنا الباكية، بينما هم يضحكون ويقتربون منها، وهناك حافلة ضخمة تقترب بسرعة من خلفها..

أرفع رأسي محاولًا تحذيرها لكن ركلة أخرى تدفع بوجهي للارتطام بالأسفلت..

رأيتهم يحذرون بعضهم البعض من الحافلة ويتوقفوا..

لم يُحذِّر أحد زوجتي ولا ابنتي المحتميه بين ذراعيها..

تذكرت اللحظة الأولى التي احتضنت فيها زوجتي ابنتنا بعدَ ولادتها، كانت تحتضنها بنفس الطريقة الآن وتبكي أيضًا..

بوق الحافلة ينطلق.. أنا أصرخ.. تلتفت زوجتي للخلف وتشهق، قالت شيئًا ما، لم أسمعه، وليومنا هذا أحاول تبين ما قالته، يا إلهي ليومنا هذا أحاول تبين ما قالته.. .. وأمام عيني تلتهِم إطاراتُ

الحافلة جسد زوجتي وابنتي وابننا الذي لم يولد بعد..

مر بذهني وجه الطبيب وهو يُعطينا إرشادات وتعليمات الحمل، لم يخبرنا بشيء عن الصعاليك والحافلات السريعة، كان عليه تحذيرنا لنكتب هذا في الورقة " تجنبوا الأوغاد وإطارات الحافلات "..

ظللت أصرخ دون توقف، وتبادل أربعتهم نظرة، كأنهم قد استوعبوا الآن ما فعلوه، لكن اللامبالاة لم تقارفهم، وانطلقوا هاربين، لم يحاول أحد من المارة إيقافهم، كانوا خائفين منهم، ظللت أبكي وأصرخ، وفقط بعدَ رحيلهم اقترب مني نادل المقهى والقوم، وقال أحدهم: لا حول ولا قوة إلا بالله، تماسك يا رجل..

أردت أن أقتله في تلك اللحظة، يا للامبالاة..

يا للامبالاة..

توفي ابني في المستشفى بعد غيبوبة استمرت لأسبوع.. أتمنى ألا يكون قد تألم، يا إلهي أتمنى ألا يكون أيّ منهم قد تألم..

هلكت أسرتي بأكملها في نزهة وسط البلد ولم نقدِّم عرضًا غنائيًا كما حدَث في الفيلم..

هل تعلم ما هو أسوء ممَّا حدث؟

أن تحاول أن تقضي ليلتك الأولى بدونهم، وأنت تجلس على فراشك، تشعر باختناقٍ، تصرخ بجنون، تهشِّم كل شيء من حولك، تتمنى الموت، ما حدث لك يا مازن لا يختلف كثيرًا عمَّا حدث لعائلتي، وما مرت به رنا في هذا اليوم بالمدرسة هو ما حدث لي

أنا بمقهى وسط البلد، عبَث وفوضَى غير مبررة، لا يوجد سبب ولا داعٍ حقيقي ليقتحهم أحد حياتك ويدمرها بدافع المرح فقط أليس كذلك؟ لقد أفسد الصعاليك والمتنمّرون حياتنا..

لم تصل إليهم الشرطة، هم اعتادوا رؤية أسوء ما في النفس البشرية..

وبعد أسبوع نسى الرأي العام ومواقع التواصل الأمر وانشغلوا بفضحية ممثّلة ما..

لقد نسى العالم أمْرَنا، لكننا لم ننسَ..

تلك، يا مازن، هي حكايتي..

***

بكت أرابيلا بلوعة وهي تشاهد رأس ابن مصطفى يسقط جوار الكاميرا التي استمرت في تصوير الفاجعة، بعينين شاخصتين بهم القليل من الحياة..

ولطم كاليجورا، في حين أغمض تشابلن عينيه بألم، بكاء إسماعيل يس استمر من الخلف..

آزورد كان يولول كالنساء..

وهناك ألم رهيب يعتصر قلب عبير..

ثم مرت الحافلة أمام عينيها لتدهم المرأتين..

وأظلمت الشاشة..

عادوا جميعًا في مسيرة جنائزية للمسرح، كان هناك بوق جنازة حقيقي ينطلق من مكبرات الصوت..

جلسوا في صمت حول البلورة السحرية وعاد إسماعيل لموقعه المظلم..

وجه أرابيلا تغيَّر بالكامل، أصبحت شديدة الدمامة..

وهمست عبير بألم: كل هذا قد حدث لنا.. لمصطفى..

ربت آزورد على كتفها ثم احتضنها فجأة في صمت، دفنت رأسها في كتفه وهي تردد: عالم البشر مخيف حقًّا..

انتقلت العبارة إليهم كالعدوى وظلوا يرددونها..

" عالم البشر مخيف حقًّا "

" مخيف "

" حقًّا "

***

همس مازن وهو يجاهد من أجل السيطرة على أنفاسه المتلاحقة: آسف..

صوته كان ثقيلًا وغليظًا، كصوت شخص يتعلم البكاء، ظل مصطفى صامتًا لفترة طويلة، ثم قال بهدوء وهو يجبر نفسه على الابتسام: الآن، دورك.. لقد عرفت حقيقتي، ما الذي يوجد داخل الغرفة المُغلقة يا مازن؟ ومن الذي قتَل مراد وشيرين في ليلة رأس

السنة؟

***

- من القاتل؟

هتف كاليجورا بطريقة درامية وهو يقدم عرضًا راقصًا بأطرافه الأربعة وهزَّ كل من تشابلن وأرابيلا رءوسهم في تناغم لأغنية كاليجورا التي كانت:

" من.. من.. مماان القاااتل؟

أهو رنا ومازن؟ أم الجاااثوووم؟

ثم قفز كاليجورا وأشار لعبير متابعًا: أم أن شيرين لم تمت؟

رغمًا عنها ضحِكت عبير لطاقة كاليجورا الجنونية، قبل أن يجلس الأخير فجأة وهو يلهث..

ثم انفجر فجأة في بكاء مُباغت..

هبَّت عبير وربَّتت على كتفه فرفع وجهه الضاحك أمامها.. وهتف آزورد: كفى، لنستمع الآن..

***

- من القاتل يا مازن؟

كذا سأل مصطفى بهدوء..

تحاشى مازن النظر للمرآة المهشمة، وقال ببطء: والدتي بالطبع..

***

ما الذي يوجد داخل الغرفة يا أبي؟

***

والدة مازن تقيء دمًا.

***

ما مرت به رنا بخلاف موت أخيها هو تأنيب والدتها المستمر لها والإيذاء الجسدي المتكرر من الأم

***

زوجة مراد بيه.

***

والدة رنا.. والدة مازن..

***

هي المرأة المحبوسة داخل الغرفة..

***

هي السر الأخير في فيلا مراد.

***

الأم لم تمت، وخرجت من مَعْقِلها لتقتل زوجها وزوجته الجديدة..

***

مراد يهتم بالمظاهر الاجتماعية.

***

تدخل شيرين جارتهم المحجبة لشقتهم في وسط البلد

***

تنظر الأم بعين واسعة من فتحة الباب لمراد وهو يحتضن شيرين

***

أجفل مصطفى قليلًا وهو ينظر لمازن، ثم سأل بهدوء: تبدو وكأنك تعاني النعاس؟ هل قلت للتو إن والدتك هي من قتَلتهم؟ ربما أنت بحاجة للقليل من الراحة..

- د. مصطفى، والدتي هي مَن قتلتهم..

تنهّد مصطفى، وغمغم آزورد: ربما الجن يتلبس رنا، هزت أرابيلا رأسها: هذا هراء، إنه الجاثوم..

طرق مصطفى بأصابعه، مط شفتيه ثم قال: مازن، الخطوة الأولى للعلاج هي التعرُّف على العِلة، رنا مُصابة بتعدد الشخصيات، وهي قد احتوت شخصيتك بداخلها، وفعلت نفس الشيء مع شخصية والدتك، والآن أنت تقول لي إن شخصية والدتك تولت قيادة جسد رنا وقتَلتهم؟

تحرك مازن برأسه للأمام وغطّت الظلال وجهه عدا عينيه، وقال:

ما الذي تتحدث عنه أيها الطبيب؟ أنا لا أفهمك، والدتي لم تمُث..

هنا فهم مصطفى ما يريد مازن قوله وتراجع للخلف..

ورغمًا عنه سرت ارتجافة في جسده..

***

ابتسم مازن إزاء تعبير وجه مصطفى، ثم تذكر شيئًا فعقد حاجبيه ورفع يديه في رجاء.

- د.مصطفى عِدْني أنك لن تُخبر رنا بشيء، هي لن تتحمل الحقيقة بعواقبها أبدًا..

- أعِدك.. أعِدك..

- شكرًا

- ولكن.. أنا لا أفهم..

- لا بأس أيها الطبيب، لا بأس.

قالها مازن وقد عاودت الابتسامةُ المُرهقة زيارة ملامحه وأردف: أنت قد اعتنيت بي يا د.مصطفى، ووفيت بوعدك وأعدت لي رنا، وحكيت لي سرّك، أنا آسف بحقٍّ لما حدَث لهم، لفقدانك لعائلتك بتلك الطريقة، أنا أعلم جيدًا ما شعَروا به، أنا الآخر شعرت به وأنا طفل، أنا حقًّا آسف لك، ولأنك قد وفيت بوعودك فلسوف أحكِ لك سرَّنا الصغير، سر عائلة مراد.. لكن سيظل هناك دومًا وعد صغير عليك الإيفاء به دومًا، وهو عدم إخبار أختي..

هز مصطفى رأسه موافقًا، تنهّد مازن، ثم نظر للأريكة بتردد، فأشار إليها مصطفى متمتمًا: اجلس عليها واسترخِ لو تُريد هذا.

- شكرًا لك، هي حقًّا مريحة.. ذكّرني أن أبتاع واحدة عند خروجي من هنا.

وأضاف مازن بعدما عاد ليستلقي فوق الأريكة ويُطلق آهة ارتِياح: هذا لو كنت ستخرجني من هنا..

أغمض مازن عينيه بعدها دون أن يطلب منه مصطفى هذا، ونظر الأخير لجسد رنا مغمضة العينين وهي تتحدث بصوت أخيها الميت، وفكرت عبير: ربما أرابيلا محقة، ربما أرواح الموتى تستحوذ حقًّا على أجساد الأحياء، وهذا هو تفسير تعدد الشخصيات.. آاه أو ربما تشابلن مُحق واللاوعي يخلق عدة شخصيات بداخلنا..

أغمض مازن عينيه وعاد يحكي للمرة الأخيرة..

***

من الغريب أنك لم تسألني قط عن اسم والدتي، كأن الموتى لا أهمية لهم، لكن هذا كان خطأك أنت؛ لأنها لا تزال حية.. رباب لا تزال حية..

والدتنا اسمها رباب يا د.مصطفى.. وإليك ما حدَث، الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة..

لقد عرفت كل ما أنا بصدد حكايته من أبي، لم يحكِ لي أنا طبعًا، كان يحكي لشيرين أجزاء متفرقة من الحقيقة في بعض الليال بينما

أنا أتنصت عليهم واستطعت أنا تخمين الباقي، لم تكن شيرين تعرف أن والدتي لا تزال حية، وأنها هي مَن يوجد داخل الغرفة المغلقة في الفيلا، يجب أيضًا أن تعرف أن جزءًا كبيرًا مما حكاه والدي، آه أجد صعوبة بالغة في دعوته بلقب والدي، جزء كبير مما حكاه مراد لشيرين قد عرفه هو من جدتنا..

***

علا صدر عبير وهبط في انفعال وهي تستمع لما تقوله رنا لمصطفى..

أو ما يقوله مازن لمصطفى..

***

اسمها رباب، وفي اليوم الذي مات فيه مازن، جُنَّت رباب تمامًا .

لكي نكون عادلين فعلينا الاعتراف أنه لطالما عانت رباب من الخَبَال، لقد اعتادت أن تتحدَّث مع نفسها أمام المرآة لساعات وهي طفلة، وهذا كان يُخيف أهلها بحق، ذات يوم وجدتها أمها تُقيد نفسها في الفراش وتتشنج كالثيران، لم تفهم الأم أبدًا أي دوافع كوابيسيه دفعت بابنتها لفعل هذا، والدها كان يتجنبها كأنها الطاعون، عائلة رباب شديدو التديُّن، وقد ورِثت الابنة منهم هذا، الالتزام والتديُّن، لكن مع المرض الكامن في عقلها تحول هذا الالتزام لهوسٍ، كانت تردد دومًا قبل النوم بعينين متسعتين: الكل سيذهب لجهنم عدايَ أنا فقط..

نعم رباب كانت مجنونة، لكن مراد لم يعرف هذا، لقد زوَّجها له أبوه وهو لايزال في التاسعة عشرة من العمر، ورباب حينئذٍ كانت في السادسة عشرة، وعندما حاول مراد الاقتراب منها ظلت تصرخ: كافر.. كافر.. زنديييييق..

واستيقظ ليلًا مذعورًا عندما وجدها تجلس بين ساقيه وهناك مقص في يدها..

نعم كانت رباب مريضة، ولم تحاول أبدًا علاج نفسها لأنها لم تستوعب أبدًا أن هناك شيئًا خاطئًا بها..

طبعًا لم يعرف أحد سبب جنونها..

ولا حتى هي، لكن لا وِعْيها كان يعرف..

لاوَعْيها كان يُدرك جيدًا أن تلك الليلة ورباب لا تزال في الرابعة من عمرها هي سبب كل ما حدَث بعد ذلك..

كانت الطفلة نائمة في غرفتها، جوار والدتها، عندما تقلبت الأم، ونامت بجسدها فوق رباب، اختنقت الطفلة ولم تستطع الصراخ بينما الأم تغطُّ في نوم عميق..

ازرق وجه الطفلة وتوقَّفت انفاسها، فقط لثوانٍ..

ثم انعكس هذا الظل العملاق على حائط الغرفة..

ظل ضبع بشري برأس قرد..

واقترب الضبع من الطفلة النائمة..

رائحة الموت جذبته، اقترب الجاثوم بعينيه الصفراوين ونظر لجسد الطفلة الميتة، ثم مدَّ يده المَخْلِبية كثيفة الشعر ومسح بها على جسد الطفلة.. قبل أن يفتح فمه ويلعقها، فتحت الطفلة عينيها وبكت، هبَّت الأم مستيقظة مجذوعة، بعدما أدركت أنها كانت تنام فوق طفلتها، شعَرت بوجودٍ ما في الغرفة، وسرَت بجسدها قشعريرة باردة، وجَدت نفسها تقرأ القرآن وتستعيذ بالله، ثم احتضنت رباب الباكية، ولم تلاحظِ الأم أن عيني طفلتها تحولت للون الأصفر لمجرد ثوانٍ معدودة..

لمجرد ثوانٍ معدودة..

لقد لعق الجاثوم الطفلة، وهذا كان ثمن إعادتها من الموت..

لم يكن مراد يعرف أن زوجته من الموتى الأحياء، لم يعرف أن جزءًا من روح المقابر تستحوذ على جسدها، وبالتأكيد لم يعرف أنها ابنة الجاثوم بشكلٍ ما، كيف يتسنى لمراد معرفة شأن زيارات الجاثوم الليلية لوالدة رباب قبل حَبَلها؟..

نعم..

رباب.. كانت حقًّا امرأة مختلفة..

عندما قيَّدت نفسها في الفراش كانت تطفو فوقه..

كانت تحلم بممالك الديدان والجثث المتحلله، عائلتها الحقيقية..

لكن كان هناك دومًا جزء بشري برباب، جزء بشري مخبول يعاني الاضطرابات، كانت تعذِّب رنا ومازن ولا تسيء معاملتهم فحسب،

ومراد لم يكن يفكر سوى في كيفية التخلص من تلك الورطة دون أي فضائح اجتماعية..

ووجد السلوان بين أحضان جارتهم الفاتنة، شيرين، وهكذا بدأت النزوة..

كان يجلس في صمت أمام رباب، ويُخبرها بكذبة ما عن تأخُّره في العمل بينما هو حقًّا يقضي وقته في الشقة المجاورة.

أحيانًا كانت تنظر له وتهس كالثعابين، فيفكر: مخبولة..

لتردد الكلمة داخل عقل رباب خارقة الحواس، والتي تستشعر دومًا بما يدور في خَلَد الآخرين، بسبب حواسها الحيوانية التي ورثتها من أبيها..

رباب تحب اللحم النِّيء..

رباب تخرج ليلًا دون معرفة أحد لتحبو فوق أربع في المقابر لتتمرغ في الطين قبل أن تعوي كالضباع..

كلاب المقابر تتراجع أمامها في رعب..

رباب تلتهم طفلة..

كانت تلك واقعة بشعة لم يعرف بشأنها سوى مراد..

عندما عاد للمنزل ليجد فخِذ طفلة رضيعة على الأريكة..

بينما هناك بركة من الدماء على الأرض، وزوجته الحُبلى بمولودهم تأكل لحمًا نيئًا من جسد الطفلة..

أنت لا تعرف زوجتك حقًّا إلا عندما تحبل كما يقولون..

صرخ مراد: من أين أتيتي بها؟

لم تأته إجابة هذا اللغز أبدًا، هل سرقتها من مستشفى؟ أم ابتاعتها من متسولة؟ لم يعرف أبدًا.

ظل طِيلة الليل يُداري آثار الجريمة، ووضع الكثير من المنوم لزوجته..

لقد أدرك مراد جيدًا أنه قد تزوج مسخًا، طبعًا لم يأت في ذِهنه أنها مسخ شيطاني، بل مجرد امرأة مخبولة تنتمي للمصحة وتعاني من المرض النفسي.. حتى عندما حكت له حماته حكاية رباب مع الجاثوم لم يصدق وأعاز الأم لتخاريف الأسلاف، نعم هي مخبولة فحسب، لكن كيف يتخلص منها؟

هل لهذا علاقة بالثعابين والسحالي والفئران التي تزور بيتهم بغزارة؟ هو لا يخاف من تلك المخلوقات وقد قتلها مِرارًا منذ زواجهم، لم يجد سببًا أبدًا لكثرة زياراتهم، البعض سيعزي بالأمر للسحر، آخرون سيتحدثون عن النظافة المنزلية، الآن فقط يفكر هو أن هناك شيئًا خاطئًا وشريرًا بزوجته، شيئًا متعفنًا يجذب الحشرات والزواحف إليهم..

عليه أن يتخلص منها ولكن كيف؟ هو ليس بشخص عاطفي ولن يُجن من الأهوال التي شَهِدها، لم يؤرقه حتى مشهد الطفلة، ما يقلقه هو الفضيحة الاجتماعية..

أين زوجتك يا أستاذ مراد؟ هي في المصحة؛ لأنها تمتلك جانبًا حيوانيًا، أنا تزوجت ذئبًا يا سادة..

كلّا كلّا، لن يتحمل هذا أبدًا.

ولأنه شخصية عملية فقد احتفظ بكل تلك الأسرار لنفسه ولم يحكِ شيئًا لعشيقته شيرين حتى تلك اللحظة..

ليس لأنه لا يريد إخافتها، لكن لأنه لا يثق بأحدٍ وربما يأتي يوم تستخدم شيرين فيه تلك المعلومات ضده..

أضف إلى هذا أنه لم يَمَل شيرين بعدُ؛ ولذا هو لا يريدها أن تبعد عنه بعد أن تعرف بشأن الأهوال التي تدور في بيته..

لقد توفي والدا رباب منذ أشهر لتصبح يتيمة، مسخ يتيم والحقيقة أن هذا المسخ قد أصبح مسئوليته التامة.. هل يطلقها؟ سيكون انتقامها مروع، والحقيقة أنه خائف منها، هو خائف منها طِيلة الوقت..

أحيانًا يُصيبه الرعب فينام بمفرده، في غرفة مغلقة، وأحيانًا أخرى يعتمد على المنوم، وفي بعض الأوقات وبينما هم معًا كانت تُصدر أصوات شتى الحيوانات؛ كالقط والضبع والكلب والغراب..

- مخبولة، وستقتلني ذات يوم.

قال مراد العبارة لنفسه، لقد تزوج غولًا، قضى أغلب وقته بالخارج، وحبلت زوجته مرة أخرى بعد ولادتها الأولى..

يا لتلك الحياة السوداء التي يعيشها، لكنه كان يعلم في قرارة

نفسه أنه سيجد حلًّا، يصبِّر نفسه بتلك الحقيقة التي يؤمن بها، لقد تزوج شيرين سرًّا دون أن يعرف أحد، أغلب وقته معها، هذا شيء آخر يجعله قادرًا على تحمل الحياة مع زوجة مريضة نفسيًّا، زوجة مخبولة، لديه طفلان الآن، هل سيصبحان مثلها؟ من الغريب أنه غير قادر على الشعور بشيء تُجاهم، تبلُّد تام، يلوم زوجته على هذا..

ثم أتى يوم موت مازن بعد أعوام من تلك الحياة الجهنمية..

فكر مراد: لقد مات كعقاب على روح الطفلة التي التهمتها رباب..

ثم طرد الفكرة من عقله، اندهش لأنه لم يشعر بحزن حقيقي لموت ابنه، هل لأن مازن كان ابن رباب أيضًا؟ ملوَّث بخبالها؟ أم أنه - مراد - غير قادر حقًّا على الشعور بأحد سوى نفسه؟ لم يعرف إجابة للسؤال..

لكنه قرر في هذا اليوم أن يتزوج شيرين، وأن يتخلص من رباب.. قد يبدو هذا كقرارٍ غير منطقي للبعض، لكنه قد سَئِم حياة البؤس والعذاب تلك..

كان يقف ويخبرها بخطته للانتقال للتجمع وهم في المطبخ بينما رنا تسترق السمع، وتتخيل أن تلك المحادثة تدور مع أخيها المتوفَّى مازن..

رنا التي استعد هيكلها النفسي لمرض تعدد الشخصيات بسبب خَبَال والدتها وأتت صدمة موت مازن بمتلازمة عُقدة الذنب لتؤدي عملها كالخُطوة الأخيرة في الدَّفع بالفتاة للهاوية..

رنا التي لم تجد حبًا في منزلها، ألا يبحث الجميع عن الحب أو القبول الاجتماعي والنفسي بشكل أو بآخرَ؟..

وقد وجدت رنا الحب والقبول والتفَهُّم مع مازن داخل براثن عقلها..

ما حدث بعد ذلك كان سريعًا وغير منطقي كالكوابيس لكنه حدَث، مراد يتخذ القرار بإعلان أن زوجته قد ماتت، بعدما قرَّر تخديرها وحبسها داخل غرفة آمنة بالفيلا الجديدة، غرفة مَنيعة وحصينة صمَّمها مخصوص بأموال طائلة، استخرج شهادة وفاة، وابتزَّ مسئولًا، هذا المسئول كان أحد عملاء شبكة الدعارة الإلكترونية، كانت خطوة جريئة وبها مُخاطرة، أن يبتزَّ أحد عملائه، هذا قد يقضي على سُمعته في الأمان والسِّرية، لكنه كان بحاجة للمخاطرة؛ لأن البديل كان قَتْل رباب وهو لم يكن ليُخاطر بالسجن أبدًا، لو اكتشفوا أنها حيَّة فهي زوجته في النهاية وله أحقية الاعتناء بمرضها بالشَّكل المناسب من الناحية القانونية، أما عن إشهاره لموتها فتلك قضية تزوير أوراق رسمية قد تنتهي بتعويض مالي أو سجن عامين، لكنه لم يكن ليُخاطر أبدًا بالقتل، كما أنه قد أمَّن نفسَه جيدًا، خدَّرها، ثم نقلها للفيلا في ليلة مظلمة وممطرة، كان يقود السيارة وسط قلب الليل بينما هي تغطُّ في سُبات عميقٍ بالصندوق الخلفي، ثم رأى كمينَ شرطة أمامه قُبَيل دخوله للتجمُّع، أخذ مراد نفسًا عميقًا واقتربت سيارته من الكمين ببطءٍ، كان هناك ضابط شرطة شاب متحفز وعدد من أمناء الشرطة وكلب شرطة نائمًا في كسلٍ أسفل قدمي أحد المجنَّدين..

مر السيناريو بالكامل في ذهنه، خبَر يتصدَّر جريدة " رجل يُخدِّر زوجته ويضعها في صندوق السيارة " وطبعًا لن ينسَ المُحرر الصحفي أن يضع نكهة ساخرة في إطار " الأزواج وما يفعلونه ببعضهم البعض " لجذب انتباه القارئ، سيكون خبرًا سيئًا وغير احترافي دون تفاصيل، لن يذكروا شيئًا عن مرضها العقلي والتهامها للأطفال، سيتحدثون فحسب عن الزوج الشَّرس الذي كاد أن يفتك بزوجته لولا تدخُّل رجال الشرطة الأبطال، سوف يصدر الخبر بالجريدة بينما هو يقبع في زنزانته، يتعرض لتنمُّر ممزوج بتحرش قاسٍ من السُّجناء، مثل التحرش الذي مرَّ به ابنه في فناء المدرسة قبل أن يموت، ابنه، للمرة الأولى شعر مراد بما مرَّ به مازن في لحظته الأخيرة، وبكى الأب أخيرًا، بكى بينما هو في سيارته أمام الشرطة، في الثانية صباحًا، وزوجته نائمة في الصندوق الخلفي لسيارته، بكى وهو يتذكر أن مازن كان يقول له شيئًا ما في صباح هذا اليوم، لكنه لم يُعِرْه انتباهًا حقًّا، أم أنه كان صباح يوم آخر؟ يبدو الأمر دراميًا بشكل مناسب لو كان صباح ذات اليوم، المهم أنه قال له شيئًا، ليته يستطيع تذكُّر ما قاله مازن، انتهت عبارته بكلمة " أبي "، نعم، كان الصغير يقول له شيئًا بكلِّ تركيز وجِدِّية، كعادة الأطفال في الحديث، بدون تشتت ولا أفكار خفية، هم يقولون ما يعنوه حقًّا بكل مِصداقية، ولو أرادوا خداعك سيضحكون وهم يتحدثون، اختلج قلب مراد، وانهمرت دموعه بقوة، ليقبضوا عليه، ليحدث أي شيء، لقد مات مازن، هو يتعفن داخل كفنه في تلك اللحظة والدود يخرج من تجويف عينيه، لم يعُد هناك شيءٌ يهم، نظر الضابط بلامبالاة للرجل في السيارة الذي نظر له بوجه جامد ثم ابتسم، اقترب أمين

الشرطة وقال: رخصك..

وأشار الضابط بيديه لمراد أن يترجّل من السيارة..

كان مراد يعتقد أنه يبكي حقًّا، لكنه اكتشف أن وجْهه غير مُبلّل، لقد حدث كل هذا بداخله، لقد خدعه عقله وتركه ينهار داخليًا في حين ظل متماسكًا كعادته من الخارج، استعاد مراد رباطة جأشه وحرص على أن يُخفي ارتعاشة يدِه وهو يترجّل من السيارة، تفحّص أمين الشرطة الرخص، بينما فكّر مراد أنهم يعانون الملل، لم تمر سيارات نقل ولا أجرة، وهم يريدون شَغْل وقتهم به ليس أكثر، أعاد له أمين الشرطة الرخص، والتفت مراد ليعود للسيارة عندما صدَر صوت ارتطام من الصندوق، استيقظت رباب، تجمَّد مراد مكانه، ورفع الكلب رأسه وقد فتح عينيه على اتساعهما ثم نبَح، لم يعرف مراد هل صوت رباب أم نُباح الكلب هو السبب لكن الضابط قال بعدما استيقظت حواسه من خمول فراغ الليل: افتح الصندوق..

شعر مراد بوجومٍ وثِقلٍ يجتاح جسده، واستدار ببطء بعد أن أخذ مفاتحيه من السيارة، وسار بخُطّى ثقيلة، خطوات سجين صَوْبَ غُرفة الإعدام، سار باتجاه الصندوق بينما أمين الشرطة يُلاصق خطواته، شعَر مراد باختناق مفاجئ وأراد أن يصيح بالأمين أن يُعطيه بعض المساحة الشخصية، بينما لازمته عينا الضابط.. توقَّف مراد أمام صندوق سيارته الخلفي، ثم انتابته فكرة مباغتة، فكرة ناجمة عن شخصيته الدفاعية التي ستحاول النجاة دومًا، مدَّ يده في حافظته بسرعة وبيدٍ مرتعشه أخرج رُزمةً من النقود وضعها خِلسه في يد أمين الشرطة الذي كان يُلاصقه بينما العرَق

يتجمَّع أعلى جَبينه، لم يجرؤ مراد على النظر صوب الأمين، ما الذي سيحدث الآن؟ سيضربه الأمين وينادي الضابط، آه الوغد أراد رشوتي، لنأخذ المال على أي حال ونفتح الصندوق، لنركله ونصفعه ونُلقي به في التخشيبه، أهذا ما سيحدث؟.. ظل مراد يتخيل الموقف، وشعر بأن جسده قد استقلَّ عنه، امتدت يده في آلية وفتحت الصندوق، شعر وكأنه يطفو، وتذكَّر عندما استيقظ ليلًا وسار وهو نائم ليتبول في المطبخ أمام وجه والده المندهش الذي أعطاه عَلْقةً لا بأس بها في تلك الليلة، نعم، هو يطفو الآن، بعيدًا عن رباب والشرطة والسيارة، انفتح الصندوق، نظر أمين الشرطة لرباب، بيديها المقيدتين وفمها المكمَّم، وعينيها المجنونتين، بسمل أمين الشرطة وحوقل، ووضع النقود في جيبه قبل أن يصيح: لا شيء يا باشا..

هز الضابط رأسه بخيبه أملٍ وانتهت لحظة الترقُّب، لم ينظر مراد لوجه أمين الشرطة قط، لقد عاد للسيارة وأدار المحرك مبتعدًا بها ببطء، وفور أن أصبح على مسافة آمنة، بكَى بحقٍّ تلك المرة..

***

الباقي مر كحُلمٍ، يتوقف بالسيارة أمام الفيلا، يَلُفها بالكيس القماشي الضخم قبل أن يحملها رغم مقاومتها كقطعة أثاثٍ، يرميها بعنفٍ فوق أرض الردهة الخالية من الأثاث، لقد استعاد سطوته الآن، والمهانة التي مر بها تحوَّلت لطاقة غضب وعنفٍ في تلك اللحظة، جرَّها بقوة وهو يسُبُّ، ورماها في الغرفة، ثم أغلق الباب ورحل..

وارتمى على الأرضية الرخام لينام بإرهاق لباقي الليلة داخل الفيلا..

غدًا سيَحُل وَثاقها، غدًا سيشرحُ لها طريقة حياتها الجديدة، تلك المخبولة، كأنها في مصحة نفسية، الحقيقة أن مراد قد صمم الغرفة كأنها بيت صغير؛ جُدران عازلة للصوت، ثلاجة طعام، دورة مياه، مرآة، فراش مريح، مَن يعلم ربما يحتاج إليها كزوجة كل حينٍ وآخر لحين أن يتزوج شيرين، هي أسيرته الآن لكنها زوجته رغم كل شيء وهو رجل ذو احتياجات..

وإبَّان نومه حلم مراد بكمين شرطة به ملائكة بأجنحة وشيطان يحاول العبور، في الحلم كان مازن هو من يرقُد في الصندوق الخلفي للسيارة.

***

تلك هي الحكاية العجيبة والمأساوية لعائلة مراد، لقد مرت الأعوام، وتزايد جنون رباب، وهي ترى زوجها مع أخرى في البيت الجديد، وهي ترى ابنتها تجلس على مِنضدة الطعام مع مراد وشيرين، لم تكن بحاجة حقًّا للثقب لتختلس منه النظر، حواسها الخارقة ساعدتها على استشعار كل شيء، ومثل يأجوج ومأجوج، بدأت رباب في الحفر، بصبر وجنون، لسوف تخرج من سجنها، بجِلْدها الذي تعفن فأصبحت أشبه بمرضى الجُزام، بشفتيها المتآكلتين بعد أن التهمتهما هي ببغض وشراسة، بأسنانها النخرة وأظافرها الطويلة الأشبه بالمخالب، وتلك النظرة الجنونية في عينيها، عينيها الصفراوين،

ستخرج لهم، وحيئنذ ستذيقهم جميعًا طعم الرعب والموت..

أحيانًا كانت ترى رباب ابنتها تجلس وتتحدث مع الفراغ، وترى شيرين تسخر منها..

كلا، لا يجب أن يسخروا من ابنتها.

هي - رباب - تتذكر لحظة معرفتها بخبر موت مازن، هذا الألم في صدرها.. كأنهم قد انتزعوا جزءًا من روحها.. لحظة موت الجزء البشري بداخلها.

ليتركوا رنا لحالها..

متى التهمت شفتيها؟ في الليلة التي كانت تجلس وتضرب رأسها في الحائط حتى أدمتها، كانت تضحك وهي تفعل هذا، ثم سمعت ضحكات شيرين بينما مراد يداعبها بدلالٍ، ودفعها الغضب لالتهام فمها..

هل انتهت رباب من الحفر وخرجت عدةَ ليال قبل مجزرة رأس السنة؟ هذا سيُفسِّر ما سَمِعه مازن، ورنا، في تلك الليلة عندما انفتح باب الغرفة العلوية واتجهت الخطوات لغرفة رنا، لقد كانت الفتاة ترقُد بخوف في فراشها عندما انفتح باب غرفتها لتجد نسخة مشوهة وشيطانية من والدتها الميتة تقف على عتبة باب غرفتها..

ثم أتت ليلة رأس السنة.. وخرج المَسخ من سجنه للمرة الأخيرة دون حاجة للاختباء..

بعد أعوام من الحفر بأظافرها المسكورة في الحائط..

علينا معرفة شيء قبل وصف الأحداث الكابوسية التالية؛ شيرين كانت تعتقد حقًّا أن رباب قد ماتت، لم يكن للزوجة الثانية أي معرفة بأن الزوجة الأولى تحيا معهم في نفس المنزل خلف الجُدران داخل غرفة مزودة بدورة مياه وفراش حقيرٍ، ومراد هو من كان يتولّى أمرَ إطعامِها..

تلك هي الحقائق السابقة لأحداث جريمة ليلة رأس السنة أيها السادة والسيدات، هناك رباب، الأم اللطيفة التي تأكل الأطفال وتُعذِّب أطفالها، مثل الساحرة الشريرة في حكاية هانزل وجريتل، اللذان ضلّا طريقهما في الغابة وانتهت رحلتهما بوصولهما لكهف الساحرة المصنوع من حلوى، لم يكن بيت رباب مصنوعًا من الحلوى، لكنكم تفهمون ما أُريد قوله أليس كذلك؟ وهناك طبعًا مراد، الأب الذي لا يفكر سوى بنفسه، هو مثل شيلوك تاجر البُندقية في مسرحية شكسبير الشهيرة، لو لم أحصل على أموال المرابة نقدًا فلسوف آخذها رطلًا من اللحم.. وهناك رنا.. وكل الأشياء والأشخاص المنتظرين داخل عقلها، تتحرك عقارب الساعة، نحن نقترب من منتصف الليل..

لنبدأ إذن..

ها هي ذي شيرين تجلس بجسدها الفاتن مرتدية فستانًا جذابًا.. تتناول عشاءها وأمامها يجلس كلٌّ من مراد ورنا، رنا تجلس واجمة الوجه .. كعادته مراد يَلتهِم الطعام بشَراهة ولذَّة.. نظرت إليه شيرين، لشدة ما تزايد وزنه وغزَا الصَّلع رأسه، هي لا تشعر بشيء تُجاهه وهي تعلم هذا جيدًا، لماذا هي تحيا مع رجل لا تُحبه وابنة امرأه

أخرى؟ من أجل المال يا حلوة.. كذا أجابها الصوتُ الساخر داخل رأسها، الحقيقة أن الصوت داخل رأسها كان مطابقًا لصوت والدتها، لقد تعلّمت شيرين الكثير من والدتها الإسكندرانية قوية الشخصية التي توفت بسرطان الرئة من كَثرة التدخين، تعلَّمت كيف تنجو في الحياه دون الحاجة لرجل، لكن أموال مراد جعلتها تودِّع الفقر للأبد.. آاه لكن انظري لحالك الآن، أنت لا تنتمي لتلك العائلة، ابنته تكرهم، كما أنها مخبولة مثل والدتها، ومراد مثالٌ للرجل الكريهِ.. شعَرت شيرين بالحماسة تدبُّ في صدرها فجأة، سوف تتركه، ستترك تلك الحياة وتلك العائلة البَغِيضة، لن تستطيع التظاهر لأكثر من هذا الحد.. نعم، ستبدأ حياة جديدة.. حياة جديدة جميلة و.. هنا حدث شيء غريب، لم تستوعب شيرين لأول ثانيتين، وعندما استوعبت شعَرت برعبٍ لا يوصف..

بعينين مذعورتين رأت شيرين مسخًا أصفرَ العينين، ووجهًا ذا جلدٍ متساقط، نصف وجه للدِّقة، شعرًا متساقطًا، هذا الهول، المسخ.. الكابوس.. يَعْدو ناحيتَها، صرَخ مراد في رعبٍ، والمسخ يقفز فوق شيرين كضَبعٍ ينقضُّ على فريسته، وانعكس ظل عملاق لزائر خَفي معهم في تلك اللحظة، سقطت شيرين وهي تصرخ، وانقض المسخ ليقضم مِن عُنقها الأبيض، ثم انفجرت دماؤها لتحوِّل لون جسدها الفاتن للأحمر، وقد كان آخر ما رأته عيني شيرين قبل أن تفارقهما الروح هو عيون قط متلصِّص يقف خلف النافذة ويُراقب ما يحدُث..

كان مراد ينظر برعب لرباب، التي رفعت وجهها ودماء شيرين تنهَمِر من فمها، لقد تحوَّلت زوجته الأولى لحيوان، لقد استحوذت

عليها روح الضبع، الديب، وقفزت هي مثل الحيوانات لتسقط فوقه وهو جامد مكانه بذُعرٍ ليسقط أرضًا، هو حقًّا مثل الغزلان التي تقع بين أنياب الفهد في مقاطع فيديو الافتراس الخاصة بعالم الحيوان، كانت تلك فكرة غريبة، والحقيقه أنها آخر فكرة جالت بذهنِه، هو اعتاد مشاهدة عالم الحيوان خلال طفولته، والآن آخر لحظة في حياته قد تحوَّلت لفقرة من هذا البرنامج، انقضَّت رباب عليه والتهمت وجهه، واصَلت الالتهام بينما جسده يهتز في ألمٍ رهيب، رنا تجلس واجمة دون أي تغيير أو ردة فِعل، جسدها هنا لكن عقلها مع سيلين في الحديقة الخضراء، هي ومازن الآن، وهو يمر بقصة حبِّه الأولى مع جارتهم الأولى ويتحدثون عن رواية "نساء صغيرات"..

وقفت رباب، فوق جثة مراد، ونظرت لابنتها، اقتربت منها، وأصدرت صوتًا كعويل أليمٍ.. تحسَّست وجه رنا بأظافرها، قبل لأن ترفع رأسها لأعلى وتُطلق نحيبًا طويلًا، ثم قفزت من النافذة واختفت بين الشوارع المظلمة وهي تعدو فوق أربع.. لقد انتصر الحيوان داخل رباب أخيرًا، وتحولت لما كانت تَتوق إليه نفسها منذ طفولتها.. لمسخ يجول بين الشوارع يهاجم الغافلين..

ظلت رنا جالسة مكانها، بين جثة شيرين ومراد، ثم عاد التركيز لعينيها، نظرت حولها قبل أن تشهق وتسقط فاقدة الوعي، بعد أن فقدت جزءًا من ذاكرتها، أو للدِّقة، لقد عاد مازن ورأى ما حدث داخل جسد رنا، وأُغشي عليه فاقدًا جزءًا من ذاكرته..

تلك هي حكاية عائلة مراد، وهذا هو ما حكاه مازن لمصطفى..

الفصل الثامن

جزء من ملاحظات د.مصطفى خلال جلسته مع المريضة رنا مراد:

" الحقيقة أني لم أعرف بمَ يجب أن أفكر في تلك اللحظة، تبدو الحكاية خيالية للغاية، كأنها حكاية أطفال لكن الكاتب كان ثملًا وقرَّر أن يكتبها للبالغين، أعني، من الصعب الاستيعاب حقًّا أن رباب ظلت حبيسة غرفة مغلقة طِيلة تلك الأعوام، خلف جدران البيت، بينما مراد يحيا حياة كاملة مع شيرين ورنا؟، أسرار عِدة في هذا البيت، وعليَّ أن أرتب أفكاري لمنطقة الكوابيس، لو كان يمكننا أن نُمنطِق الكوابيس:

١: رنا تعاني من تعدُّد الشخصيات، والشخصية الأخرى هي مازن.

٢: الأم لم تمُت، لقد كانت مريضة بهلاوس مختلفة، وجنونها، وإساءتها المستمرة، ساعدت في تهيئ الجو النفسي العام داخل عقل الفتاة للذهان، ثم أتت لحظة موت مازن لتفقِدَ رنا توازنها بالكامل.

٣: بعض الأبحاث تزعم أن المرض النفسي متوارَث، لقد وُلدت رنا بجينات مختلَّة، وانتقلت إليها طباع والدتها كذلك، ماذا عن طباع أبيها؟ بالنسبة لرنا فإن والدها شخص سلبي لا تأثير له على عقلها الباطن؛ وبالتالي لم يحدث تطبُّع وراثي، رمز السلطة الأبوية كان والدتها، حسنًا.. بالنسبة للجاثوم، ما سر الاعتقاد الراسخ داخل العائلة بوجوده؟ سأفترض للحظةٍ، رغم أن هذا ينافي العلم، أن تلك الروح الشريرة حقيقية، وهي سبب الشر داخل رباب، رغم أن علم النفس لا

يعترف بكلمة " الشر "، لكل امرئ أسبابه ودوافعه وظروفه لارتكاب أي فعل، هذا ما علمني إياه علم النفس، ولكن دعوني أفترضُ فقط، أن الجاثومَ حقيقي، وعليه فإن الشر حقيقي.. في تلك الحالة، فرباب ليست مريضة فحسب، بل كيان مرعب، وهي من كانت تزور رنا ليلًا، وتتسبَّب لها بشلل النوم ونوبات الفزع الليلية، طبعًا كان مازن في جسد رنا هو مَن يتعرض لتلك الزيارات، هل تحرر جزءٌ من طاقة الشر الخاصة برباب بحواسها الخارقة وانسلّت لغرفة ابنتها؟.. أم أن الجاثوم، هو الذي كان يهاجم مازن: رنا، لأنه قد لعن تلك العائلة وأبناء رباب هم أحفاده في نهاية الأمر؟ حسنًا لقد انتهت لحظة الافتراض، لنعد للتفكير العلمي، لا يوجد جاثوم، هو رمز للمرض العقلي داخل عقل رباب، وقد انتقلت هلاوسُها به لابنتها رنا، وبالتَّبعيه لمازن، وبالتالي نوبات شلل النوم، والهجوم الليلي ليست سوى هلاوس مريضٍ نفسي يعاني الأمْرَين، أو.. الاحتمال الأخير هو أن رباب كانت تسلل خارج غرفتها ليلًا لتجثمَ فوق جسد ابنتها قبل أن تعود لسجنها، هذا سينفي منطق أنها تحرَّرت فقط في ليلة رأس السنة، وسيقودنا لمنطق أنها كانت تمتلك دومًا حرية الخروج بوسيلة ما، لكنها قرَّرت قتلهم في ليلة رأس السنة.

٤: ما سبق هو الفرضيات، والآن لنعاين الحقائق: رباب لم تَمُت، وظلت حَبيسة الغرفة، وقتَلت مراد وشيرين في ليلة رأس السنة، ما الذي يجعلُني واثقًا من هذا الأمر كحقيقةٍ؟ لأني أعلم رنا ومازن قد أخبراني بالحقيقة، تقنيًا لا يمكن للمريض أن يكذب بينما عقله لا يزال تحت تأثير التنويم المغناطيسي، وبالتالي فاحتمالية أن

شخصية رباب هي إحد شخصيات رنا داخل عقلها ليست حقيقية وأنا أرفضُها.

٥: أين رباب الآن؟ لقد خرَجت وهامت كالحيوان الطَّليق في شوارع الليل، هذا آخر مكانٍ معلوم لها، هل نفقَت؟ أم أنها لا تزال حية وتهاجم تُعساء الحظ الذين سيتعثرون في طريقها؟ الحقيقة أني أتمنى أن تكون الفرضيَّة العلمية هي الحقيقة؛ لأن رباب لو كانت من سلالة الجاثوم، وقوى الشر تُبارك أعمالها، فربما سيرشدها الجاثوم إلينا الآن وأجد نفسي وجهًا لوجهٍ أمام رُعبٍ لا يوصف ولا يُحتمل، نعم أتمنى حقًّا أن تكون الفرضية العلمية هي الأحقّ، بإمكاننا رَفْض الخرافات، ونحن نقرأ عنها، ونحن نشاهدها في التلفاز، لكن رغمًا عنا سيدفع بنا وَعْينا الجمعي لأسباب غامضة بأن نرتجف عندما نجِدُ من نحدِّثه يؤكد أنه شخصيًا يعاني استحواذًا شيطانيًا ما.

نهاية الملاحظات

***

انتهى مازن من حديثه بإرهاق وهو راقدٌ على أريكة د.مصطفى ثم قال الفتى: أنا مرهقٌ الآنَ، وأريد النوم.. الراحة الأبدية.. وداعًا يا دكتور.

- وداعًا يا مازن، وشكرًا لصراحتك، لقد كانت جلسة خاصة جدًّا ولن أنساها طالما حَييت، أنت شابٌ مميز جدًّا

ابتسم مازن بجانب وجْهِه، ثم همَس برقة: اعتنِ برنا من أجْلِي، ولا تجعلها تعرف شيئًا عن أهوال هذا العالم، هي حقًّا طفلة بريئة، ولا

أريد للقسوةِ أن تجِدَ إليها سبيلًا، اغْتنِ بقلب رنا من أجلي، هلّا فعلت هذا يا.. مصطفى؟

ابتسم مصطفى لمناداة مازن له أخيرًا باسمه دون ألقابٍ وهمَس بدوره: أعدك..

استسلم مازن لنوم عميقٍ هادئ، وظل مصطفى ينظر إلى الجسد، ثم فتَحت رنا عينيها، واعتدلت بحَيْرة، وأمام رؤيتها الضبابية التي تتضح وتتشكّل تدريجيًا رأت وجْهَ مصطفى مرة أخرى..

قالت الفتاة بصوتٍ ناعم، وهي تتحسَّس ذراعها: أنت مرة أخرى؟ ما الذي يحدث؟ أين أنا؟

- لا تقلقي من شيء يا رنا، أنت بأمانٍ، وكل شيء على ما يُرام.. كل شيء على ما يُرام يا فتاةٍ، حياتك كلها أمامك، وهم سوف يعالجونك من كل شيء؛ مِن كلٍّ ما مررتي به، أنت بحاجةٍ للصمود، والقوة، والثبات، إن النجاة والحياة بعدها لِهي معادلة صعبة لكنها تستحق القتال من أجلها، عليكِ أن تكوني مُقاتلة الآن، سأرشّح لكِ طبيبًا نفسيًا بارعًا، ولسوف يُتابعك لأعوام، عليك أن تبدئي حياتكِ مرة أخرى، أنت حرة الآن، وأعتقد أن ميراثك من مراد سيُغنيكِ عن تُرّهات الحياة، عليك أن تجدي وظيفةً تُحبينها، وأصدقاء يفهمونك، أبْعِدي عن الوحدة، كل ما أطلبه منك هو متابعة طبيب نفسي أمين، وأن تقسمي لي أنك لن تذكري شيئًا لأحد عني، وحينئذ، أنت حرة.. لن يكون هناك داعٍ لإبقائك هنا..

عقدت رنا حاجبيها وهي تستوعب كل هذا الكلام، هي تعلم أن

مراد وشيرين قد ماتا في حادثة ما، ربما عاد المُتنمِّرون الذي فتكوا بمازن في المدرسة لقتل باقي أفراد عائلته، الآن كلهم موتَى؛ أمُّها وأباها وأخاها وزوجة أبيها، كلَّا، مازن لم يمُت، آاه تشعُر وكأنَّ عقلَها يذوبُ، تأوَّهت رنا في ألمٍ، وهي تُمسك برأسها، فهمَس مصطفى: لا تفكِّري الآن في شيء.. أنتِ بخير، وهذا هو كل ما يهم..

ثم أعطاها ورقة بها رقم وأضاف: هذا هو رقم د.آردن، هو طبيب نفسي بارع جدًّا ولسوف يساعدكِ..

وضَعت رنا الورقة في جَيبها وابتلعت ريقَها ثم قالت: ما الذي سيحدث الآن؟

- لا شيء، لكِ مُطلق الحرية في الرحيل..

- الرحيل.. ألا توجد إجراءات للخروج من المستشفى؟

ظل مصطفى مُبتسمًا، بدا كأنه شارد ولا يسمعها حقًّا، وهذا قد أخاف رنا قليلًا، ثم انتبه إليها كأنَّه قد سمِعها للتوِّ وهمس: سأتولى أنا أمر الإجراءات.. .

ثم دوَّن مصطفى ملاحظة سريعة إضافية:

" من الواجب الذِّكْر أن شيرين قد التحقت بالعمل في شبكة مراد الإلكترونية بعد تعرفها عليه وليس قبل ذلك، مراد كان شخصية مركبة جدًّا "

وغمغم مصطفى: تلك آخر ملاحظة، لقد انتهت القضية، وعرَفت مَن هو الجاني، لم يكن هناك وحوش في تلك القضية عدا البشر،

كانوا جميعًا ضحايا بشكلٍ أو بآخرَ، عدا مراد، لا أعلم إن كانت رباب هي المَسخ أم مراد، لكني موقن أن رباب ضحية، هم حولوها لمَسخٍ، ورنا فتاة قد عانتِ الكثيرَ، شيرين كانت مريضة بالانتهازية، وتزوّجت نرجسيًّا يتغذى على معاناة الآخرين، رباب كانت بحاجةٍ للعلاج منذ طفولتها، ومازن ضحية تنمُّر أخرى..

رفع مصطفى رأسه ووجّه سؤالًا عجيبًا، لا تزال رنا تندهش منه ليومنا هذا، قال لها: ألا توجد احتمالية أنك قد احتفظتي بهوية الصِّبْية الذين تسبّبوا في موت مازن بالمدرسة؟.. كتبتي أسماءهم في ورقة أو شيء من هذا القَبِيل؟

- ك.. كلّا.. لماذا؟

سألت رنا مصطفى بشكٍّ فلوّح الأخيرُ بيده بمعنًى أن هذا لا يهم، ورأته يعقدُ حُقنة في يده فقالت الفتاة بقلقٍ: ما هو الغرض من تلك الحقنة؟

كان مصطفى يعلم أنه في حالة تزايد خوفها سوف تختفي شخصيتها ويعودُ مازن؛ لذا قال برقَّة: مُهدِّئ أعصاب.

ووضع الحقنة بعيدًا وهو يُردف: لن أعطيها لك لو لم ترغبي فيها.

عاد الهدوء لجسد رنا، الحقيقة أنها في حاجة لمهدئ، عادت للاسترخاء فوق الأريكة، وأولج مصطفى الإبرة في ذراعها..

ببطءٍ وتدريجيًا عاد ثِقَل لجفني رنا، ثم أظلمت الدنيا من حولها..
مرَّ بخاطرها عدَّة صور متلاحقة؛

صورة لمراد، وجه في خلفية حمراء اللون، مقطب الجبين، شيرين تقرع باب شقتهم بوسط البلد، صورة لوالدتها وهي تُعد الطعام بالمطبخ، ثُعد صلصلة طماطم تنسكب منها أرضًا كشلّال من الدم، فتنحني الأم أمام الطفلة الواقفة أمامها لتنظيف الفوضَى، صياح أمها وتطاولها عليها بالأيدي وهي تجبرها على شُرب كوب اللبن الأبيض التي لطالما كرهته رنا من أعماقها..

كوب لبن أبيض..

صلصلة طماطم..

تحولت تلك المفردات لأقفال الغرف المغلقة داخل عقل رنا، حيث تختبئ عشرات المسوخ، ذِكْرى الطماطم أصبحت في عقل الطفلة مشهد أمها وهي تُفرغ جوفها دمًا، وأصبح اللون الأبيض يمثِّل ذِكريات رُعبها الطفولي من والدتها، بإمكان الآباء أن يصبحوا هم المسوخ الحقيقيين أحيانًا..

كانت تلك ملاحظات لم يكتُبها مصطفى..

وآخر صورة مرّت داخل ذهن رنا جعلتها تبتسِم قبل أن تُغلق عينيها في هدوء..

صورة لها وهي تسير متشابكة الأيدي مع مازن في المدرسة..

والتفت أخوها الطفل، لينظر لها بعينين تفهمان ما يدور داخل صدرها دون شرح، وهمس بحب: ستكونين على ما يُرام يا رنا، سأعتني بك دومًا..

***

سار د. آردن في المرآب متجهًا لسيارته، دلَف للسيارة بوجهٍ مكفهرٍّ وأدار المحرك عندما أجْفَل والتفت للخلف مذعورًا، كانت هناك فتاة بالمِقعد الخلفي لسيارته فاقدة للوعي وجوارها جهاز تسجيل، التقط آردن جهاز التسجيل وأداره وهو يعلم جيدًا ما الذي سيسمعه..

" اسمها رنا مراد، تعاني من تعدُّد الشخصيات إثْرَ موت أخيها وهي طِفلة، ومن إساءة والدتها لها، ستجد ملَفَّ الحالة في حقيبةٍ سوداء "

مد آردن يده والتقط حقيبة سوداء جلدية، فتحها ونظر لملَف الحالة، وجوارها مبلغ ضخم من المال، استمر صاحب الصوت في حديثة من جهاز التسجيل:

" دفعة مالية لخدماتك، ودفعة إضافية من أجل السرية المعتادة، اغْتَنِ بها جيدًا، السلطات سوف تريد استجوابها، هي ضحية هجوم منزليٍّ غادر، قام به عدد من اللصوص، اغْتَنِ بها جيدًا، واحرص على حصولها على ميراثها وبيتها، ولسوف تنتظرك دفعة مالية أخرى "

انتهى التسجيل، طالعت عينا د. آردن وجْهَ رنا النائمة، وغمغم لنفسه وهو يهزُّ رأسه: أنا مجنون حقًّا لموافقتي على صفقات هذا الرجل..

لكنه - آردن - كان يعلم أن هناك سببًا آخر جوهريًّا لموافقته على صفقات مصطفى، سببًا بخلاف المال، وإشباع فضوله العلمي في علاج حالات مرضية نادرة، السبب كان ببساطة هو الخوف..

***

جزء من خبر قديم بجريدة إخبارية:

" ملاحظة: مُلحق بالخبر صورة بالأبيض والأسود لرجل في قناعٍ أبيض "

" اختفاء "الرجل ذو القناع الأبيض" بعد مقتل زوجته الحُبلى وولديه أمام عينيه بمقهًى بوسط البلد، وقد تابع الرأي العام حالة د.هيكل بعدما قضى أربعة أعوام في مصحة نفسية بعد مقتل أسرته أمام عينيه، وهو يصر على ارتداء قناع أبيض ليُخفي وجْهَه، ورغم انتشار الإشاعات عبْر الشبكة الإلكترونية، والفيديوهات الزائفة التي تحدثت عن مقتل عائلة "الرجل ذو القناع الأبيض" في منزلهم بطرق قتل أشبه بأعمال الجزّارين في العيد، ورغم تأكيداتنا المستمرة بعدم استقصاء الأخبار من الشبكة العنكبوتية والالتزام بالجرائد الورقية، فإننا قرّرنا كلمحة إضافية من جريدة ورغبة في إعلاء شأن المصداقية بأن نقدم لكم جزءَ تقرير الطبيب النفسي المعالج للرجل ذي القناع الأبيض، وإليكم التقرير:

" د.هيكل يعاني من متلازمة عقدة الذنب بشكل متطرِّف، لقد فَشِل في حماية زوجته وابنته وابنه، وأنا أؤكد هنا أنهم: زوجة حُبلى وابنة وابن، أربعة أرواح قد زهقت، لقد فقد الرجل عائلته، المرء يعاني طِيلة العمر لفقدان ابن فما بالك بشأن فقدان ثلاثة؟ كما أن تفاصيل الجريمة لم تكُن بجريمة ضرورية على الإطلاق وأعني بهذا أنه لم يفقدهم إثر دوافع انتقامية أو بسبب دافع شخصي ومنطقي،

هذا لم يكن ليقلل من درجة الألم التي يمر بها د.هيكل في شيء، لكنه كان ليقلل من درجة العبثية والجنون، اللتين تمكنتا من عقله تمامًا، د.هيكل يرتدي قناعًا أبيض بسبب الذنب، هو لا يُطيق النظر لوجهه، تخيَّل معي شخصًا لا يحتمل أن يحيا مع نفسه، هو يمر بمائة سيناريو مختلف كل ليلة، يتمكن في كل واحد منها من ارتكاب تصرف أو إحداث تفصيلة تغيِّر مصير عائلته وتَقيهم من النهاية السوداء التي مروا بها، المصير البشع الذي كان ينتظرهم، هو فقدهم بسبب أربعة أفراد مجهولين ارتكبوا فِعلتهم - حسب أقوال الشهود - تحت تأثير المخدرات. ثاني متلازمة يمر بها د.هيكل هي التعاطف، وهي القدرة على تبنِّي وجهة النظر العاطفية للآخرين، فيشعر بما يشعرون، بإمكانه إقناع نفسه أنه هُم، فمثلًا سنجد أن الشفقة شعورٌ مؤقت يزول ولا يتطلب ردَّ فعل، لو رأينا متسولًا في الشارع سوف نتأثر قليلًا قبل أن تُلهينا مشاغلنا وننسى الأمر برُمته، ولكن الأمر يختلف مع د.هيكل، لو رأى هو نفس المتسوِّل فلسوف يتقمَّص وجهة نظره العاطفية، ويصبح هيكل المتسول، ولسوف يشعر بكلِّ آلامه، ويفكِّر مثله إلخ إلخ، ولن يهدأ لهيكل بال إلى أن يُساعد المتسوِّل أو يصبح مثله بسبب الاكتئاب، أما عن سبب إصابة د.هيكل بمتلازمة التعاطف فالسبب هو لامبالاة الشهود أو عدم قدرتهم على التدخُّل وقتَ مصرع أفراد أسرته، فجاءت متلازمة التعاطف كردٍّ فعل عكسي لهيكل، والعرض الجانبي للتعاطف هو القدرة على التقمُّص وتقليد الآخرين. من الواجب الذِّكْر أني قضيت آخر ثلاثة أعوام في المصحَّة، هو قد قضَى عامًا قبلَ قُدومي مع زميل آخرَ، وفي أعوامنا الثلاثة تلك دار بيننا حديث شيق جدًّا وهذا تفريغ للحديث:

ملاحظة: يفضِّل د.هيكل أن أدعوه باسمه الأول، وكما تمّ التدوين في السجلات فإن اسمه المركب في شهادة الميلاد هو: مصطفى هيكل.

آردن: كيف حالك يا د.مصطفى؟ لماذا أنت صامت أغلب الوقت؟

مصطفى: انا أحيا داخل قصر الذكريات الخاص بي، جسدي موجود هنا بين جُدران غرفة المصحة، لكني ألهو مع ابنتي بين جُدران القصر..

آردن: وما هو قصر الذكريات يا د.مصطفى؟

مصطفى: لا تناديني بلقب دكتور من فضلك، هذا اللقب الوضيع الذي لم يساعدني في شيء.. اسمي مصطفى، قصر الذكريات هو قصر بحجم قلعة سلطان المماليك بنيته داخل عقلي، أحتفظ بكل الذكريات داخل أروقته وغرفِه، وأختبئ به وقتما شئت، هم هناك ينتظروني؛ ابنتي وزوجتي وابني، زوجتي ستلِد قريبًا وعليّ الاعتناء بها، أنا لم أفقد اتّزاني، أنا أعلم أن قصر الذِّكريات هو قُدرة على التواصل مع اللاوعي عن طريق الخيال، لاستشعار ذكرياتك كأنها أشياء تحدث حقًّا، وبالتالي فإن الإنكار لم يتمكن مني، وقصر الذكريات مثله مثل العقل البشري، به الأشياء المظلمة أيضًا إلى جانب الأشياء الطيبة، لكنه آلية دفاع ممتازة للهروب من الحزن والألم؛ ولذا أنا أقضي وقتي هناك داخل القصر وليس هنا في تلك الغرفة، ردهة القصر عليها رسمة جُمجمة الموت بابتسامتها الماجنة، لتذكِير نفسي بالواقع والحفاظ على اتّزاني.

عودة لتقرير د. آردن داخل الخبر في الجريدة الورقية:

"كما ترون فإن د.مصطفى شديد الذكاء، وقوى الشخصية إلى حدٍّ كبير، هو يشخِّص حالته جيدًا، ويستطيع التحكم في شياطينه الخاصة ببراعه وترويضها، من المؤسف أننا لن نعرف أبدًا ما توصَّل إليه الطبيب الشهير قبل الحادثة فيما يخص تجاربه للتحكم في اللاوعي والتي حصل عنها على جائزة نوبل، دعوني أقدم ملاحظة سريعة هنا، مقالات الصحف التي تحدَّثت عن الجانب الأسود من أبحاث د.مصطفى هيكل بعد حصوله على نوبل، تلك المقالات المضحكة التي تحدَّثت عن التحكم بالعقول و" غسيل الدماغ " لهي محض هُراء لو عذرتموني في التعبير، لماذا يجب أن ننتقد عالمًا عبقريًا مثله لمجرد وصوله للعالمية وحصوله على الجائزة الشهيرة؟ على أي حال، تلك هي حالة د.مصطفى، هو يكره المرايا ويتجنَّب النظر إليها لأنه لا يزال يلوم نفسه على ما حدَث له، طبعًا لا يجب التصريح بالبديهيات، وهي أنني بصفتي مدير المصحة قمت بمجازاة وتسريح طاقَم العمل الذين تسبَّبوا بإهمالهم في هروب د.مصطفى من المصحة، ولعل تلك فرصة للتعبير أن تغيير الإدارة وفريق العمل في المَصحة أمر بمثابة نقطة انطلاق جديدة بالنسبة لنا، وأنا أؤكد أننا الآن نعمل وَفْقًا للمعايير العالمية"

عودة للخبر الورقي:

"وقد صرح لنا د. آردن أن كون د.مصطفى شديد الثراء بسبب جائزة النوبل التي حصل عليها سيزيد من صعوبة اقتفاء أثره، فهو يمتلك العديد من الوسائل التي يستطيع الاختفاء بها، بل وحتى بناء

مكانٍ خاص ومنعزل تمامًا ليصبح قصر ذكرياته في عالمنا هذا على حدِّ قوله مُعالِجَه النفسي"

***

عام ٢٠٢١، مصحة الأفق النفسية:

انتهى د.آردن من جولته بين ردهات المصحة وتفقد النزلاء، توقف عند غرفة معينة ونظر بداخلها، للنزيل الراقد فوق ظهره خلف المانع الزجاجي، واضعًا ذراعه خلف عنقه وناظرًا للسقف في صمت، كان هناك طبيب شاب متدرب يقف خلفه وسأل الأخير: أما زال لم ينطق بحرف؟

- ثلاثة أعوام كاملة منذ أن وجدوه وهو في حالة صمت تامة..

قالها آردن وهو ينظر للنزيل قبل أن يتَّجه للغرفة المجاورة، وابتسم آردن قائلًا: د.مصطفى، أتمنى أن تكون وجبة اليوم قد أعجبتك، غدًا سوف نسيرُ معًا بالخارج ونلعب الشِّطرنج كما تحب..

هز مصطفى رأسه وهو يجلس متربعًا وتمتم: شكرًا.

حيَّاه آردن بهزة من رأسه ثم رحل مبتعدًا مع الطبيب الشاب، وبعد وهلة أغمض مصطفى عينيه بألمٍ، ثم خبط رأسه بالحائط..

كان هذا عندما سمِع صوت الدندنة والصفير القادم من النّزيل بالغُرفة المجاورة، ثم أتاه صوته.

صوت هادئ، واثق.. وساحر..

- لا زلت تريد الموت؟

- نعم.

قالها مصطفى بألمٍ، فأردف النزيل: وماذا عنهم هُم؟ الذين أخذوا بهجتك؟.. ندباتك موجودة كي تذكِّرك بأن الماضي كان حقيقيًّا أيها الطبيب، أنا لا أرى شيئًا مثيرًا للاهتمام في تعفُّنك هُنا حتى الموت، أنت قد حصلت على نوبل أليس كذلك؟ لماذا لا تستخدم عقلك هذا في فعل شيء ما وتكُفَّ عن الاستسلام للعتمة، لا توجد بهجة في العتمة أيها الطبيب.

صمت النزيل بعدها، وتمتم مصطفى وهو يتذكَّر الأربعة الذين سلبوه عائلته: هم لا يستحقون الحياة

***

الوقت الحالي:

امتدت أصابع رنا وهي تقلِّب عددًا من مجلة مغامرات " تان تان " الورقية، أمامها صفحة من الرسوم الكرتونية لتان تان والقبطان هادوك وكلبهم ميلو وهم يجلسون داخل قارب صغير، في طريقهم لباخرة القراصنة لإنقاذ البروفيسور العبقري " برجل ".. هنا أدار القبطان هادوك رأسه من داخل المجلة ونظر لرنا متحدثًا ببطء: تبدين مرهقة يا فتاة.

- بالتأكيد أنا مرهقة، لقد مرَّت أشهر وأنا أمتثِل للعلاج النفسي، صحفيون فضوليون يتَّصلون بي باستمرار مهما أُغير مِن رقمي،

وعندما أسألهم كيف حصلوا عليه لا يجيبونني، كأن حقّهم الطبيعي هو أن يأخذوا رقمي ويتصلوا بي، والوقاحة الحقيقية هي أن أسالهم عن كيفية حصولهم عليه! كائنات طفيلية تتغذَّى على أوجاع الآخرين لتحقيق طموحهم الشخصي، لشدة ما أمقتهم، نعم يا هادوك أنا مرهقة، للوقت طريقة عجيبة في المرور، استجوابات الشرطة وتشككهم المُثير للتوتر قد استنذفني بحقٍّ، والمُثير للرعب أنه كلما ازداد توتري ازداد تشككهم، لا يصدِّق أحد قصَّتي عن جلستي مع الطبيب النفسي مصطفى، ولا عن فترة اختفائي بعد الجريمة، نعم نعم يا هادوك لا تنظر إليّ هكذا، لقد اتفقت مع د.آردن أن تلك كانت هلاوس ووهامًا خاصة بي، إني قد ضللت طريقي وهِمْت، ولا يوجد أحد يُدعَى مصطفى، لكن..

تأخذ رنا نفسًا عميقًا ومكابرًا وهي تتحكَّم في انفعالاتها، تحارب تهدّج صوتها ودموعها التي كادت أن تنساب وتهمس لنفسها: أنت بخير.. أنت بخير.. كوني قويّة.

ثم نظرَت لهادوك وأردفت: لكن أنا لم أفقد اتصالي بالواقع.

قاطعها هادوك فجأة بإشارة من يدِه أن تنتظِر، وهتَف بشيء ما في تان تان الذي كاد أن يقلب بهم القارَب، ثم رد عليها هادوك معتذرًا: لقد اقتربنا من باخرة القراصنة وعليّ أن أخفض صوتي، وهذا الأحمق كاد أن يقلب بنا القارب، من الصعب الحفاظ على استقرارية القارب وسط أمواج البحر كما تعلمين.

ابتسمت رنا مؤيدة.

- نعم هذا حقيقي، مثل الحفاظ على اتِّزانك عقلي وسط أمواج أفكارك، تبدو كجملة سخيفة ومبتذلة سامحني، حسنًا يا هادوك.. حظ سعيد مع القراصنة.

- انتظِري، هناك شيء آخر يلوح داخل عينيك يا فتاة ما بكِ..

تنهدت رنا ونظرت لانعكاسها في المرآه، لقد استغرق الأمر أسابيع من التمرين مع د.آردن كي تستطيع النظر لنفسها في المرآة، لتقبل حقيقة أن أخيها قد توفى وهي طفلة، وأن لصوصًا وحشيين اقتحموا منزلها ليلة رأس السنة وقتلوا أباها وزوجته " لا يجب أن ننسى اتفاق مازن مع مصطفى بحجب حقيقة أن والدتها كانت حية طيلة الوقت وهي القاتل خلف الجريمة "، جلسات أبدية مع د.آردن استوعبت بها رنا أن سيلين وعائلتها ليسوا حقيقيين مثل عادل.. وستظل دومًا شاعرة بدفء ما بداخلها، دفء لوجود مازن بمكان في قلبها وليس عقلها الآن، هي تحيا بشقة إيجار جديد بعد أن عرَضت بيتهم للبيع، يومًا ستجد شخصًا يشتري البيت المشئوم الذي وقَعت به عدة جرائم قتلٍ، ولسوف تنتقل من القاهرة لمحافظة مثل الغردقة أو دهب، ستحيا جوار البحر وربما لو تبقّى معها مال فسوف تفتح مقهًى جوار البحر، حياة هادئة بعيدًا عن كل هذا الصَّخب، هي ليست مخبولة الآن، حقيقة أن من يعانون من المرض النفسي لا يعرفون حقًّا أنهم يعانون منه، لكنها تعلم أنها تتحسَّن، ماذا عن حديثها مع شخصية كرتونية داخل مجلة؟ هذا مجرد خيال ووحدة ليس أكثر، الخيال هو النوع الجميل دومًا من الجنون، كرر هادوك وهو يرفع حاجبه: لا يوجد لديّ الكثير من الوقت، أنا بصدَد التسلل للباخرة

الآن، ما هو سبب الشك في عينيك هذا؟

- لا أعلم يا هادوك، أنا أرى الواقع الآن.. أعرف أني كنت وحيدة منذ طفولتي، لم يكن هناك سيلين ولا عادل، أعلم الحقيقة الآن.. لكن، رغم كل هذا، ورغم أني أكاد أقتنع بما قاله لي آردن بشأن هلوستي بصدد مصطفى الطبيب النفسي، وأنه مجرد إسقاط من عقلي الباطن لكي يريني الحقيقة، لكني لا أرى هذا كجزء من الواقع الجديد الذي أحاول الاعتياد عليه، أشعُر وأكاد أقسِم أن مصطفى حقيقي، أعلم أني عشت طِيلة عمري مُقتنعة أن أخي لا يزال حيًا.

قاومت رنا الغُصة في حَلْقها وتابعت وهي تتحسَّس عُنقها بأناملها: لا أعلم كيف أصِف لك ما أشعر به، لكني.. أثق بحدسي..

ابتسم هادوك وهو ينظر إليها، هي اكتسبت الكثير من صفات مازن، الثقة في حدسها والنفور من الابتذال، قال لها هادوك بتعجل: ربما عليك أن تثقي بحدسك..

خبطت رنا على رأسها وهتفت: الأمر يكاد يثير جنوني، لو كان مصطفى حقيقيًا فأين هو؟ لماذا يختطفني أحدهم ليعالجني؟ هل ضللت طريقي وظللت أهيم لمدة يومان قبل أن يجدني د.آردن والشرطة؟

كان هادوك قد بدأ بالفعل في تسلُّق الباخرة، هتف لها مودِّعًا: ثِقي دومًا بحدسك، لا يوجد ضرر في طلب المحادثة.. وداعًا الآن.

- حظ جيد مع القراصنة يا هادوك.

***

لا يوجد ضرر في طلب المساعدة.

***

تكرَّرت الجملة في عقل رنا وهي تجلِس بمقهًى مطل على حديقة، أطلقت زفرة قوية وهي تتذكَّر لزاجة الصحفيين الذين أرادوا الاستفادة من فاجِعَتها واستغلالها، هي موقنة أن الخبراء الذي ستطلب رأيهم مثلهم مثل هؤلاء الصحفيين، لكنها لن تخسر شيئًا من التجربة، وجدت نفسها تتمتم بسخرية، وبطريقة مازن المعتادة في الحكم على الأمور: فكرة وجود محقِّق خاص في مصر أشبه بوجود نقابة للصوص والمحتالين..

كانت متوترة قليلًا، ودار بذِهْنها احتمالات عدة، ربما يحاولون سرقتها أو الاعتداء عليها؛ لذا طلبت اللقاء في مكان مفتوح وليس بمكتبهم..

أطلقت زفرة أخرى قبل أن تلتفت خلفها وتسأل الفتاة الجالسة على المنضدة المجاورة عن الساعة، توترها أنساها أن تتفقد ساعة هاتفها، هم أيضًا متأخرون.. حسنًا تلك إشارة واضحة عن عدم فحوى الأمر، سترحل.. كانت تقف بالفعل عندما وجدت رجلًا نحيفًا شاحب الوجه يرتدي قميصًا صيفيًا أبيض وسروالًا رماديًا يسير جوار امرأة ثلاثينية ذات شعر أسود معقوص للخلف ترتدي فستانا بنفس لون شعرها، تعرفت رنا عليهم من صورتهم قبل الاتصال بهم، والحقيقة أن مَرْآهم قد أوقف شلال توقعاتها والسيناريوهات

المختلفة الدائرة بذهنها، خفَّ قلقها وعاودت الجلوس مرتكزه بعينيها عليهم، روائية شهيرة وأخصائية علاج نفسي، هذا كان السبب الذي دفع رنا للاتصال بها، كونها روائية ذات شهرة لن ينفي كونها محتالة كمحقِّقة خاصة لكنه يقلل الاحتمالية قليلًا، أما الرجل فقد بدا كمخبول حقيقي.. ولم تَرْتَح رنا له على الإطلاق، وعليه فقد تجنَّبت النظر إليه تمامًا عندما جلسوا معها على نفس المنضدة بعدما وقفوا في حيرة باحثين عنها وكادوا أن يتصلوا بها عندما أشارت هي لهم..

ابتسمت لها الكاتبة وهي تمد يدها مصافحة رنا.

- ناردين الصباغ.

مدَّت رنا يدها بتردد وصافحت المرأة، وقال الرجل: صلاح.

تجاهلته رنا ولمَحت القليل من الحيرة والدهشة على وجْهِه.. حافظت ناردين على ابتسامتها قبل أن تقول: اسمحي لي أن أدخُل بصلب الموضوع فورًا وأقول لك: إني آسفة جدًّا لما مَرَرتي به.. فقدانك لعائلتك بهذا الشكل.. إنه حقًّا أمر.. سيئ.

وأيدها صلاح بإيمائة من رأسه..

تفحصت رنا ناردين الصباغ بعينيها، لم يكن هناك افتعال أو ابتذال في كلامها؛ ابتسامتها حقيقية، ولا توجد نبرة الاحترافية التي تميز مَن لا يُبالون حقًّا بما يقولون، كما لم تستخدم كلمة " مؤسف " للإشارة عمَّا حدث، لقد قالت إنه أمر سيئ..

قال صلاح شيء ما فأجفلت رنا ونظرت له بترقب، رفع حاجبية

وكرَّر: كنتُ أقول: إننا نتمنَّى أنك على ما يُرام.

رغمًا عنها ضحكت ناردين وقالت: أعتقد أنها خائفة منك.

قطب صلاح جبينه وهمس: علام؟ أنا لم أفعل شيئًا..

نقلت رنا ناظريها بينهم، شعَرت بألفة غير مبررة كأنها تعرفهم منذ فترة طويلة، والبوصلة بداخلها قالت لها إنهم غرباء الأطوار مثلها، لكن يجب أن تكون حذرة كذلك، كل محتال يجيد مهنته يستطيع إشعارك بالألفة..

نظر كل من ناردين وصلاح لرنا قبل أن تقول الأولى: كيف نستطيع مساعدتك يا آنسة رنا؟

أخذت رنا نفسًا طويلًا، تفحَّصت وجوهَهم مرة أخرى.. قبل أن تفتح فمها، لم تكن تعرف ما الذي ستقوله بالضبط، ولو كانت قد فكَّرت فيما ستقوله لكانت صمتت في توتر وهي تخطط لمحادثات وهمية فحسب، لكنها لم تفكر، لقد فتحت فمها ليس أكثر.. ووجدت نفسها تحكي كل شيء..

***

"لو كان مصطفى حقيقيًا، فهناك شيء غامض بشأنه.. أريد معرفة ما هو؟ "

تبادلت ناردين نظرة دهشة مع صلاح، ولم يفت على رنا حماسة ناردين وبريق عينيها وهي تستمع للحكاية، تلك المرأه غريبة الأطوار ومخبولة قليلًا، لا ريب أنها تكتب روايات رعبٍ، قالت رنا إزاء

دهشتهم: ما الأمر؟

- كنا نعتقد أنك تريدين منّا البحث عمّن.. عمّن..

- لا داعي للحساسية، أعتقد أني أريد منكم إيجاد قاتل والدي وزوجته؟

أغمضت رنا عينيها وزفرت كعادتها زفرة مُطولة قبل أن تُردف: كلّا، لا أعلم لماذا، لكني لا أريد معرفة من الذي اقتحم بيتنا وارتكب تلك الجريمة، ليرحم الله مراد وشيرين ويوسف، الكل يشير بشكل غير آدمي على أنه عامل التوصيل، لكن اسمه كان يوسف ولا بد أنه امتلك الكثير من الأحلام والطموحات، د.آردن شرح لي أن جزءًا من عقلي يُملي عليّ رغباتي وهذا الجزء لا يُريد مني التورط في البحث عن القتَلة، ما أريد معرفته هو هل جلستي الطويلة مع د.مصطفى كانت أمرًا حقيقيًا أم لا؟

أشعل صلاح لفافة تبغٍ، فسعَلت رنا ونظرت له باستياءٍ، أطفئ صلاح اللفافة وهو يغمغم: ربما من الأفضل أن أرحل وأترككم معًا، إن النساء يفهمن بعضهن أكثر ولا..

- كلّا لم أقصد..

- العقل البشري يرى كل شيء.

صاحت ناردين بالعبارة فجأة فانتفضت رنا وأعقب صلاح مفسّرًا: هي تفعل هذا كثيرًا، تُغمض عينيها وتزوم بشفتيها مفكرة بشيء ما قبل أن تصيح بصوتٍ جهوريٍّ..

- آه فهمت.

قالتها رنا بنبرة من لم يفهم حقًّا ثم تابعت بصوتٍ مرهق: ما الذي تَقصدينه يا أستاذة ناردين؟ وأرجوك لقد أرهقت من كل المصلحات النفسية بعد جلساتي مع د.آردن.. فسري لي ببساطةٍ.

- لا تدعوني بأستاذة، من فضلكم ادعونِي بناردين، لا كُلفة بيننا ونحن نتحدث عن جرائم قتل وجاثوم ورجل لم يكن.

قالتها ناردين بحماسٍ وهي تلوّح بذراعيها؛ فهز صلاح رأسه في يأس قبل أن يغمغم: سوف تستطرد الآن

أردفت ناردين: هذا يذكّرني بقصة موعد في سمارة لسومرست موم، التاجر البغدادي الذي أراد الهروب من عزرائيل بعد أن نظر له الأخير في السوق مُندهشًا، هرب التاجر لبلدة سمارة تاركًا بغداد بأسرِها، هناك أتى إليه عزرائيل، وقال له: لقد اندهَشتُ لمقابلتك في سوق بغداد، فموعدي معك هنا في سمارة.. آاه ما الذي كنت أقوله؟ نعم نعم.. العقل البشري يرى كل شيء، ويعمل كمرشِّح مياه، يُعطي وَعْيك الأشياء الضرورية ويلقي بالباقي للاوعي، لو كان مصطفى حقيقيًّا فكَوْني واثقة أن عقلك يعرف بالفعل ولا شيء أبدًا سيغيِّر من تلك الحقيقة، مثل موعد التاجر في سمارة، لا شيء سيحيل بينه وبين عزرائيل، هل تفهمين ما أريد قوله؟

هزت رنا رأسها نفيًا وقد ذهَبت كل مخاوفها بكون ناردين وصلاح محتالين، هي الآن قلقة بشأن كونهما مخابيل، شرحت ناردين: أنت حكيت لنا عن قصاصة جريدة قديمة، جوار فراشك هناك في غرفة

المستشفى التي لم توجد حسب مزاعم آردن، والحقيقة أني أعرف هذا الطبيب لكن هذا ليس بموضوعنا، والآن اسألي نفسك، سواء أكانت تلك هلاوس أو حقيقة، ما سبب وجود جريدة قديمة منذ عشرة أعوام عليها خبر يخصّ الرجل ذا القناع الأبيض، د.هيكل الذي فقد عائلته..

- لا أعرف، لم أتطرّق لهذا الشأن مع د.آردن.

- هناك منطق في الجنون، عقلنا يحاول دومًا وضع منطق ما حتى في الخيال، لنفترض أنها كانت هلاوس، أنت تهيمين في الشارع بعد صدمة الجريمة وعقلك في مكان آخر يتخيل جلسة طويلة مع طبيب نفسي، هذا أمر مفهوم، لكن ما سبب وجود جريدة عمرها عشرة أعوام؟ هذا ليس بأمرٍ منطقي.. حتى لو افترضنا أن عقلك الباطن قد اختزل ذكرى الرجل ذي الضمادات البيضاء المحيطة بوجهه؛ ولأن - في هلوستك - وجهك كان مغطّى بالقماش الأبيض أيضًا، فهذا أطلق العنان لتلك الذكرى.. لكنه لا يزال أمرًا غير منطقي هل تعلمين لماذا؟

- كلّا.

- لأنك في الأغلب كنت سترين لوحة للرجل ذي الضمادات البيضاء فتتذكرين الحادثة الشهيرة التي شغَلت الرأي العام حينذاك..

- حسنًا.

- القضية مثيرة بحق.

قالتها ناردين بسعادة وحماس، في حين طرَق صلاح بأصبعه قبل أن يقول: لو افترضنا أن مصطفى حقيقي، فهذا الرجل قد عرَف بوقوع الجريمة، ذهب إلى بيتك، أخذك من مسرح الجريمة لمكانٍ بعيد، لمستشفى لا يعرف أحد بوجودها، وعالجك نفسيًّا ثم أعادك للسلطات بطريقة ما، الأمر يبدو وكأنه مستحيل تمامًا واقعي.

أومأت ناردين برأسها وتبادلت نظرة مع صلاح..

تمتمت رنا: لكن لا يبدو عليكم الاقتناع باستحالته.

- يمكنك القول إننا قد رأينا الكثير من المستحيلات.

رفعت رنا حاجبيها، وصمتوا جميعًا مفكّرين قبل أن تقول ناردين ببطء: كيف عرف مصطفى بوقوع الجريمة وذهب لبيتِكِ؟

هزّت رنا كتفيها وفكّر صلاح بصوتٍ عالٍ: التفسير أنه هو القاتل.

- لماذا يُعالجها إذن؟

- لأنه مجنون..

- هناك دومًا دافع حتى في الجنون.

- ليس دائمًا، بعض الأشياء تحدُث فحسب.

- عندما تكون عشوائية، بافتراض أنها لم تكن تهلوس وأن إحساسها صحيح، فمصطفى رجل شديد الذكاء، طبيب نفسي، أو شخص ذو خبرة بعلم النفس تظاهر بكونه طبيبًا، اختطفها وأعادها دون أن يظهر تمامًا، دعك من طبيبها النفسي الذي يعمل مع

الحكومة، آردن، أكد لها أن مصطفى ليس حقيقيًا..

- نظرية مؤامرة؟.. لا يزال هناك غياب للدافع.

- عدم رؤيتنا لدافع لا ينفي وجوده.

- اصمتوا ودعوني أفكر قليلًا.

قالتها ناردين وأغمضت عينيها، مال صلاح برأسه تُجاه رنا فتراجعت الفتاه للخلف بقلقٍ، همس صلاح: لا أفهم سبب رعبك مني، أنا لست ذئبًا متوحشًا يا فتاة، أردت أن أشرح لك فحسب ما تفعله هي..

- آاه حسنًا

كذا همست رنا بدورها وهي تميل اتِّجاه صلاح الذي قال: ناردين تمتلك القدرةَ على التعاطف، القدرة على تبنِّي وجهة النظر العاطفية للأخرين، تلك القدرة تأتي مع الخيال، لأسبابٍ كتلك ينتحِر بعض الفنانين مثل فان كوخ، الاكتئاب يُصيبهم بسبب تعاطفهم، تخيَّلي لو أنك تقمصتي وِجْهة النظر العاطفية لمتشرِّد، ترين ما يراه، لا مبالاة الآخرين، تشعرين ما يشعر من جوع وألمٍ وعدم راحة، وهكذا.. هي الآن تغمض عينيها وتنطلق داخل عقلها متقمِّصة شخصية مصطفى كما وصفتيه أنت.. لتحاول فهم أسبابة ودوافعه لما حدَث..

ظل صلاح يشرح بينما عقل ناردين يشرد بعيدًا.

***

أضواء ساطعة داخل عقلها..

هي تقف أمام مرآه مرتدية معطفًا طبيًا طويلًا..

بمكان بعيد.. بعيد للغاية..

تعدل من وضع ياقة المِعطف..

خلفها يرقد جسد فتاة مخدَّرة على مَحفّة..

تدفع ناردين بالمحفة صَوْبَ غرفة في نهاية ممرٍّ طويل يبدو كأنه يمتد للأبدية كلما سارت به..

لكنها تصل للغرفة في النهاية..

العالم يدور من حولها..

أضواء ساطعة..

تمد ناردين يدها وتُدير مِقبض الغرفة.. .تحمِل رنا وتُرقِدها فوق فراش.. تفتح إطار النافذة لتظهر حديقة صغيرة.. تعدل ناردين من وضع المرآة وتنظر لانعكاس وجْهِها، هي رجل أربعيني ممتلئ الجسد في معطفه الطبي، تتراجع ناردين للخلف، ببطء كأنها تطفو.. تضع جريدةً ورقية جوار الفراش الذي ترقد فوقه الفتاة..

لأنها تريد أن تعلم سبب وجودها هنا..

لأنها هي الرجل ذو الضمادات الطبية..

تجلس ناردين بهدوء على المقعد المريح المواجه للفراش..

وتنتظر استيقاظ الفتاه..

وتترك نفسها لأفكارها لحين حدوث هذا..

الرجل ذو الضمادات البيضاء يفقد عائلته في حادثة مريرة..

زوجته الحُبلى وابنه وابنته..

يا لألِمِ الفقد هذا..

هذا الانقباض المروع داخل صدرها.

ليالٍ من الجنون والأرق..

بكاء وصراخ وغضب..

لقد أخذوا عائلتي منِّي.. أنا لم أفعل شيئًا خاطئًا، لم يكن هناك سبب لما حدث.. لكنهم أخذوا عائلتي مني..

ما هو سر الرجل ذي الضمادات البيضاء؟

الانتقام..

الانتقام..

الانتقام..

تفتح ناردين عينيها وتشهق، تمسح دمعة انسابت على وجنتِها، وهي تُغمغم: أخذوا عائلتي.. أخذوا عائلتي

ربَّت صلاح على كتفِها برفقٍ، نظرت له بامتنان نظرة من نوع: لا تقلق لقد عُدت إليكم..

ثم أخرجت هاتفها وبحثت عن شيء، بعد دقائق أدارت شاشة

الهاتف صَوْب وجه رنا قائلة: معظم الأخبار بشأنه تُظهر وجهَه وهو خلف الضمادات البيضاء، مثل الصورة التي رأيتها له عندما استيقظت، رنا.. هل هذا هو د.مصطفى؟

تتسارع دقات قلب رنا، تشعر بألمٍ في رأسها، صداع مُباغت لَعِين، لسبب ما تفكر بهادوك وهو يحارب القراصنة، قبل أن تتراجع للخلف وتقول ببطء: نعم هو..

نظر صلاح لهاتف ناردين، حيث يوجد خبر عن د.هيكل، الرجل ذي الضمادات البيضاء، بعدما فقد عائلته..

غمغم صلاح: هذا ليس بدليل، ربما هي رأت صورته من قبل وعقلها أضافها في الهلوسة و..

هزت ناردين رأسها نفيًا بشدة قبل أن تقول: لم تكن تهلوس، د.هيكل، طبيب المخ والأعصاب الحاصل على جائزة نوبل ورخصة في التنويم المغناطيسي من رابطة هوبر الأمريكية، قد فقد أسرته من أعوام، تم إيداعه بمصحة نفسية لفترة قبل أن يهرُب منها ويختفي منذ ذلك الحين، عالم عبقري، شديد الثراء بالطبع، مليونير للدقة بعد حصوله على نوبل، واسع الحيلة كما وصفوه، يكرِّس حياته منذ فقدانه لعائلته لشيء واحد فقط، الانتقام، هو لم يأخذك ليعالجكِ يا رنا..

قطَّبت رنا جبينها وناردين تُكمل: لقد أخذكِ ليحدد إن كنتِ مذنبة بالقتل أم لا، لقد كنتِ في مُحاكمة ولست بجلسة علاج نفسي.

انقبض صدر رنا..

محاكمة!..

وتذكرت سؤال مصطفى في نهاية الجلسة لها: هل - لسببٍ أو لآخر - احتفظت بأسماء مَن تنمَّروا بمازن وتسببوا في موته؟

كان سؤالًا عجيبًا بحق، تفيق رنا من استغراقها لأفكارها على صوت ناردين وهي تُردف: هو يعاقب أمثال من أخذوا عائلته منه، لكنكِ كنتِ حالة مختلفة وتمت تبرئتك في المحاكمة ولذا أطلق سراحك يا رنا..

- يا إلهي كيف؟ هذا يبدو كضرب من الجنون.

- هو يمتلك المال، والموارد، العالم كله قد نسى أمره، هو ظاهرة قديمة مثل أغاني التسعينيات، تتذكرينها عندما ترين شريط كاسيت أمامك، أو في حالته جريدة عليها عنوان: "ذو القناع الأبيض"، هو لم يقتل عائلتك، ولم يذهب لمسرح الجريمة، لقد أخذكِ من مستشفى الشرطة نفسها، كيف؟ لا يوجد سوى تفسير واحد منطقي، شخص ما من السلطات متواطئ معه، وعندما أبلغ الجيران عن الجريمة وصلت البرقية لهذا المتواطئ فأتى إليكِ مصطفى قبل وصول المباحث للمستشفى، نحن نعلم أن الحراسة يتم تشديدها بعد وصولهم وليس قبل، وهم سوف يتكتمون على خبر اختفاء متهمة أو شاهدة أو ناجية من جريمة، ربما هو قرأ في الجرائد عن الخبر وتحرك بسرعة.. ربما هو يتجسس على ترددات الشرطة لكني أرجح احتمالية أن شخصًا يساعده.. وكل الاحتمالات منطقية في النهاية.. ثم ترككِ في مكان ما لِيتم اكتشافك بعد انتهاء المحاكمة، قد يبدو الأمر صعبًا

التحقيق لكن ليس مع رجل كمصطفى..

كاد صلاح أن يضيف شيئًا لكن ناردين أسكتته بنَكْزة سريعة، فهم صلاح فورًا فصمت، كان على وشك إضافة أن المرشح الوحيد لتهمة التواطئ هو د.آردن، وبحُكم كونة مدير مصحة نفسية واستشاري للسلطات فسوف يصله خبر الجريمة بسرعة، لكن ناردين لم تُرد أن تزرع الشك في صدر رنا اتجاه آردن، فهو الطبيب النفسي المعالج لها والذي يساعدها على تخطى المآسي التي مرت بها، هي لا تريد هدم عالم الفتاة بالكامل..

هنا قالت رنا: إذن مصطفى حقيقي.

هادوك يحارب القراصنة، وينتصر؛ لأنه قوي الشخصية، وهي ستكون مثله، لن تهربَ بعد الآن.. ستواجِه..

نظرت رنا لكلٍّ من صلاح وناردين مضيفة: أريد مقابلته..

***

أغمضي عينيك يا رنا..

العقل يرى كل شيء، اتَّبِعي صوتي أنا..

اتركي عقلك يسترخي..

استمعي لصوت تلاطم أمواج البحر، واشعري بحفيف الرمال الذهبية تخلل أصابع قدميك الحافية، ابتسمي وأنت مغمضة شاعرة بضوء الغروب على وجهك.. لا يوجد تفكير الآن، هدوء فقط.. هدوء جميل ينساب لجسدك.. استرخاء لا مَثيل له..

أنت تتذكرين.. تتذكَّرين كل شيء..

حتى وأنت نائمة فوق المحفة بينما مصطفى يأخذك بعيدًا، كلَّا لا تتركيه يعكر صفو بالك، خُذي هذا الاسم معك للشاطئ حيث الهدوء، مصطفى، أنت غائبة عن الوعي في سيارته لكن عقلك يرى كل شيء، الطريق من حولك، لا أريدك أن تحاولي التذكر، أريدك أن تشعري بمحيطاتك الخارجية، أنت في الطريق الآن، طريق طويل لا ينتهي.. ما الذي تشعرين به يا رنا؟

تمتم الأخيرة وهي مغمضة العينين لناردين: رمال.. أشعر بالرمال.. صحراء تمتد من كل صوب حولي..

وتكرر رنا بصوتٍ حالم: صحراء أبدية..

ينتهي صلاح من المكالمة على هاتفه ويدخل غرفة المكتب قائلًا: هناك تسجيل تجاري..

تنتفض رنا وتفتح عينيها، تنظر ناردين للأرض قبل أن تقول: آسفة على إيفاقتك بطريقة صلاح، ولكن للتأكيد، ستفيقي عندما أطرق بأصبعي

تعقبت ناردين القول بالفعل وتهز رنا رأسها شاعرة بقشعريرة تسري بجسدها قبل أن تلتفت كل منهما لصلاح الذي قال: تسجيل تجاري باسم هيكل داغر في عام ٩٧ بابتياع قطعة الأرض تلك في الصحراء الغربية..

وأشار لجزء على خارطته الإلكترونية.. قبل أن يُردف: لا تقولوا لي،

اكتشفتم خلال جلسة التنويم أنها كانت في مكان بالصحراء..

- يا لك من مُتباهٍ.

قالتها له ناردين بقليل من الغيظ فنظر صلاح ضاحكًا لرنا.

- هي تغتاظ كالأطفال لو توصَّل أحدهم لشيء مهم قبلَها، هيا يا ناردين أنا مُحقق متقاعد ذو خبرة بعد كل شيء، ما الذي كنتم ستفعلونه بدوني؟ تظلون في جلستكم تلك للأبد؟

رفعت رنا حاجبيها كعادتها مع صلاح ثم قالت لناردين بدورها: يا له من مُتباهٍ..

وقفت ناردين وأخذت حقيبتها في حين وضع صلاح هاتفه في جيبه وهو يستعد للرحيل، هتفت رنا: إلى أين أنتم ذاهبون؟

- آه يا فتاة أنت قد وثقت بنا، وأتيت معنا للمكتب وتركت نادرين تنومك مغاطيسيًا، والآن سنريك أننا نستحق تلك الثقة، سنؤدي وظيفتنا ونجعلك تقابلي مصطفى.. هيا بنا..

***

تَنهب عجلات السيارة المستأجرة الأرض نهبًا؛ صلاح يجلس خلف المِقْود، ناردين جواره، ورنا بالخلف متمدده وتقرأ تان تان، كانت تتمدد بثقة في الأريكة الخلفية للسيارة، وهو شيء لم تكن لتفعله من قبل أبدًا، أن تثق بنفسها أمام بشر وتفعل شيئًا به راحتها، لكن هناك شعورًا بداخلها يتزايد بعد كل ما مرَّت به، شعورَب بالقوة والثقة، ومن داخل وُرَيقات المجلة غمز لها هادوك..

وعندما تجد ناردين أنهم يقتربون من الموقع حسب الخارطة الإلكترونية، تلتفت برأسها وتقول لرنا بلطف: ربما لن نجد شيئًا، فلا تضعي كل آمالك في هذا الأمر، ولو وجدنا شيئًا.. حسنًا.. ما أريد قوله هو..

لدهشتها تجد رنا نفسها تبتسم في ثقة وتقول: سأتغلب على القراصنة..

لم تبد دهشة أو عدم فَهم على صلاح أو ناردين لما قالته، وواصلوا رحلتهم..

***

الصحراء..

الرمال الذهبية..

ضوء الشمس..

ترفع رنا رأسها وتنظر لتلك البناية الشاهقة في الصحراء الغربية، بناية يحيط بها سِياج عملاق، بناية من سبعة طوابق، وقد صممت بشكل مستدير على شاكلة قصر صغير، تستقر بها قبة عالية وجميلة فوق نهاية الطابق الأخير، هناك حديقة خضراء بالية خلف السّياج بها شواهد قبور خالية، وعلى انعكاس عيني رنا يقع باب حديدي كبير مفتوح.. تتوقف السيارة على بعد عدة أمتار من المبنى الذي لاح لهم بالأفق في قلب الصحراء، خفق قلب رنا وهي ترى المبنى، يظهر فجأة في العدم بعدما كادت أن تفقد الأمل في إيجاده، شك

وتساؤلات تعصف بداخلها بشأن إيجاده قد ولّت الآن، هل كانت هنا حقًّا؟ داخل هذا المبنى في قلب الصحراء، وباقي المرضى في العنابر الذين رأتهم إبان تجولها مع مصطفى؟..

يطفئ صلاح محرك السيارة وهو يغمغم: لا نريد أن نعلن عن قدومنا، البوابة مفتوحة، لا بد أنه يغلقها ليلًا

ثم تنحنح مضيفًا: لقد أخذتنا الحماسة في إثبات أن مصطفى حقيقي، واكتشاف مكان المبنى، وشتتنا عن السؤال البديهي، ما هي الخطة؟

- الخطط للمبتدئين.

قالتها ناردين وهي تفتح باب السيارة فهتفت رنا: كلّا.

توقفت ناردين والتفتت للخلف مع صلاح.

حدّقت رنا بهما، طريقة التحديق تلك التي تشي بقول شيء مهم وترجو التفهُّم من المستمع، وقالت: أنا بحاجة للذهاب وَحْدي، أنا بحاجة كي أدخل هذا المبنى وأن أُقابله وَحْدي.. أنا عاجزة عن شكركما، لكن..

- لا بأس، سوف ننتظركِ هنا.

قالها صلاح مبتسمًا، فهزت رنا رأسها له بتفهُّم ونظرت لناردين التي كانت تصارع الفضول بداخلها قبل أن تهزّ كتفيها باستسلام وتقول: حظ موفَّق، نحن هنا، صِيحي لو احتجتِ إلينا..

اتسعت ابتسامة رنا فكرَّرت ناردين بجدية: كلّا أنا أعني حقًّا

ما أقوله، انظُري للخارطة الإلكترونية، لقد توقفت عن العمل منذ عشر دقائق، لا توجد تغطية شبكة هنا ولن تستطيعي الاتصال بنا، لو تأخرت أكثر من عشر دقائق سندخل للبحث عنك ولسوف نأتي بالشرطة و..

- لا شرطة. أرجوكم..

قالتها رنا ثم فسّرت: أنا لا أريد أن أشِي به، هو لم يؤذني، أنا فقط أريد فهم ما حدَث.. لقد كنت معه ليومين ولم يؤذني، الحقيقه أنه ساعدني، انتظروني هُنا ولا تقلقوا، عشرون دقيقة وليس عشرة يا ناردين ها، حسنًا.. وداعًا الآن..

ترجّلت رنا من السيارة، انعكست أشعة الشمس على وجْهها، أخذت نفسًا عميقًا، زفرت ثم سارت صَوْب المبنى بخُطًٍ ثابتة..

تابعتها أعين صلاح وناردين قبل أن يُغمغم صلاح: كل النساء مجانين.

***

يتوقف هادوك عن صِراعة مع القراصنة على متن الباخرة.. يقف لاهثًا ويجذب تان تان من ذراعه لينظر معه.. كلاهما ينظر لرنا التي تكاد تصل لبوابة المبنى.. تهزُّ الفتاة رأسها، كفّي عن أفكارك وتخيلاتك، الآن ستعرفين هل أنت مخبولة أم لا، يُجيبها صوتٌ خبيث بداخلها: لكنك قضيت عمرك تتخيلين أن أخاك على قَيْد الحياة.

تهز رأسها في عنادٍ.

" كلَّا لقد شُفيت " " أنا أفضل الآن "..

تطرق ناردين برأسها ويغمغم صلاح: هي تحدّث نفسها.. رائع..

تقف رنا أمام باب صغير، باب صغير تكاد لا تراه، هو المدخل لهذا المبنى الطويل..

تمر بذهنها حافلة محمَّلة بركَّاب هم في الواقع ذكريات جلساتها مع آردن.

"أنت تخيلتِ مصطفى " " لا وجود له " " أحلام يقظة "..

كادت أن تُصدقه، لكنها وَثِقت في حدسها، مهما كان الأمر مُستبعدًا ومُستحيلًا عليكِ دومًا تتبُّع حدسكِ، أومأت رنا لنفسها..

" هل الباب محكم الغلق؟ "

بدأ عقلها في التساؤل:

" كيف ستدخل؟ "

" هل ستطرق الباب ليفتح لها مصطفى وعلى وجْهِه ابتسامة؟ "

لامست يدَها مِقبض الباب وأفكارها تتواصل.

"جرس إنذار" "بالتأكيد محكم الغَلْق لتجنُّب الضِّباع وحيوانات الصحراء" "لن يأتي لصوص هنا بالتأكيد"..

انزلقت يدها من على مقبض الباب الذي أبى أن ينفتح، وهي لن

تطرق الباب بالتأكيد، استدارت مُسرعة وبدأت تدور حول المبنى.

غمغمت ناردين مِن موقعها بالسيارة: تبدو كلصٍّ محترفٍ ذي خبرة.

تدور رنا حول المبنى حتى تصل للجهة الخلفية ولدهشتها تجد نافذة متوارية خلف الغُبار، تقترب رنا من النافذة بتوجُّس، تنحني ببطء ويُخيل إليها أنها ترى حركة بالداخل.. تمُدُّ رأسها وتنظر من زجاج النافذة.. تسمع شهقة.. تتراجع رنا للخلف.. ثم تستجمِع أنفاسها وتعاوِد النظر، لا شيء، آاه ما هذا؟ تضيق عيناها.. مجموعة من الدُّمى؟!..

تمد يدها وتحاول معالجة مِقبض النافذة، لا تعلم إن كانت ستكفي لعبور جسدها أم لا لكنها ستحاول، فقط عليها أن تنفتِح، هيّا افتحي يا حمقاء، لقد انحصرت كل أفكارها ومشاكلها في فتح النافذة بتلك اللحظة..

تك..

نعم هكذا، لقد انفتحت النافذة وغمغمت رنا: تبًّا لكِ يا ميرفي ولقوانينك، أحيانًا يكون الحظ حليفنا.

قالتها ثم حشَرت جسَدها وبدأت تزحف عبْر النافذة..

طبعًا لم تكن رنا تعرف أن الحظ لن يكون بحليفها على الإطلاق..

تقف رنا لتجد أنها في القبو وهناك سُلم خشبي أمامها، تنحني مُسرعة دون أن تنظر خلفها وتصعد السلم، ينفتح بابه معها تلك المرة، وتختفي رنا خارج القبو، غير عالمة أن هناك أعينًا عدة تُراقبها

في الظلام.

الفصل الأخير

انظروا.. هي ذي ليلة سعد..

بين هذي الليالي الموحشة..

حشد من الملائكة المُجنَّحين..

يجلسون في المسرح ليشاهدوا.. مسرحية الآمال..

بينما الجوقة بحرارة تعزف.. ألحان الأجواء.. ألحان الآمال..

ربّاه لقد اصطنع الموت لنفسه عرشًا في مدينة غريبة متوحدة..

بعيدًا في الغرب المُعتم، حيث ولّى والخير والشر، والأسوء والأفضل.. إلى راحتهم السرمدية..

هناك تجد عروشًا وقصورًا وأبراجًا.. أفناها الزمن لكنها صامدة لا ترتجف.. ولا تشبه شيئًا في عالمنا..

هنا ترقد أنهار الأحزان في مسرحية الآمال.. مزدانة بزهور الحلم.. حلمًا أكثر تألقًا من أن يدوم..

أملًا نجميًا ما كاد يبزغ حتى خَبَا.. صوتًا جميلًا ينشادني من المستقبل أن أستمر..

لكن روحي ظلت في الماضي..

خرساء.. عاجزة.. منبوذة..

" إدجار آلان بو "

***

مرحبًا بك رنا في بِناية الأحلام..

ألا تلاحظين شيئًا يا فتاة؟ تلك البناية مُصممة كأنها عقل بشري ضخم.. متاهة لا مخرج منها، لا تجذعي يا فتاة ومُدّي يدك إلينا كي نأخذكِ بجولة في تلك البناية الساحرة.

هنا خلف باب القبو يستقرُّ الطابق الأول، المُصمم على شاكلة مُتحف لوح كامل، واستقرت عشرات الألوح بالطابق، معروضة أمام أرائك مستديرة؛ لوح لمرضَى نفسين، وحالات لا بد أن الطبيب ذا القناع الأبيض عالجها، أو عاقبها !، وفي المقدمة تستقر لوحة رُسمت حديًثا بالزيت لفتاة تجلس على أريكة وهي تلف وجهها بضمادات عدَّة، وأمامها يجلس رجل أشيبَ، يُدخن الغليون، نعم نعم يا رنا لا تقفي أمام تلك اللوحة كالبلهاء، هذا أنتِ بالفعل، طبيبنا رسَّام موهوب كذلك، تتراجعي للخلف وعيناك ترتكزان على اللوحة قبل أن تستديري وتبدئي بصعود السُلم المَعْدني الأنيق المؤدي للطابَق الثاني..

هل أنت مستعدة لما ستجدينه بالطابق الثاني؟

ممرٌّ طويل يرتمي حوله ثلاث عشرة غرفة زجاجية، بها ثلاثة عشر مريضًا نفسيًّا..

أنت كنت هُنا من قبل وتتذكرين طبعًا..

بخطًى مُرتجفة تسير رنا بوجهٍ متصلِّب في الممر، تكاد تفقِد وعيها

مِن الرعب، لا تريد أن تنظر داخل الغُرف..

ساقاها لا تكادان تحملانها..

" أنت يا فتاة تعالي هنا "

تتعالى الصيحة من مريض قفَز على قضبان غرفته، أغمضت رنا عينيها.. ابتلعت ريقها وتجاهلته بمعجزة قبل أن تواصِل السيرَ، لا تنظري داخل الغرف، فقط لا تنظري داخل الغرف.. الممر سينتهي قريبًا..

الأم الثَّكلى نائمة وتحتضن الهواء على أنه رضيعها..

تهمِس رنا: لم أكن أهلوس.

تفتح الأم عينيها مع سماع صوت رنا وتصرُخ: لقد أيقظتي ابني.. لقد أيقظتي ابني.

وتشد شعرها بجنون قبل أن تقفز باتجاه رنا وهي تُرغي وتزبِد، تتراجع رنا للخلف في ذعر بينما تصدم المرأة بقضبان الغرفة فتتراجع للخلف كالحيوان الحبيس، تطلق رنا تنهيدة ارتياحٍ، وهي لا ترى اليد التي تمتد من بين قضبان الغرفة القابعة خلفها، تقبض اليد علي شعر رنا وتجذبها للخلف، تصرخ الفتاة وتتملَّص محاولة تخليص نفسها بينما صاحب اليد يصرخ: عدناااان.. هو عدنااااان.. كلكم عدناااان..

يا إلهي سيظل يجذبها للخلف حتى يقبِض على عُنقها، تثير الفكرة رُعبها، يده الأخرى تمتد باتجاها..

تدفع رنا بجسدها للأمام بكل قوتها وتاركة جزءًا من شعرها بين يديه وتعدو الفتاة بكلِّ سرعتها بينما ضحكاتهم وصرخاتهم تعلو..

تدور بها الدنيا كأنها تعدو داخل دوامة..

تصل رنا لنهاية الممر وتلتفت خلفها وهي تشنج للتأكد من أن أحدًا لا يَتْبعها..

رغم كل هذا الخوف لم يَفُت عليها أن كل غرفة بها مِرحاض ومرآة وفِراش صغير ومرآة مكسورة، لماذا المرايا مكسورة؟

تصعد رنا السُّلم وهي تلهث لتصل للطابق الثالث المُصمم على هيئة بيت أُسري مريح وجميل، به غرف نوم ومعيشة، وصور عدة لعائلة د.هيكل، الطبيب ذو القناع الأبيض، تشعر رنا بذكريات تلك العائلة تطفو في هذا المكان، تدفع بنفسها للطابق الرابع، والذي كان عبارة عن صالة ألعاب رياضية بها ستاد مخصَّص للعَدْو، لم يبد لها أن مصطفى رياضي، ربما هو يحب فكرة أنه لو قرَّر ذات اليوم أن يبدأ في فقدان الوزن فلسوف يساعده هذا الطابق، تُدرك رنا جيدًا أنها تحاول التفكير بأشياء عادية للتخلُّص من الذعر الذي تعرضت له بالطابق الثاني، آخر طابقين كانا يحتويان على مكتب عليه لافتة: "مدير المصحة" وغرفة عملاقة لتوليد الكهرباء، ومطبخ به عدد هائل من الثلاجات ومؤن الطعام.

تستند الفتاة بإرهاق على أحد الجُدران، ثم تنتابها فكرة فجأة تجعل عينيها تتسعان في خوفٍ..

ماذا لو كان قد سمع صراخها؟ هل هو يعلم أنها هنا؟ يراقبها الآن؟

تتلفت رنا حولها برعبٍ..

كلَّا، لا بد أنه اعتقد أنها صيحات جنون معتادة من نزلاء العنابر..

كان هذا عندما انفتح باب غرفة مكتب مدير المصحة..

***

جلس د.مصطفى في مكتبه وحيدًا، أشعل غليونه ونفَث دخانه في قوة، ثم أطفأه ووقف بهدوء، فتح درج الكومود، وارتدى قفازًا أبيضَ، ارتداه ببطء على وجهه، ووقف قبالةَ المرآة المهشَّمة ينظر لنفسه في انعكاسها.. طويلًا.. جواره نافذة صغيرة مغلقة داخل الغرفة قبالة الحائط، نافذة مغلقة تطل على لوحة معلقة لبِناية بها شُرفة مُضاءة، وبداخل تلك الشرفة رسمة أنيقة لفتاة تبدِّل ملابسها..

***

ينظر مصطفى من نافذته للبِناية المقابلة ويتأمل جارته الجميلة وهي تغير ملابسها، ويهمس لنفسه: يا لكَ من وغْدٍ عجوز.

***

يستدير مصطفى من أمام المرآة ويخرج من غرفة مكتبة، في نفس اللحظة التي وقَفت فيها رنا قبالةَ الباب..

***

أحيانًا نندهش من سرعة ردِّ فِعلنا، أحيانًا أخرى نتمنَّى لو كنّا قد أتينا بردَّة فعلٍ..

الشق الأول هو ما حدث لرنا، لقد اندهشت من سرعة جسدها في القفز للخلف والالتصاق بالجدار فور أن انفتح الباب.. تمنَّت في تلك اللحظة أن يبتلعها الجدار لتختفي بداخلها.. وظلّت تردِّد بينما عيناها تتابعان مصطفى الذي خرج من غرفة المكتب: لا تنظر خلفك، لا تنظر خلفك..

آاه سيلتفت ليُغلق الباب ويراني..

لكنه جذَب المِقبض دون الالتفات وسار للأمام..

ظلَّت رنا تحدّق به مشدوهة، ثم وجَدت نفسها تسير بخطًى خفيفة متتبعة إياها..

والآن مع الجولة الثانية يا رنا، خلف الرجل ذي القناع الأبيض..

كانت تحافظ على مسافة بينهما، شعور غريب أن تتبع أحدهم، يتطلب درجة رهيبة من الثبات في الحقيقة، لقد قرأت عن التتبع وشاهدته في الأفلام لكن تلك مرتها الأولى في خوض تجربته.. كانت تشعر أن مصطفى يراها، هناك عينان تُحدِّقان بها من مؤخرة رأسها، كلّا انفُضِي تلك الأفكار عن عقلك وواصلي السير في حذرٍ يا فتاة، وبالفعل تمتثِل رنا لأفكارها.. تتبعه في الطابق الثالث، تعلم أنه قد يلتفت للخلف في أي لحظة، لكن الحقيقة أن المرء لا يلتفت خلفه في المعتاد دون سببٍ، تواصِل رنا السير.. حيث الطابق الثاني، تختبئ رنا أعلى السُّلم وهي تعلم جيدًا أنه قد يتلفت لمراقبة المرضى في الغرف وهو يمر بينهم، تتابعه بعينها، تراه يتوقف أمام غرفة الأم الثكلى ويقترب من النَّزيلة، ترى رنا الأم وهي تحتضِن

رضيعها الخفي، تقترب من القضبان وتهمس بشيء ما لمصطفى بينما عيناها تَتقِدان شرًّا، الواشية القَذِرة، كذا تفكِّر رنا وهي تختبئ، أم أنها لم تخبره؟ يهز مصطفى رأسه ويواصِل السير، تتابعه رنا وهي تحبِس أنفاسها، تكاد تغمض عينيها وهي تمر بين الغُرف المرضى مرة أخرى، أرجوكم لا تصرخوا، لا تهتاجوا، أرجوكم.. يتابعونها هم بأعينهم في صمت، كأنما لم يعُد هناك أهمية للصراخ، تصل رنا للطابق الأول وهي منحنية، لماذا لم تُعلن عن وجودها لمصطفى؟ كانت تريد مقابلته، لكنها لا تأمن ردة فِعله، هي قد تأكَّدت من أنها لم تكن تهلوس، ونادين قد شرحت لها دوافعه، عليها الرحيل الآن..

ولكن ماذا عن النزلاء؟ ألا يحتاجون لإنقاذ؟ كان بإمكانها أن تكون معهم الآن لو لم يتركها مصطفى؟

هل تبلِّغ عنه؟ هل ترحل الآن وتحاول أن تنسى ما رأته هنا؟.. هل..

تتسع عيناها فجأة عندما تُدرك أنها - الحمقاء - قد شردت في أفكارها وهي مختبئة أسفل السُّلم بالطابق الأول وقد غفِلَت عن مكان مصطفى، أين هو؟.. هل يقف وراءها؟ تشعر بوجودٍ ما خلفها، نظرات تحدِّق بمؤخرة عُنقها، تلتفت للخلف وهي تكتُم صرخة..

لا أحد..

هنا تراه، يسير من على بُعد متجهًا للقبو..

القبو التي أتت هي منه..

خُيل لها أنها رأت حركة ما في القبو، لكن النزلاء ومصطفى كانوا

بالأعلى، من الذي تحرَّك بالقبو إذن؟

السر في القبو، أنت أتيتِ منه وبحثت في كل الأرجاء عدا القبو..

السر في القبو..

تأخذ رنا نفسًا عميقًا، ثم تسير حيثما هبط مصطفى، إلى السُّلم الخشبي العتيق المخالف للسُّلم الأنيق إياه الخاص بالطوابق..

هذا السُّلم اللَّعين سيُحدث صريرًا إثر قدميها عندما تخطو فوقه..

سوف يسمعها، عليها أن تكون حذرة قَدْر الإمكان.

تصيح بنفسها: لماذا كل هذا التشويق؟ اختبئي لحين صعوده ثم ارحلي..

لكنها تعرف جيدًا أنها لن تفعل هذا، شيء بداخلها يدفعها دفعًا للمعرفة، مثل هادوك وهو يتَّجه لإنقاذ رجل من سفينة القراصنة، دعك من حقيقة أنها لم تَعُد تملك شيئًا تخسره بعد كل ما مرَّت به..

تهبط السُّلم خلفه، درجةً تلو الأخرى، بحرص محاولة ألا تُحدِث صوتًا..

تتصل للأسفل، وتجد نفسها أمام باب مُغلق، لم تره من قبلُ..

ما الذي يوجَدُ خلف الباب المُغلق؟

أي سر صادِم ينتظرها؟..

تبدأ دقات قلبها في التصاعد تدريجيًا وهي تنظر للباب..

لم تكن رنا تمتلك مؤشرًا واضحًا أو دليلًا على أن ما يقبَع خلف الباب المُغلق سيكون كابوسًا صادمًا تشقعرّ له الأبدان، لكنها تمتلك حدس الأنثى، وهذا كان كافيًا بالنسبة إليها، هذا الانقباض في صدرها، والرعشة السارية بأناملها.. ارتعاشة يدها.. هذا الإحساس الذي ينتاب الغزال في الغابة فيجعله ينتفض ويلتفت خلفه قبل رؤية الأسد، ربما لا يوجد تفسير علمي لهذا الشعور.. الحدس.. لكنها تعلم جيدًا أنه حقيقي، هو الذي يجعل الحيوانات تهرب من مِنطقةٍ ما قبل حلول الزلزال، والذي يجعلك تلتفت لأحد ينظر إليك لأنك قد شعَرت بنظراته تُجاهك قبل أن تراه، والبعض سيقول إنه أحد أسباب خوفنا من الظلام؛ لأن حدسنا يقول لنا أن نخاف.. وبالتأكيد هو الذي سيدفع برنا في تلك اللحظة أن تمدّ يدها المرتجفة وتُدير مقبض الباب لترى ما الذي ينتظرها خلفه.. حدسها يقول لها إنها ستجد شيئًا يصعب وصفه.. يهمس لها حدسها: ما سوف ترينه خلف هذا الباب لهو شيء يستحيل تصديقه واستيعابه، أحد تلك الأشياء التي لو فهمناها لتوقف قلبنا عن النبض من كثرة الرعب..

يشحب وجه رنا، أحيانًا يكون حدسها صديقًا داعمًا ومتفائلًا جدًا، تأخذ الفتاة نفسًا عميقًا وطويلًا.. تُدير مقبض الباب ببطء، هناك قُفل مفتوح تركه مصطفى معلقًا بالهواء بعدما دخَل.. ..

ينفتح الباب ببطء.. هو موارب الآن.. كل ما عليها هو أن تواصِل دفْعَه لترى ما يوجد خلفه..

هنا تستيقظ العقلانية بداخلها، تنتفض مذعورة فجأة وتهب واقفة وهي تستوعب ما يحدث قبل أن تصيح برنا: تراجعي للخلف وارحلي

الآن، إياكِ والاستمرار..

يعلو صدر رنا ويهبط بانفعال، الباب ينظر إليها منتظرًا.. حدسها يبتسم لها بهدوء ويشير برأسه إليها كي تتجاهل العقلانية وتدفع الباب..

تغمض رنا عينيها وتشعر بيدها تحتك بالملمس الخشبي للباب وهي تدفعه للأمام دفعًا ..

الباب مفتوح على مِصراعَيه الآن وعيناها مغلقتان.. هي تعلم جيدًا أنها سترى شيئًا لن يصدقه بشر أبدًا أمام عينيها بعدَ ثوان..

دقات قلبها تصل لأعلى صوت ممكنٍ.. طاخ طاخ..

تفتح رنا عينيها

***

كانت عبير ترقص على أنغام موسيقى خفية مع آزورد، بينما كاليجورا يَغطُّ في النوم، وتشابلن غارق في تأملاته، في حين نظرت أرابيلا لآلة العرض الموصّلة بكاميرا المراقبة في غرفة مصطفى - البلورة السحرية - وهي تعيد عرض ما تم تسجيله من جلسات، إسماعيل يس يجلس وحيدًا في الظلام..

ومصطفى يجلس بين جمهور الدُّمى ينظر إلى المسرح..

شهقت رنا، ورفع تشابلن رأسه ناظرًا لها.. وفتح كاليجورا عينيه، ووجه المهرج المغطي بالطلاء الأبيض، أحمر الشفاه والدموع على وجنتيه في نفس الوقت، نظر كاليجورا لرنا قبل أن يهبَّ واقفًا

ويحني ظهره مشيرًا لها وصاح: لم أكن أهذي، هذا الوجه الذي رأيته ينظر لنا منذ قليل.

***

خيل إليها أن هناك حركة في القبو عندما نظرت من النافذة.

***

تفتح رنا فمها على اتساعه وتنساب دموعها وهي تحدِّق بما تراه أمام عينيها..

ترفع رأسها لأعلى حيث مكبِّرات الصوت في المسرح، أضواء خفية، سماعات موصلة بآذنهم وشفاههم

***

يضع مصطفى يده على أذنه كأنه يسمع شيئًا ما، أصوات تتحدَّث في أذنه

***

عرض الساحر، الآن تراه، الآن لا تراه.

***

المسرح.

***

القبو.

***

كانوا يرتدون زي عمال خاص بمخزن، والعلامة التجارية على زيهم.

***

كانوا تحت تأثير المخدر.

***

يهرب الرجل ذو القناع الأبيض من المصحة النفسية.

***

يجلس في زقاق مظلم جوار صندوق قمامة مرتديًا قناعه الأبيض ويبكي في حسرة بينما الأمطار تغسل دموعه.

***

هو يمتلك الكثير من الموارد لأنه ثري.

***

حاصل على جائزة نوبل، موارد وأموال.

***

عبقري.

***

أبحاث بشأن التحكم في الوعي البشري.

***

يقتفي الرجل ذو القناع الأبيض الدليل تلو الآخر، لكي يصِل إليهم.. يرتدون زي عمال، العلامة التجارية، موارده وأمواله، يبحث عنهم بهوس.

***

ثلاثة رجال وامرأة.

***

لكل قصر غرفه المظلمة.

***

تجاربه وأبحاثه في التواصل مع اللاوعي.

***

التحكم بالعقول.

***

غسيل المخ.

***

د. مصطفى هيكل.

***

يقف مصطفى في معمله النائي بالصحراء وهو يُعد المحاليل ويحدِّث نفسه هاتفًا: لا يستحقون الحياة.

***

مشروع المصحة النفسية والمنتجع النفسي الذي لم يكتمل رسميًا.

***

يهشم المحاليل ويرتمي أرضًا في غضب، ماذا لو تغلبوا هم عليه؟ لو فشلت تجربته؟ هل الخطة ناجحة في عقله فقط؟..

***

يقف مصطفى ويعود لعمله بوجه يعتليه التصميم.

***

هو لم يرتد القناع الأبيض؛ لأنه لا يطيق رؤية نفسه..

هو يرتدي القناع الأبيض؛ لأنه لا يريد لهم أن يروه ويتذكروا..

***

هم.

***

يتسلل العالم المخبول في ليلة عاصفة وممطرة للمخزن، يمر في عقله شريط ذكريات تَقفِّيه لهم، الأموال التي يدُسها في يد شيخ الحارة، الأخير يقول له بصوت أجش: هم ينامون في المخزن جوار

الترعة، والمعلم يتركهم لحالهم رأفة لحالهم..

يتسلل مصطفى للمخزن ليلًا، الأدرينالين يتدفَّق بجسده، كل جزء من جسده يرتعِش، لكنه يرتكز بعقله على ذكرى مقتل عائلته، يستنشِق الغضب استنشاقًا، وهو يعلم جيدًا أن الغضب قادر على تحويله لآخر.. هم مستيقظون، يجلسون حول النيران بالداخل ويشربون الشاي، المرأة والرجل الكهل، أين الآخرون؟ آاه أحدهم نائم والرابع يقضِي حاجته في الرُّكن البعيد، يرقد مصطفى منتظرًا، حابسًا أنفاسه، ينتظر للأبد والوقت يمر بطيئًا، ماذا لو أتى الأخرون؟ ماذا لو حدث أي شيء؟ سينتظر حتى يناموا، يحل الغسَق، مصطفى يرقد منتظرًا، أنفاسهم منتظمة والنيران قد انطفأت، كلهم نيام.. يتحرك مصطفى، المخدر في يده، يرشه في وجوهم.. تستيقظ المرأة وتفتح فمها لتزأر كحيوانٍ مفترس بعينين متسعتين، يكمِّم مصطفى فمها بيده وهو يرجو الله ألا يكون قد سمعها أحدهم، نومهم ثقيل، المرأة قد استهلكت نصف المخدِّر، لكنه أتى بعلب إضافية، هو لم يحصل على نوبل من فراغ.. تزوغ عيني المراه الشيطانة ويهرب منها وعيها، يلهث مصطفى ويزحف، ويواصل عمله في إرسال الآخرين للنوم العميق..

***

الشاحنة التي ابتاعها تنتظره بالخارج.

***

يقودها في قلب الليل متجهًا لقصره الخاص، هذا المبنى الذي بناه

بنصف ثروته في الصحراء.. يوقِفه كمين في الطريق الصحراوي، فيخرج مصطفى الأوراق الحكومية ويُعطيها للضابط، لقد حصل على تلك التصاريح الحكومية الطبية الخاصة بمنقولات المصحة من آردن بعدما دفع مبالغَ طائلةً، ويعبُر مصطفى الكمين دون تفتيش.. تستمر الرحلة الطويلة، ثم يصل مصطفى لقصر ذكرياته، الذي بناه في عالمنا هذا..

***

كان يعلم جيدًا ما ينتويه لهم، وسيلة العقاب، لا موت هُنا ولا تعذيبًا جسديًا، عقابهم هو طمس الهوية..

السجن الأبدي في القبو.. سيصبحون جزءًا منه، سيجعلهم منه، وسيشعرون بحسرته وألمه، ضحاياهم سيكونون عائلتهم، سيقنعهم أنهم ليسوا حقيقيين.. لأنهم لا يستحقون أن يكونوا حقيقيين، هم وهم، سراب، هم شخصيات خيالية داخل عقله..

***

يصرخون وهم مُقيدون بينما الكهرباء تسري داخل رأسهم..

مصطفى يقف أمامهم بقناعه الأبيض وهو يريهم صور عائلته..

يبكون.. يصرخون..

مثلما بكوا في صالة العرض وهم يشاهدون مقطع الفيديو الأخير الذي صوره ابنه..

يصيح مصطفى بصوت هادر: أنتم لستم حقيقيين، أنت جزء

من عقلي، سوف تظلون في غرفة المسرح للأبد، سوف تصبحون شخصيات أخرى، سأعلمكم وأثقفكم، أثري عقولكم القذرة، سوف تنسون من أنتم، أنتم ملكي الآن، وستقضون حياتكم في مساعدتي لاقتناص من هم مثلكم والكشف عن الجُناة من أمثالكم..

يستغيثون، يبكون، يتجاهلهم مصطفى ويحقنهم بالمزيد من أدواته..

ينقضي أول عامين، يشعرون أنهم سيموتون، حاولوا خداعه ومسايرة أفكاره الجنونية ذات مرة لكنه كشفهم وعقابه كان مريرًا..

استمرت التجارب، وهم معلّقون داخل أنابيب زجاجية والسواء تسري في أجسادهم.. لقد خاض مناظرات عدة قبل حصوله على نوبل بشأن فاعلية أبحاثة، لكنه كان واثقًا أنه قد فَهم الوعي البشري وكيفية التحكم به.. .

ثم أتت الليلة، وفتحت المرأة عينيها بنظرة زائغة، وقف مصطفى أمامها بقناعه الأبيض وهتف: مَن أنت؟

- أرابيلا، أنا أرابيلا

- نعم، أنتي الساحرة التي لطالما أخافت ابنتي.. وأنت، مَن أنت؟

- كاليجورا هاهاه المهرج الضاحك.

- لطالما افتتن بك ابني.. وأنت؟

- تشارلي تشابلن طبعًا.. في خدمتك..

يتجه مصطفى نحو رابعهم وينظر إليه فيقول الشاب: أنا آزورد، فارس فرسان المماليك.

- في ذكرى زوجتي التي لطالما أحبت التاريخ..

وهكذا أقنعهم مصطفى بأنهم شخصيات خيالية داخل عقله بعد عام من التجارب المستمرة على عقولهم..

واقتنع القتلة الذين سلبوه عائلته بأنهم جزء منه، يبكون مثله لفراق ضحاياهم، تراهم يجلسون عُراة داخل أنابيب زجاجية والمحاليل موصلة بأجسادهم، يتعلمون كيفيه النطق، مصطفى يعلمهم، بعدما غسل عقولهم، مئات الكتب في المعمل وهو شرائط الفيديو، يقرأ لهم، يشاهدون..

قبائل السلت.. الأميرة النائمة.. أفلام تشارلي تشابلن.. كتاب أيام المماليك..

تنقضي الأشهر، ثم يقودهم مصطفى صوب المسرح الكبير..

بعدما أعطاهم الدرس الأخير..

كتاب التحليل النفسي لسيجموند فرويد..

وشرح لهم مصطفى مرضَ تعدُّد الشخصيات وأقنعهم أنه مُصاب به، هم مجرد شخصيات داخل عقله..

شرح لهم الأعراض بالكامل..

طعامهم أصبح المعلومات التي يمدهم بها خلال مكبرات الصوت..

لكن عقولهم تحوّل صوته لطعام شهي، في حين مأكلهم ومشربهم تحولوا لعاده يمارسونها دون استيعاب، وأصبح مصطفى دومًا يسير بسماعة داخل أذنه تنقل لهم حديثهم.

***

وضع يده على أذنه كأنه يسمع صوتًا داخل رأسه.

***

أعد لهم كل مهيئات الخبال داخل المسرح؛ طلاء وجهٍ، زي مهرج وزي رجل إنجليزي من القرن التاسع عشر..

قبعة ساحر.. بل إنه حقن أرابيلا بعيِّنةٍ من الجذام ليزيد من عقابها، فأصبحت الساحرة الشريرة مريضة جذام يتساقط جلد وجهها وتضع الكثير من الطلاء لتداري قبحها..

ومر الوقت..

نرى مصطفى يقرأ الجرائد، يتابع أخبار الجرائم..

***

وقعت جريمة شهيرة لرجل قتل زوج عشيقته بعدَما تآمر معها.. لم يكن هذا هو نصُّ الخبر في الجريدة..

الخبر كان ببساطة: مقتل الزوج، لكن مصطفى اختطف الزوجة وعشيقها، ومثلما فعل مع رنا قام باستجوابهما مستخدمًا تقنيات التحليل النفسي، ومستخدمًا الشخصيات في المسرح.. وقد ساعدوه

هم وتوصل للاستنتاج..

لكن الزوجة ماتت من الرعب عندما اكتشفت الحقيقة، ماتت في المعمل وهو يحقنها بالمحصِّن، فاكتفى مصطفى بعقاب الرجل، الذي اتجه إليه وهو يقبع داخل الأنبوب الزجاجي يرتجف بعد شهر كامل قضاه في المعمل..

" من أنت؟ "

ينظر الرجل بوجهٍ شاحب وعينين زائغتين لمصطفى، قبل أن يمط شفتيه بشكل مضحك ويقول: إسماعيل يس..

يهز مصطفى رأسه، الممثل المفضل لزوجته، يرحل مصطفى تاركًا الرجل يشاهد عشرات الشرائط لإسماعيل يس..

ثم يذهب به للمسرح، ولأنه قدم بعد تكوين المجموعه، آثر الرجل أن يجلس وحيدًا في الظلام..

ولم تكن عملية التجميل التي أجراها على إسماعيل يس بسيطة، وإطعامة لزيادة وزنه كذلك.

***

كان يبدو وأنه قد تعرَّض لعملية تجميل.

***

د. آردن يتلقى زيارة من الرجل ذي القناع الأبيض، " سأقدم لك المال والحقيقة بشأن أبغض الجرائم مقابل مساعدتك، ليس كل من

آخُذهم جُناة؛ ولذا سوف أُعيد لك الضحايا "..

***

خبر في جريدة: مصرع أسرة في حادث سيارة مروِّع..

ينتهي مصطفى من قراءة الخبر، أُسرة كاملة، امرأة وأبناؤها وجَدَّتهم كانوا في السيارة التي انسحقت، بسبب سرعة وتهور فتاة ثَرية غير مسئولة كانت تُسابق حبيبها بسيارتها، فتاة ستتمكن عائلتها ذات النفوذ من أن تجنّبها أي عقاب مُحتمل، عدا عقابه هوَ، ينظر مصطفى لصورة الفتاه الثرية..

***

تفتح عبير عينيها، أين هي؟ غادة الكاميليا..

***

عبير

***

والآن يجلس مصطفى وسط جمهور المانيكان والدُّمى، وأمامه خمستهم ينظرون لرنا..

كاليجورا، تشابلن، أرابيلا، عبير، بينما إسماعيل يجلس في الظلام جوار اللوحة الكبيرة المغطاه بالقماش.. تنظر عبير بعدم فهم لرنا، وتترك يد آزورد، تسير كالمسحورة للأمام وهي تحدِّق بوجه عبير، تهمس لها: أنت لست حقيقية، أنت واحدة منّنا، جزء من عقله

ثم تنظر لآزورد وتهمس بحيرة: أليس كذلك؟

تصيح رنا: يا إلهي الرحيم، أنتم حقيقيون.. لا تصدقوه..

- هشش اصْمُت يا مازن.

يصيح كاليجورا بالعبارة واضعًا أصبعه أمام فمه، وتضع أرابيلا مساحيق على وجهها المتآكل قبل أن تقول: ألا تنحني أمام ساحرة الشمال والجنوب.

- يا للجنون.. يا للجنون

تكرر رنا الكلمة وهي تتراجع للخف..

- يا شاااويش.. يا بووووليس

يقولها إسماعيل يس بطريقته الهزلية وهو جالس في موضعه..

تضع رنا يدها على رأسها، تدور بها الدنيا، ثم يظلم كل شيء..

***

تفتح رنا عينيها، وجه مصطفى أمامها.. تقف رنا بعينين شاردتين وتعبير وجْهٍ متصلِّب..

ويخرج من رنا صوت ساخر يتحدَّث لمصطفى، صوت مازن: من الغريب أن أجدك واقفًا أمامي بمكانٍ خارج غرفة الجلسات، رجلا أمام رجل، ليس كطبيب نفسي مع المريض.

يهز مصطفى رأسه، قبل أن يرد بهدوء: مرحبًا يا مازن، أرى أنك قد عُدت مرة أخرى لحماية رنا..

- كلَّا، لقد عُدت لأقول لك .. إني سوف أحرق بيتك لو آذيتها، وداعًا يا دكتور..

- وداعًا يا مازن.

تزوغ عينا رنا، كل شيء يدور بسرعة من حولها، أصوات وأضواء تختلط ببعضها، تفتح عينيها، مصطفى أمامها، تشهق متراجعة للخلف ملتصقة بباب المسرح، قبل أن تصرخ: أنت مسخ.. مسخ..

من موقعِه يصيح كاليجورا: إنها تدعونا بالمسخ.

- إياك.

ترفع أرابيلا يدَها مهددِّه بينما يقول تشابلن: لا بد من عقلانية في موقفٍ كهذا..

أما عبير فقد وقَفت صامتة، تنظر لما يحدُث، أرادت أن تقول للوافدة الجديدة أن تكون واثقة من نفسها كمياه النهر المتدفقة..

- مسخ.

تصيح رنا بالكلمة، في إرهاق، يرفع مصطفى يده لكي تصمُت قبلَ أن يقول بهدوء: أنا لست بمسخٍ، ليحذر مَن يحارب المسوخ فلسوف يكون واحدًا منهم في النهاية، وهو مَن يحدِّق في الهاوية السحيقة عليه أن يحذر؛ لأن الهاوية أيضًا تحدِّق به، أليس هذا ما قاله نيتشه؟ أنا لست بمسخ يا رنا، أنا رد فِعل لهم، قتلوا أسرتي، وهؤلاء بالطابق الثاني، أم قتلت ابن أخيها طمعًا في الميراث، رجل اقتحم بيتًا وقتل رجلًا؛ عدنان وزوجتَه لأنه أراد سرقة بعض الجنيهات، هل تتخيلين

هذا؟ رجل يبني حياة مع زوجته فيأتي لصٌّ فيهدم كل شيء بحفنة من الجنيهات لكي يبتاع بها بعض المخدرات، أنا لست بمسخ، أنا الانتقام، بكل بساطةٍ..

تمتمت رنا مبهوته: أنت أقنعت الرجل أن ضحيته هو كل الناس من حوله، أن الجميع هم عدنان؟!

- نعم

قالها مصطفى بزهوةِ المنتصر وأردف: أبحاثي عن الوعي البشري قد نجحت.

- أنت أقنعت قتلة عائلتك بأنهم شخصيات خيالية، ولم يكن هذا يكفيك، تختطِف مرتكبي الجرائم والمشتبه بهم وتقيم محكمتك الخاصة هنا.

- من أجل العدالة، نعم..

تدمع عيني رنا وهي تنظر له.. قلبها يكاد يُحطِّم صدرَها من الخفقان..

ويكرِّر مصطفى بقليل من الشرود: أنا لست بمسخ.

تتراجع رنا للخلف، وينظر لها مصطفى في صمت.. تتوقف رنا عند عتبة الباب..

وتفكر في أبيها، ما كان يفعله بهم..

تغمض عينيها، هادوك يحارب القراصنة، تفتح رنا عينيها.. تمسح

دموعها قبل أن تقول لمصطفى: ليل بلا نهاية

يهز الأخير رأسه بابتسامة جانبية، تتنهَّد رنا، لن تفكِّر فيما ستقول، لن تخطط، ستفتح وتترك الكلام ينطلق لحال سبيله.

- أنا لن أخبر أحدًا عما رأيته هنا اليوم.

- شكرًا يا رنا.

- وداعًا يا د.هيكل.

- الوداع يا رنا..

ثم أضاف بلطف: دعيني أفتح لك الباب الأمامي..

وسار أمامها بتأدُّب، التفتت رنا وألقت نظرة أخيرة على المسرح، لكاليجورا وتشابلن وأرابيلا وإسماعيل يس.. وعبير

التقت أعينهم لعدة ثوان، ثم رحَلت رنا..

***

- ألا تؤمن بالفرصة الثانية؟ علم النفس لا يعترف بأن المرء يولد شريرًا، المرء يتعرض لظروف تحوله وتدفع به لإيذاء الآخرين.

- لكن آخرين يتعرضون لنفس الظروف، وتجدهم يعانون في صمت ولا يؤذون غيرهم، بل إن بعضهم يحاول مساعدة مَن هُم مثلهم.

- إذن - يا د.مصطفى - أنت تؤمن بأنه لا توجد فرصة ثانية لمن ارتكب الأذى بحق الغير؟

مصطفى ضاحكًا: لم أقل هذا، لكني قد أعتقد أنها ستكون فرصة مختلفة قليلًا، لن تكون تقليدية..

" جزء من ندوة لد.مصطفى بعد حصوله على جائزة نوبل بينما أسرته يجلسون في القاعة والفخر يعتلي وجوهم "

***

- من كان هذا الذي يقف مع مازن؟

- قلنا مائة مرة إنها رنا وليست مازن.

- لكن مَن الذي كان معها؟

تهمس عبير بالعبارة المتسائلة بعدما ينغلق الباب ويختفي وجه الرجل ذي القناع الأبيض، يعقد آزورد حاجبيه مجيبًا: عمن تتحدثين؟ أنا لم أرَ أحدًا معها..

تشعر عبير بتزايد في نبضات قلبها، ثم تعود لتجلس خلفَ أرابيلا، تشابلن كان يتأمل الفراغ في شرود وبدا أنه ليس هنا حقًّا، كأن عقله قد انزوى بعيدًا، ما لم تعلمه عبير أنهم أحيانًا ينامون بتلك الطريقة، كالخيل، وهم جالسون بأعينٍ مفتوحه، تلك إحدى الأعراض الجانبية للتلف في عقولهم بعد تجارب مصطفى عليهم، كاليجورا كان ينظر لأصابعه في حيرة، ثم رفع رأسه صوبَ عبير التي تحاشت نظراته في ارتباك..

وفي قنوط غمغم تشابلن: أتمنى أن تأتينا قضية أخرى سريعًا لنحلها، أنا أشعر بالملل.

هزت عبير رأسها، من العجيب أن حتى الشخصيات الخالية مثلها يشعرون بمرور الوقت، هنا أخذت عبير نفسًا طويلًا، هل هذا هو الضجر الذي يتسرَّب لروحها؟ وجدت نفسها تقف وتتجِه بحذرٍ للوحة الكبيرة جوار إسماعيل يس، مدَّت يدها وأمسكت بطرف الغطاء القماشي فقال كاليجورا ضاحكًا: هو هو هوه.. لا أنصحك بفعل هذا..

واستعاد تشابلن يقظته فنظر إليها، في حين تثاءبت أرابيلا وتحسَّست وجهًا وهي تضع المزيد من الطلاء..

ربت آزورد على طرف سيفه وهو ينظر لعبير..

وأصدر إسماعيل يس صوتًا مضحكًا من شفتيه..

تنهدت عبير، ثم جذَبت الغطاء القماشي ليسقط أرضًا، وحدَّقت الفتاة باللوحة الماثلة أمامها..

بدءوا جميعًا يهيجوا كالقرود في حديقة الحيوان..

" هوهو هو " " اصمت يا كاليجورا " " أنا سيدة الجميلات " " سوف أسحق العثمانيين " " يا شااويش.. يا بوليس "

ثم عادوا لهدوئهم بنظرات باسمة، بينما عبير تنظر للوحة الكبيرة أمامها..

لوحة مرسومة بالزيت..

لمقهى في وسط البلد، حافلة كبيرة تقترب، امرأه تحتضن ابنتها، ورجل ساقط أرضًا.. فتًى يحمل كاميرا بين ذراعيه..

وأربعة أطياف بعيدة، يرتدون زيًّا موحدًا.. أربعة أطياف لثلاثة رجال وامرأة.. لم تتبين عبير وجوههم، لكنها شعرت بانقباضة ما في صدرها، ثم استدارت ونظرت لرفاقها الأربعة الملتفين حول جهاز العرض الذي ينقل بصوت وصورة جلسات مصطفى مع المرضى، جهاز العرض المُصمَّم على شكل بلورة سحرية، نظرت عبير لوجوههم وهي مقطَّبة الجبين..

عادت بناظريها للوحة..

هناك ذكرى خافته تلوح في عقلها، سيارة مهشَّمة، طفل وأمه، جثث هامدة، صراخ، حادثة مروعة.. هي تقود سيارة وهي ثملى، تقودها بسرعة جنونية، تصطدم بسيارة بها أسرة صغيرة.. زجاج مهشَّم ودماء في كلِّ صوبٍ.. جثثهم أمامها..

شهقت عبير.. . واستدارت عيناها صوب الركن الذي رأت فيه وجه الرجل ذي القناع الأبيض..

ثم عادت بعينيها للوحة والانفعال يغمر جسدها..

- ما بك يا فتاة؟

نظرت عبير إليهم مجددًا، ثم للوحة، وللأطياف الأربعة..

صراع يدور داخل عقلها، صراع هوية، وإدراك للحقيقة..

ثم أغمضت عبير عينيها، هي لم تتسبب بمصرع أسرة.. هي ليست هذا الشخص.. هي غادة الكاميليا، ولسوف تساعد د.مصطفى في معالجة من يعانون مثل مازن ورنا..

وببطء.. ارتسمت على شفتيها ابتسامة طويلة وتجيبهم: لا شيء..

ثم عادت لتجلس بينهم مضيفة: أتمنى أن تأتي القضية سريعًا، أنا بحاجة لطعام..

ولسبب ما انسابت لعقلها قصيدة رنا المفضلة فوجدت نفسها تتمتم: كل حين وكل صباح.. بعضهم يولد لنسيم مشرق..

وارتكزت عيناها على اللوحة العارية لثوانٍ قبل أن تُضيف: وبعضهم يولد لليل بلا نهايةٍ.

***

جزء من تسجيل صوتي لملاحظات د.مصطفى هيكل:

ربما يومًا سوف يتهمونني بالجنون، ولسوف يتساءلون لماذا لم أقتلهم فحسب؟ لماذا الانتظار لعامين حتى تنجح التجربة ويفقدوا هويتهم؟ سيشير العامة إليّ ويصيحون: العالِم المهووس المهرطِق، لكن أحدًا لن يفهم ما مررت به حقًّا، هم لم يستحقوا الحياة، وأمثالهم لا يستحقونها بالتأكيد، لسوف أستمر في عملي، ومحاكماتي لن تتوقف طالما حييت، ومن كان بريئًا مثل رنا فهو حرٌّ طليق، أما من كان مثلهم، فهو منهم.. على أن أنام الآن، هناك تجارب عدة لم تكتمل بعد..

***

جزء من تفريغ لكاميرات المراقبة الخاصة بالطابق الثاني:

تعالت صيحات عدنان المحبوس في غرفته جوار غرفة الأم

الثَّكلى، واختلطت الصيحات بضحكات قادمة من عدة غرف أخرى..

***

خرجت رنا من المبنى دون أن تنظر خلفها، سمعت الباب ينغلق من خلفها، وتخيلت وجه مصطفى يختفي من خلفه..

أخذت نفسًا عميقًا، زفرت.. ثم واصلت السير.. هتفت ناردين فور رؤيتها وهي تجلس في السيارة: مر أكثر من عشرين دقيقة، كنت أتجادل معه كي ندخل إليك في تلك اللحظة، هل أنت بخير؟

جلست رنا في المِقعد الخلفي بشرود، ثم رفَعت رأسها وأجابت: أنا بخير الآن..

نظر إليها صلاح من خلال مرآة السيارة طويلًا قبل أن يتمتم لناردين: قلتُ لك إنها بحاجة لبعض الوقت بالداخل..

ثم أدار صلاح محرك السيارة، وسأل رنا: هل نرحل؟

ابتسمت رنا له، ولناردين.. قبل أن تغمغم بإرهاق وهي تغمض عينيها: لنرحل، أنا مرهقة، وأمامي آلاف الأميال كي أقطعها قبل أن أنام..

ولسبب ما جال بذهنها الغراب الذي وقف قبالة شرفة غرفتها ذات ليلةٍ، هذا الغراب الذي خاضت معه محادثة كاملة..

فغمغمت رنا: كل ليلة وضحاها، يحلِّق أحد الغِربان.. كل ليلةٍ وضحاها.. يسقط أحدُ الغربان.. كل ليلة من الليالي السَّبع، ستحلق كل الغِربان معًا..

ثم التقطت مجلة تان تان وبدأت تقرأ، ابتسمت وهي ترى هادوك يعود من سفينة القراصنة السالمة بينما صلاح يقود السيارة مبتعدًا عن تلك البِناية البعيدة في الصحراء..

***

انتهى القط من التلصص على ما يحدث داخل القبو المحتوى لغرفة المسرح، وعاد أدراجه بجسد متموِّج وذيل مرفوع، سار القط والتفت برأسه ليُلقي نظرةً أخرى للمبنى، نظرة من طراز: لقد رأيت كلَّ شيء، مر بعدها جوار شاحنة مصطفى المركونة أمامه، وانعكس المشهد كله على عيني القط اللتين تحولتا للون الأصفر.. وربما بقليل من الخيال يمكننا القول إن عيني القط الصفراوين كان بهما بريق من الحكمة بعد كل ما رآه..

ربما، بقليل من الخيال فحسب..

ثم دخل القط المبنى..

***

النهاية